إلى آخر الزمان

منصور وهند: حب في مشوار حياة

بقلم د. ريم منصور الأطرش

إلى آخر الزمان

منصور وهند: حب في مشوار حياة

بقلم د . ريم منصور الأطرش

دار تساؤلات
للنشر والطباعة والتوزيع
٢٠١٤

إلى آخر الزمان

منصور وهند: حب في مشوار حياة

بقلم د. ريم منصور الأطرش

دار تساؤلات للنشر والطباعة والتوزيع

صيدنايا / دمشق

هاتف : ٣٧٤٠٩٢٨

جوال: ٠٩٣٢٤٣٠٣٤٤

publishersquestions@gmail.com

الطبعة الأولى ٢٠١٤

جميع الحقّوق محفوظة للمؤلف

Copyright © 2014• All Rights Reserved

Questions publishers

الفهرس

	المقدمة	٧
١-	ولادتي وطفولتي المبكرة	١٣
٢-	في المدرسة	٢٩
٣-	أمي	٦٥
٤-	أبي	١٠٣
٥-	في بيروت	١٢٧
٦-	جدتي سميّة	١٤٧
٧-	جدي سلطان	١٥١
٨-	بيت الميدان وبيت القريّا	١٧٣
٩-	أصدقائي رامة وأليسار وناصر	١٨٥
١٠-	كُتُبي	١٩٧
١١-	الحرير في سورية	٢٠٥
١٢-	دراستي العليا وعملي ورحلاتي	٢١٩
١٣-	سورية قلب العالم. دمشق قلب سورية	٢٥٩
١٤-	منصور وهند: حب في مشوار حياة	٢٧٥
	الخاتمة	٣٠٩

المقدمة

إلى آخر الزمان؛ منصور وهند، هي قصة حب في مشوار حياة... هي حكاية ذكريات شخصية واقعية، لم تكن لرغبةٍ في الحديث عن نفسي وعمّا مرّ بي، بقدر ما كانت قصة حب جمعت بين منصور، أبي وهند، أمي تستحق أن تُروى وتُدوّن من "شاهد عيان" يسعى إلى الحقيقي والأساسي في هذه الحياة... فكما رأيتُها وعايشتُها، هي قصة حب نادرة في زمنٍ كثرت فيه المظاهر السطحية والمراءاة، وكثر فيه الكذب!

حب صادق غمرني بطيفه وعلّمني كيف يكون الحب حرية اختيار والتزاماً وتضحية وتفانياً... لم أصادف مثله في يوميات كلّ مَن عرفتُهم وعايشتُهم عن قُرب، وقد اختاروا العيش معاً ضمن رباط الزواج أو خارجه! إنما قرأتُ عن أمثال هذا الحب في حكاية "قيس ولبنى"، فأردتُ أن تكون هذه الحكاية بعنوان: "إلى آخر الزمان" وهو الحب الأبدي بين "منصور وهند".

هذا الحب جمعهما في الحياة الدنيا وفي الحياة الأبدية... حتى في مرقدهما الأخير، بقيا الواحد إلى جانب الآخر... فتحققت جملة أبي الشهيرة "إلى آخر الزمان" التي كتبها لأمي بالفرنسية ووضعها على باقة من الورود الدمشقية الحمراء، وقدمها لها في عيد الحب في العام ٢٠٠٦ ورحل بعد ذلك بتسعة أشهر:

"Jusqu'à la fin des temps"

لماذا اخترتُ تشبيه حكاية هذا الحب بقصة "قيس ولبنى"؟ لأنه كان حباً عذرياً... ثم بعد الارتباط في الحياة الزوجية، واجها معاً مختلف الصعاب دون أن يتخلّى أحدهما عن الآخر واستمرّا في هذا "الحب – العهد" حتى آخر لحظة في حياة كلّ منهما!

استخدمتُ صيغة المتكلّم لأنني أردتُ نقل الحكاية لتكون شاهداً على ما حدث أمام ناظريّ وعلى ما سمعتُه من أبي وأمي وما جرى معي شخصياً... وقد اخترتُ كلّ ما له علاقة بهما ويصبّ في عمق خيارهما وسُمُوّه، وتجنّبتُ الحديث عن حوادث كثيرة خاصة بحياتي الشخصية، لأن الهدف هو حياتهما وحبهما؛ كما أن ما كتبتُه يمسّ أعماقي ويعبّر عمّا أومن به في هذه الحياة!

قد أكون انتقائية في كتابتي، فثمة أمور لم أشأ قولها على صُعُد كثيرة، أو أني قاربتُها تلميحاً لا تصريحاً!

اخترتُ اللقطات الأجمل والأعمق، لكنّ هذا لا يعني أن الحياة كانت ورديّة في كل تفاصيلها! غير أني أؤكد أنه ما من خلاف على الأساسيات فيها... مع ذلك، فإني لا أنسى جملة الفيلسوف جان بول سارتر التي كانت أمي تردّدها دوماً فتقول: ***"الجحيم، هم الآخرون، L'enfer, c'est les autres"***!

حاولتُ نقل حكاية واقعية فيها عبرة لِمَن ما زال يؤمن، مثلي، بالحب وأهميته في الحياة بشكل عام وفي الحياة المشتركة بشكل خاص، دون النظر إلى الفوارق في الأديان والطوائف والمذاهب!

لقد آليتُ على نفسي في حلّي وترحالي في كل أجزاء سورية الحبيبة أن أزور مساجد وكنائس ومزارات كل مدينة وقرية سورية لأختبر شعوري.

تحقق لي ذلك في العام ١٩٩٢ حين كنتُ أبحث في موضوع "الحرير في سورية" وسافرتُ في كل أنحاء بلدي: في المسجد كما في الكنيسة، شعوري هو هو، خشوع واحترام لا يتبدّل... أليست كلّها بيوت اللّه سبحانه وتعالى؟

كنتُ أعتقد وما زلتُ، أن أبي وأمي بارتباطهما معاً قد فتحا لي وللآخرين أبواباً واسعة في تنوّع الحياة وتفتّحها وثرائها، ولهذا فإني لا أبرّر مطلقاً إغلاق هذه الأبواب، الواحد تلو الآخر، والامتناع عن إكمال المسيرة الزاهرة بحجة انغلاق المجتمع وتراجعه عن تعميم الخطوات الزاهرة والمضيئة في حياتنا جميعاً؛ ذلك المجتمع الذي ما زال إلى اليوم يحار في تصنيفي، ضمن رؤيته الدينية والطائفية، لا بل والمذهبية الضيقة، فأعاجله بجواب يسخر من ضيق الأفق هذا ويحيّره: "أنا دروز أرثوذكس!" ثم أُردِف قائلة، زيادة في حيرته: "أنا إنسان أحاول أن أجمع في قلبي المسيحية والإسلام، لكنّي أومن أن الدين للّه والوطن للجميع"!

في أحد الأيام، طرح عليّ الأستاذ المحامي نجاة قصّاب حسن هذا السؤال قائلاً: "ريم، أيّ قسم منك هو مسلم موحّد وأيّ قسم مسيحي؟" فأجبتُه دون أدنى تردد: "أنا منقسمة طولانياً بين الاثنين، وأستطيع أن أنقّل قلبي تارة إلى الجهة اليمنى وأخرى إلى اليسرى"! فأجابني باسماً ومندهشاً: "توقّعتُ أجوبة عديدة منك، غير أني لم أتوقّع هذا الجواب الذكي والمعبّر"!

أودّ الاستشهاد ببعض ما أرسله لي صديقي وابن عمتي المحامي ناصر الداوود بالبريد الإلكتروني، بعد أن قرأ رسالتي إلى أمي في ذكرى أربعينها، والتي أوردتُها في بداية الفصل الثالث، إذ كتب يقول:

﴿ أخيراً قرأتُها رسالتك لأمك "هنّود". الرسالة مخاطبة للاستذكار، ورسالات أسلافنا عهود علينا للاقتداء. فعلى قدر ما نستطيع، لا كما نهوى، يجب الاقتداء بمن سلفنا، بالمناقب الوطنية والأخلاق الإنسانية. أن

نتنكّب تاريخهم سلاحاً يعني أن نستحوذ على القوة والإرادة في الصمود والتحدّي، أما أن ندير الظَهر لتاريخهم ولسيرتهم القومية والوطنية، فهذا يعني نفياً لوجودنا. فمَن لا يتأثّر بتجارب سلفه الصالح ويقتدي بها فإنه لا شكّ عابر سبيل على هامش الحياة. عهدي بك يا ريم أنك من المتنكّبين لتاريخ أسلافك سلاحاً تواجهين به المارقين بأجسادهم السمينة وعقولهم المتورّمة كالطبول.

لك سلامي ومحبتي، ولِـ "هنّود" وأبي ثائر الرحمة في عليائهما.

ناصر

قسّمتُ هذه الحكاية إلى أربعة عشر فصلاً، رمزاً لعدد سنوات "الحب العذري" الذي جمع بين أبي وأمي قبل ارتباطهما "الأبدي"! وهذه الفصول متفاوتة في عدد صفحاتها وقد تكون كذلك في جاذبيتها، فما عُرِفتُ بأني صاحبة صنعة في الكتابة، إنما وضعتُ قلمي على قلبي وكتبتُ!

استخدمتُ تقنية الـ *Flash back* أو ما يسمّى بالعربية "الخطف خلفاً". ثم إني كنتُ أعود بشكل متكرّر ومباشر من الماضي إلى الحاضر، أو بالعكس، دون أي تحضير للقارئ، ظنّاً مني أن في هذا الأسلوب نوعاً من الانسيابية والتشويق، ولا أدري إلى أيّ مدى أصبتُ في ذلك!

كما أنني لم ألتزم دوماً بالتسلسل التاريخي للأحداث، فكنتُ أقفز أحياناً بين السنوات خلال الفصل الواحد تِبعاً لتسلسل الأفكار المترابطة ببعضها في الموضوع الواحد...

أما الخاتمة، فكانت حيّزي الخاص والحميم والمُتَخَيَّل والمُعاش في آنٍ معاً...

اخترتُ الصور من أرشيف عائلتي ومن أرشيفي الشخصي الذي قمتُ بتصويره في رحلاتي وتنقّلاتي.

في النهاية ، أحب التنويه بتأثّري برواية الكاتب التركي أورهان باموك، الحائز على جائزة نوبل للآداب:

"استانبول: ذاكرة مدينة"، وقد قرأتُها باللغة الإنكليزية:

Istanbul: memories of a city / Orhan PAMUK

هي رواية يحكي فيها الكاتب عن ذكرياته وحياته في كنف عائلته من خلال الحياة في مدينة استانبول، في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، كما عاشها هو، وفي بعض الأحيان، كما عاشها أجداده وأهله.

في تقسيم الفصول الذي استخدمتُه في هذه "اللقطات" الأقرب إلى المذكرات التي تؤرّخ، كما الكاميرا، مشوار الحياة هذا، جعلتُ كلّ فصل منفصلاً، له بداية خاصة به ونهاية واضحة وصور تشهد على تلك اللحظات؛ فلا يتوقَّعَنّ أحد من القرّاء إيجاد حبكة مشابهة لحبكات الروايات التقليدية... إلا أنّ الفصول، في النهاية، مترابطة عضوياً وموضوعياً.

أما في ما يخصّ مدينتي التي أعشقها، دمشق، فقد فضّلتُ تخصيص فصل لتسجيل محبتي لها وعلاقتي بها، وفي الفصل ذاته ، قمتُ بالأمر عينه في ما يتعلّق ببلدي الذي أشعر بالارتباط العضوي به، سورية.

أرجو أن أكون قد وفّقت في ما أردتُ إيصاله لكم، يا مَن سوف تمشون معي مشوار الحياة هذا، وتشاهدون هذه اللقطات التي اخترتُها وتقرؤون حكايتي الواقعية تلك!

د. ريم منصور الأطرش

قنوات - السويداء، ربيع العام ٢٠١٣

١ . ولادتي وطفولتي المبكّرة

رأيتُ النور، كما قالتْ لي أمي، في ٣٠ أيار / مايو من العام ١٩٦٠ في الساعة العاشرة صباحاً، في المشفى الطبي الجراحي، في شارع بغداد في دمشق.

روتْ لي أمي أن أخي ثائر جاء، يصطحبه أبي، لرؤيتي في المشفى، فاقترب مني وتفحّص عينيّ ولمسهما بحنان.

قالت له أمي وقتها: "أليست جميلة أختك الصغيرة هذه؟" فأجابها بالإيجاب ... فاطمأنّت إلى أنه لن يغار ككلّ الأطفال.

يكبرني أخي بثلاث سنوات، هو أيضاً من مواليد شهر أيار / مايو من العام ١٩٥٧ لكنه يسبقني بثمانية أيام، أي في ٢٢ منه، في الساعة السادسة مساء. فأمي مدرّسة في دار المعلّمات في دمشق وقد نظّمت أمورها كي تنجبنا في بداية العطلة الصيفية من أجل إضافة أشهرها إلى أشهر الأمومة، فتكون بذلك قد مكثت معنا في البيت أطول فترة ممكنة قبل معاودة عملها التدريسي.

لم يأتِها شعور الوحم في أثناء الحَمل، كما كلّ النساء، بل كرهت القهوة فقط وامتنعت عن شربها طوال الأشهر التسعة، في المرتين، وفور الولادة عادت لطلب فنجان من القهوة لتشربه... قد يكون القَدَر هنا تدخّل أيضاً ليخفّف عنها حِمل هذا الموضوع!

لم يرافقها أحد إلى المشفى في ولادتَيها... كانتْ وحيدة في هاتين التجربتين!

تقديراً من طبيبها، الدكتور محمود برمدا، لوضعها هذا، سمح لها بالبقاء في غرفة منفردة في المشفى لمدة ثلاثة عشر يوماً في الولادة الأولى ولأسبوع واحد في الثانية!

هي التي اختارت لي اسمي واقتبسته من قصة لإحدى الأديبات السوريات على ما ذكرت لي، وقد تكون قصة للأديبة كوليت الخوري؛ أما اسم أخي فقد اختاره الناس حين لقّبوا أبي بلقب أبي ثائر في أثناء نضال حزب البعث ضد الديكتاتور أديب الشيشكلي.

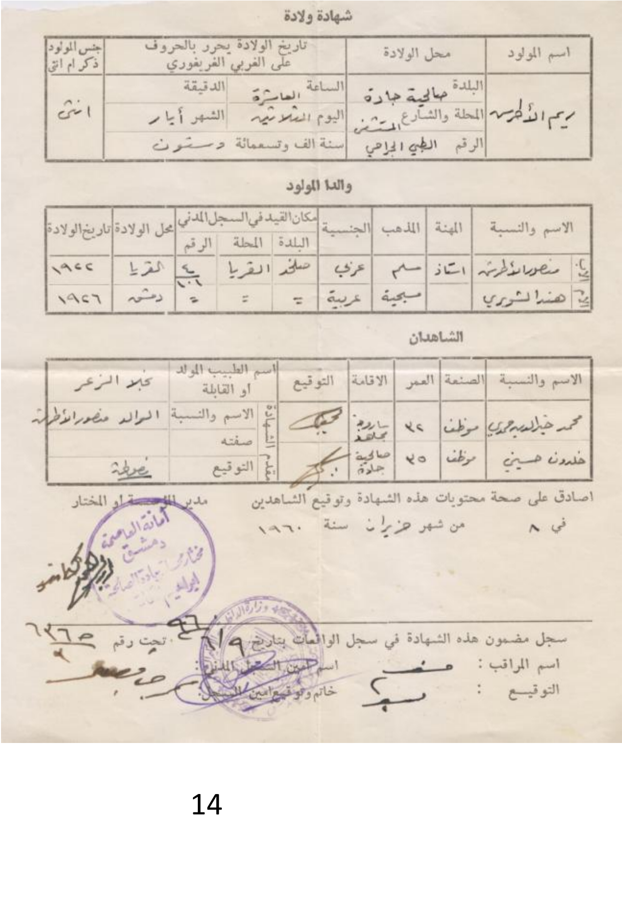

شهادة ولادة

اسم المولود	محل الولادة	تاريخ الولادة يحرر بالحروف على الغربي الغريغوري		جنس المولود ذكر ام انثى
ريم الأطرش	البلدة صالحية جادة	الساعة العاشرة	الدقيقة	انثى
	المحلة والشارع المستشفى	اليوم الثلاثاء	الشهر أيار	
	الرقم الطبي الجراحي	سنة الف وتسعمائة وستون		

والدا المولود

	الاسم والنسبة	المهنة	المذهب	الجنسية	مكان القيد في السجل المدني: البلدة	المحلة	الرقم	محل الولادة	تاريخ الولادة
الأب	منصور الأطرش	استاذ	مسلم	عربي	صلخد	القريا	٤ / ١٠٦	القريا	١٩٢٢
الأم	هند الشوري		مسيحية	عربية	=	=	=	دمشق	١٩٢٦

الشاهدان

الاسم والنسبة	الصنعة	العمر	الاقامة	التوقيع
محمد خير الدين حمدي	موظف	٢٩	ساروجة مجاهد	[illegible]
خلدون حسيني	موظف	٢٥	صالحية جادة	[illegible]

مخبر الولادة	اسم الطبيب المولد او القابلة
الاسم والنسبة	الوالد منصور الأطرش
صفته	
التوقيع	[illegible]

اصادق على صحة محتويات هذه الشهادة وتوقيع الشاهدين

في ٨ من شهر حزيران سنة ١٩٦٠

مدير الناحية او المختار

أمانة العاصمة دمشق مختار محلة جادة الصالحية

سجل مضمون هذه الشهادة في سجل الواقعات بتاريخ ١٩/٦ تحت رقم ٦٢٦٥

اسم المراقب :

التوقيع :

اسم امين السجل المدني:

خاتم وتوقيع امين السجل:

شهادة ميلادي

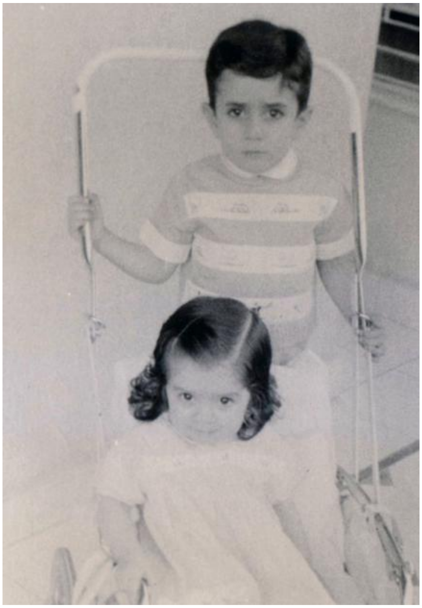

أنا وحنان ثائر عليّ

أخي ثائر في البارك

من خلال الصور التي جمع فيها أبي لحظات طفولتي، يبدو أني كنتُ طفلة سعيدة، لا ينغّص عليّ أي شيء، خاصة في سنيّ طفولتي المبكرة، أي قبل دخولي إلى المدرسة.

يبدو من هذه الصور أنني متعلّقة بأخي كثيراً، فقد كنتُ دوماً معه على الشرفة وداخل البيت.

ثائر يعزف على البيانو

كان بيتنا المستأجَر في حي المزرعة، شارع عمر المختار، صغيراً وجميلاً... رغم أننا تركناه وسلّمناه لأصحابه وأنا في سن الثانية عشرة من عمري، دون أي "فروغ" بناء على رغبة أبي وإصراره، غير أني ما زلت أراه في أحلامي الليلية على أنه هو بيتنا: يبدو أن حنيني، كما يقول الشاعر أبو تمّام (دوماً لأول منزل)!

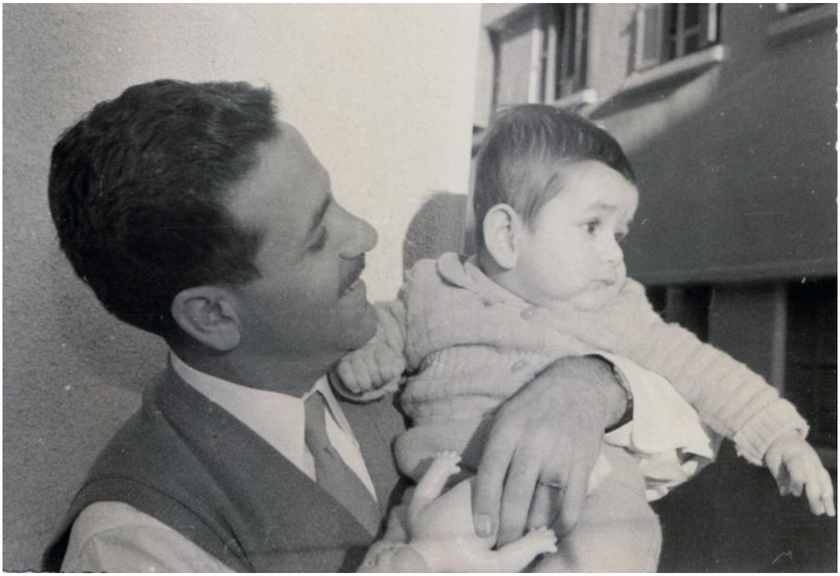

ثائر وبابا

ثائر وماما

أحب لمسة يدك على شعريَ

قبل دخولي إلى المدرسة، كانت علاقتي تقتصر على أخي وأولاد خالتي، وهما صبيّان لهما من العمر عمر أخي ذاته. كان زوج خالتي العم نقولا حوا يأخذنا دوماً في نزهات لطيفة إلى الغوطة وبلودان، وهناك كنا نلعب بالكرة؛ إذ إن ألعابنا في البيت كانت نادرة: مكعبات تحكي حكاية معروفة للأطفال، عروسة و "تروتينيت"[1] ثم الدراجة الهوائية. كل هذه الألعاب قدمناها لابن عمّنا، وهي لمّا تزلْ في رونقها، بعد أن كبرنا، مع كل مكتبتنا الطفولية: المكتبة الخضراء والمكتبة الزهرية.

أنا وثائر في الشرفة

[1] عربة بعجلتين فقط ومقبض للاستناد، يقف عليها الطفل بقدم واحدة ويدفعها باحتكاك قدمه الثانية بالأرض.

أنا وثائر وفوز في الغوطة

دخل التلفزيون إلى سورية في العام ١٩٦٠ ، إلا أن هذا الجهاز العجيب لم يحطّ في بيتنا إلا في العام ١٩٦٤، فكنا أنا وثائر نذهب إلى بيت جيراننا "آل الكحيمي" لمشاهدة أفلام كرتون ومسلسلات الفنانيّن دريد لحام ونهاد قلعي، أما ما تبقى فهو ليس للأطفال.

في زمنٍ ما، قبل دخولي إلى الصف الأول، كان أبي، وهو أحد الأعضاء المؤسسين لحزب البعث العربي، مسؤولاً في الدولة: وزيراً للعمل بين العامين ١٩٦٣ و ١٩٦٤ وعضواً في رئاسة مجلس ثورة الثامن من آذار / مارس ثم رئيساً للبرلمان السوري حتى ٢٣ شباط / فبراير من العام ١٩٦٦ .

في بعد ظهر أحد الأيام أخذنا العم أبو أكرم إلى مكتب أبي في القيادة القومية، وهو مكتب في شارع المهدي بن بركة، الاتحاد العام النسائي حالياً. بدأنا أنا وثائر نرسم ونخط خطوطاً طفولية على أوراق بيضاء في المكتب.

أذكر ذاك اليوم تماماً لكني لا أعرف لماذا ذهبنا إلى هناك؛ من المؤكد أن أمي كان لديها عمل ولم تجد أحداً يرعانا في غيابها عن البيت. وقد كانت تلك هي المرة الوحيدة التي ذهبنا فيها إلى مكتب أبي!

أبي في مكتبه في القيادة القومية

والعم أبو أكرم هو سائق مفروز من الحكومة تحت تصرّف أبي. أذكر أن سيارة الوزارة كانت سوداء اللون غير أني لا أعرف لون فرشها من الداخل، إذ إنه كان ممنوعاً علينا حتى الاقتراب منها، فكيف بركوبها؟!

كان العم أبو أكرم يعمل على سيارة أبي الخاصة بعد دوامه الرسمي وبأجر إضافي من جيب أبي الخاص، في حال احتاجت العائلة إليه. وهكذا، ذهبنا في ذلك اليوم بسيارة أبي الخاصة.

طبعاً، كان أبي يعمل ليل نهار، وأحياناً تمضي عدة أيام لا نراه فيها بسبب مشاغله الكثيرة. أذكر أن أمي كانت تسهر معنا وهي تحضّر دروسها أو تصحّح الامتحانات لطلابها. لا أذكر مطلقاً أنها خرجت من البيت مساء لتتركنا فيه وحدنا. كانت تأخذنا من حين لآخر، إلى بيت خالتي منيرفا لنلعب مع فوز، ابن خالتي، إضافة إلى أن أخته نبيلة كانت تغمرنا بلطفها وحنانها، وهي تكبرني بإحدى عشرة سنة؛ غير أني لا أدري لماذا لم نكن نزور بيت جدي لأمي في دمشق!!

في أحد الأيام، كنا في بيت خالتي منيرفا في شارع حلب. فجأة رنّ جرس الباب وكان جدي حبيب هناك. دعتْنا خالتي للاختباء في غرفة نوم أولادها وهمّت بفتح الباب: يبدو أننا كنا ممنوعين من زيارة العائلة بـ "فرمان" منه.

اختبأ الجميع وتسلّلتُ أنا، أحبو على يديّ ورجليّ لأرى مَن هو هذا الشخص الذي كان في كل عيد فصح يرسل إليّ دجاجة كبيرة من الشوكولا مملوءة بكافة أنواع الملبّس و"البوبون"، ويرسل لأخي بيضة كبيرة من الشوكولا مملوءة بالأطايب ذاتها، لكن دون أن يسمح لنا بزيارته ودون أن يشير إلى أن هذه الأطايب مخصصة لنا!

جلس هذا الشخص بقامته الفارعة وطربوشه الأحمر في غرفة الصالون، فاختبأتُ خلف الكنبة لأراه، وحين وقعت عيناه عليّ وشاهدني، خمّن مَن أكون، فانتفض وقام وخرج من البيت غاضباً!

يبدو أني قد تسبّبتُ بمشكلة كبيرة لخالتي! حزنتُ حينها وبكيتُ لأني شعرتُ بفداحة ما فعلتُه، غير أن أحداً لم يلمني على ذلك.

مشهد جبل الكرمل الذي يطل عليه بيت خالتي منيرفا في حيفا

كنتُ أعتبر خالتي منيرفا أماً ثانية لي لشدة اهتمامها بنا، أنا وثائر، وكان زوجها شديد التعلّق بنا ويعاملنا كأولاده تماماً ويحبنا حباً كبيراً ويأخذنا في نزهات جميلة مع عائلته حين كان أبي بعيداً عنا لأسباب سياسية.

العم نقولا فلسطيني من حيفا، وقد اختار خالتي زوجة له وكان عرسهما في دمشق، في الكاتدرائية المريمية الأرثوذوكسية، في ٤ أيار / مايو من العام ١٩٤٧ .

ذهبتِ معه خالتي لتعيش في حيفا، حيث كان بيتهما يطلّ على جبل الكرمل.

بعد أن حلّت النكبة، اضطرّا لترك بيتهما وكل أغراضهما والمجيء "مؤقتاً"، كما كانا يظنّان، إلى دمشق.

لقد استطاع الصهاينة تهجير معظم أهالي مدينة حيفا، وخاصة المسيحيين منهم، بالترهيب والقتل.

المريمية الأورثوذكسية ٤/ ٥/ ١٩٤٧

خالتي منيرفا عروس وأمي إشبينتها

في أواخر التسعينيات من القرن العشرين، حضرتُ فيلماً سورياً من إخراجٍ إيراني ضمن فعاليات مهرجان دمشق السينمائي بعنوان "المتبقّي"، وهو مقتَبَس عن رواية لغسان كنفاني بعنوان "عائد إلى حيفا". تجري أحداث الفيلم في مدينة حيفا في أثناء النكبة، وتمّ تجسيدها في مدينة اللاذقية.

تخيّلتُ كيف تعرّضت خالتي وزوجها لمثل ما تعرّضت له العائلة، بطلة الفيلم، من تهجير. وقد سألتُها بعد ذلك عن حيفا وحياتها هناك، فروت لي تفاصيلها خلال عام كامل تقريباً، ووصفتِ حيفا، المدينة الساحلية المتطوّرة من كل النواحي الاقتصادية والاجتماعية. تخيّلتُ أن ثمة عائلة صهيونية احتلّتِ بيت خالتي، وهذا بالضبط ما جرى فعلاً، واستولتِ على أغراضها وأغراض زوجها، حتى الخاصة منها!

هند، منصور، مينرفا، نقولا

خالتي وزوجها وأصدقاؤهم فرانسوا وجاكلين بوبولاني

في أثناء تدريسي للغة العربية والترجمة والأدب العربي الحديث والصحافة والفكر السياسي للطلاب الأجانب في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى وفي المركز الثقافي الفرنسي خلال أكثر من عشرين سنة، كنتُ أطلب من هؤلاء الطلاب، الآتين من كل أصقاع العالم وخاصة من أوروبا الغربية، أن يتخيّلوا أنفسهم مكان خالتي وزوجها، بل مكان مئات الآلاف من الفلسطينيين الذين فقدوا كل شيء ولم يستطيعوا حتى أخذ ملابسهم وحاجياتهم الخاصة، لتأتي عائلات أخرى من أوروبا وتستوطن مكانهم وتستولي على ممتلكاتهم وتحتل بيوتهم. ثم أطلب منهم أن يعبّروا عن شعورهم هذا! للأسف، نادرون هم مَن يستوعبون تلك المأساة؛ فالغرب يدّعي الإنسانية والتعاطف إلا أنه، نتيجة لأنانيّته وفرديّته المتورّمة، لا يضع نفسه مطلقاً مكان الآخرين، المستضعَفين في الأرض!!!

روتْ لي أمي أن خالتي وزوجها لجآ إلى دار أبيها ومكثا حوالى تسعة أشهر كاملة.

أخذ العم نقولا يتاجر بأشياء بسيطة في حقيبة صغيرة. ثم بعد فترة استطاع استئجار غرفة عند عائلة وبدأت حياتهما بالاستقرار شيئاً فشيئاً.

بدأ التحسن المادي يظهر ببطء أيضاً إلى أن استطاع شراء بيت صغير في شارع حلب ثم في شرقي التجارة بفضل كدّه ومساعدة خالتي له ببيع كامل مصاغها من أجل هذا الهدف. وأصبح العم نقولا يمتلك محلاً تجارياً في الحريقة في دمشق لبيع لعب الأطفال. لذلك كان لدى فوز ابن خالتي أجمل الألعاب وأحلاها، كنا نستمتع بها سوياً حين نذهب لزيارتهم في البيت. أما أنا وثائر، فكما قلتُ سابقاً كانت ألعابنا بسيطة ونادرة ولكنها كانت تجلب لنا السعادة كلها لأننا كنا نتقاسم معاً اللعب بها بفرح ورضا واكتفاء.

حين كبرنا كلنا، هاجرت نبيلة، بنت خالتي مع عائلتها إلى الولايات المتحدة الأميركية في العام ١٩٨٠. ثم في أول زيارة لها إلى سورية بعد ثلاثة عشر عاماً وبعد أن أصبحت مواطنة أميركية، "سيتيزن"، وهذا حلم معظم الناس في بلادي، إلا أنني لا أشاطرهم إياه مطلقاً، تساءلتْ أمام أمي عن سبب عدم لجوء والدها إلى أميركا مباشرة بعد النكبة بدلاً من اللجوء إلى سورية؟! فأجابتها أمي أن معظم الفلسطينيين كانوا يتأملون بعودة قريبة إلى فلسطين، لذلك اختاروا سورية أو لبنان أو الأردن كي يعودوا في أقرب فرصة سانحة!

وأنا هنا أقول: صحيح أن قضية فلسطين هي قضية عادلة ولم يمرّ في التاريخ قضية أعدل منها، على الأرجح، إلا أنها لم تنلْ حقها حتى اليوم في الدفاع عنها؛ فهي أعدل قضية سُلِّمَت لأكثر "المحامين" فشلاً!

أما أنا فقد تربيتُ في بيتنا أنها بوصلتي الدائمة التي يجب أن توجّه تفكيري ومواقفي: فمَنْ هو مع قضية فلسطين صديق، ومَنْ هو ضدها، فهذا هو العدو!

قلتُ إن خالتي وزوجها كانا يرعياننا أنا وثائر، خاصة أيام سجن أبي السياسي وأيام المنفى القسري في بيروت بين العامين ١٩٦٦ و ١٩٦٩. في إحدى المرات، ذهبت أمي لزيارته في بيروت، فأخذتنا خالتي إلى بيتها، ثائر نام في غرفة فوز وأنا نمتُ بين العم نقولا والخالة منيرفا. كنت في السابعة من العمر وضعيفة جداً من حيث الحجم. في الصباح استيقظا ولم يجداني بينهما، فذُهلا وأخذا يبحثان عني بخوف وقلق شديدين وأيقظا كل سكان البيت من أجل مساعدتهما في البحث... مع أنني كنتُ بقربهما لكنهما لم يرياني: كنتُ نائمة على مخدتهما فوق رأسيهما، إذ إنني كنتُ شديدة النحافة وكان نومي قلقاً فأتقلّب كثيراً، إلى أن وصلتُ إلى أعلى السرير.

حين دخلا الغرفة من جديد وجداني نائمة فأخبرا الجميع في البيت بالكفّ عن البحث عني! استمرّ العم نقولا بالتندّر بهذه الحادثة لفترة طويلة.

حين كان يأتي مساء إلينا بسيارته الفورد القديمة الخمرية اللون ليصطحب خالتي معه إلى بيتهما من زيارتها لنا، كان يطلق نغمات محددة ومتواترة وسريعة من زمّور سيارته كي تلتحق به. كنتُ وقتها أردّد تلك النغمات ذاتها وأعترض قائلة: "توتوت... توتوت... توتوت! مثل المجانين!" كان هو، رحمه الله، يضحك من هذا التعليق! سقى الله ذلك الزمن الجميل!

أهم ما كنتُ أشعر به في منزلنا الصغير الدافئ هو الحب الذي جمع بين أبي وأمي. كنا أنا وثائر نشعر بذلك الحب حقيقياً وعميقاً، لدرجة أننا كنا نردد معاً جملة "غرام في استانبول" حين نراهما سوياً، وهذا كان عنوان فيلم للفنانين دريد ونهاد في الستينيات من القرن العشرين.

أحلى اللحظات المسترقة والنادرة، بسبب مشاغل أبي الكثيرة، هي تلك التي كنا نجلس فيها على الشرفة معهما.

كانت أمي أحياناً تشتري لنا "أكواز" الذرة المسلوقة بإنزال السلّة المربوطة بحبل طويل إلى البائع الجوّال الذي يضع لنا الذرة فيها، فتسحب أمي السلّة بواسطة الحَبْل وتأخذها منها لتضع مكانها المال المطلوب وتُنزلها من جديد، فيأخذ البائع حقه مع الشكر، مردداً "الله يعوّض عليكم".

كانت العلاقات بين الناس بهذه البساطة وبهذه الثقة المتبادلة! يا لها من أيام جميلة عشناها!

٢ - في المدرسة

دخلتُ المدرسة قبل أن أُتمّ الخامسة من عمري. كان اليوم الأول من أصعب الأيام التي مرّت عليّ في طفولتي... يقال إن الولادة هي الصدمة الأولى للطفل، أما صدمته الثانية في الحياة فهي دخوله المدرسة!

لم أُرِد الاستيقاظ باكراً... وأنا إلى اليوم أحب العمل والقراءة والسهر في الليل...

لم أُرِد ترك البيت... وأنا إلى اليوم يشكّل البيت بالنسبة لي عالماً ممتعاً رغم عملي المتواصل منذ ثلاثين عاماً...

جلستُ على الكرسي أتمايل كما كنتُ أفعل دوماً حين أستمع إلى الموسيقى...

أذكر أن أمي هي التي أوصلتني، للمرّة الأولى، إلى مدرسة اللاييك، الكائنة في شارع بغداد، في بدء العام الدراسي ١٩٦٤ - ١٩٦٥ . بكيتُ بحرقة، ودخلتُ رغماً عني... فاستقبلتني الآنسة هدى، معلّمة الحضانة، بلطف وحنان بالغَيْن وأجلستْني إلى جانب طفل، لم أعد أذكر اسمه الأول، لكنه من آل الحمّامي... وأنا ما زلتُ أتذكّره وما زلتُ أراه إلى اليوم في الطريق من حين لآخر...

أحلى الأوقات كانت بالنسبة لي في صف الحضانة هي وقت النوم! نعم، كانت المعلّمة تطلب أن يضع كلّ واحد منّا رأسه على المنضدة ويغمض

عينيه. كنّا نفعل ذلك أنا وصديقي "الحمّامي"، لكننا نبدأ بكلام ممتع ينتهي بانتهاء حصة النوم تلك. كما أني كنتُ أحب الفرصة التي تأخذنا فيها المعلّمة إلى الحديقة المخصَّصة لصفَّيّ الحضانة والتحضيري، إذ إنها كانت تحوي على أرجوحة حلوة وعدة ألعاب أخرى للأطفال.

حين أنزل إلى الباحة فأرى أخي فيها، كنتُ أتعلّق بمريلته الزرقاء والبيضاء، فأذهب إلى حيث يذهب ولا أتركه لحظة واحدة يلعب على هواه مع رفاقه! كان حينها في الصف الثاني الابتدائي، وأنا في الحضانة... وهو بكل صدر رحب احتملني ولم يتأفّف مني يوماً، بل يداريني بحنان! أتخيّل اليوم هذا المنظر الكوميدي وأضحك! غير أنه كان يشتكي لأمي من هذا الوضع، لأنه لم يكن يستطيع اللعب كما يشاء في الباحة... ورغم ذلك، لم يتخلَّ عن مسؤوليته تجاهي... لقد صبر عليّ طوال عام دراسي كامل وأنا ممسكة بمريلته كلّ الوقت في الباحة! وهكذا، انقضت سنة الحضانة...

في العام الدراسي ١٩٦٥ - ١٩٦٦، دخلتُ إلى الصف التحضيري، وكانت معلّمتنا هي مدام عمر.

تكرّرت معي الحال ذاتها، فأنا على ما يبدو لا أحب المدرسة... حين وصلتُ إلى بوابتها، بكيتُ... وبكيتُ... وبكيتُ... عندما دخلتُ إلى صفي، كنتُ مذعورة... فاستقبلتني فتاة في مثل سنّي وهدّأت من روعي وأجلستْني إلى جانبها... كان يبدو عليها أنها متمرّسة في هذا المكان الذي اسمه المدرسة... تعرّفتُ إليها... اسمها رامة... وهي ما زالتْ صديقتي إلى اليوم...

في هذا الصف بالذات، اجتمع كل الذين أصبحوا أصدقائي وصديقاتي... وما زالوا كذلك إلى اليوم!

هي رحلة عمر ما زالتْ مستمرة في ما بيننا...

مدرسة اللاييك

أخيراً، أعتقتُ أخي ثائر في الباحة لأني وجدتُ صديقة لطيفة سوف تبقى معي وتحنو عليّ.

أول مرّة حاولتُ شرب الماء فيها من صنبور المدرسة، لم أستطع التطاول للوصول إليه وفشلتِ محاولتي. فماذا فعلتِ رامة؟ ملأتِ يديها بالماء وسقتني حتى ارتويتُ. أما هي، فلم تكن تستطيع ربط حذائها بعقدتين، وأنا كنتُ بارعة في ذلك، فساعدتُها فيه... وهكذا كنّا نتكامل في مساعدة الواحدة منّا للأخرى، فوجدنا معاً طريقنا إلى صداقة حقيقية بدأت في سن السادسة وما زالت راسخة إلى اليوم، ونمتِ باضطراد إلى أن أضحت عراها لا تنفصم.

مرّةً، وأنا في الصف التحضيري، أخذتنا المعلّمة إلى حديقة المدرسة وركبنا الأرجوحة... ولم أعِ إلا وقد أصبحتُ تحتها ورأسي مدمّى. اهتمّت المعلّمة ورامة بي فأخذتاني إلى الطبيب الذي ضمّد جرحي بعدّة قطب، ثم

تمّ إرسالي إلى البيت مع ورقة من المدير والطبيب تشرح ما جرى لي وكيفية العناية بي في البيت.

كانت المدرسة آنذاك تهتم بشكل كبير بوضع الأطفال وأحوالهم، إذ إنها لم تكن مدرسة للتعليم فقط وإنما كانت التربية هي الأساس فيها . أذكر أن مريلتي الحمراء والبيضاء قد امتلأت بالدم، ولستُ أدري حتى هذه اللحظة كيف سقطتُ تحت الأرجوحة ولا كيف وقعت الحادثة!

ما أذكره بحنوّ بالغ كيفية تعامُل السيدة روزا معنا حين كنّا أطفالاً، إذ إنها كانت تساعدنا في قضاء حاجاتنا في المدرسة كما أننا كنا نشتري منها الكعك بالسمسم المدوَّر واللذيذ ... كنا نشعر باهتمامها الكبير بالأطفال دون تذمّر ولا كلل... رحمها الله... عملتِ بصمت ورحلتِ بصمت!

بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على تخرّج دفعتنا من اللاييك، اجتمعنا في مكان عام مع أساتذتنا ... تحدثتُ أنا عن معاني هذا اللقاء وعن الصداقة التي بنينا أواصرها منذ أيام المدرسة وحتى تلك اللحظات... وذكرتُ روزا بالخير وترحّمتُ عليها، ففوجئ الجميع بذلك وأثنى على هذه الذكرى... هكذا الإنسان ينسى مَنْ يعمل بتؤدة وصمت بالغ!

ثمة أصدقاء كثر كانوا معي في الصف التحضيري وما زالوا إلى الآن من أعزّ الأصدقاء؛ صحيح أن الأيام قد باعَدَتْ في ما بيننا، إلا أننا ما زلنا نلتقي حسب الظروف المتاحة، لكننا بلا أدنى شك، نحاول قدر استطاعتنا الوقوف في الملمّات، واحدنا إلى جانب الآخر...

من صديقاتي أيضاً ريما التي كانت تسكن في جادة العاني، بالقرب من بيتنا في حي المزرعة. كنا نعود سيراً على الأقدام إلى البيت ونلعب مع صديقة ثالثة، بشرى، بالكرة أمام منزلها في شارع الباكستان. هكذا كانت حياتنا سهلة ولطيفة، لا همّ فيها ولا أحزان.

كانت ريما قد فقدتْ أمها وهي صغيرة، دون أن تعرف تماماً الظروف التي أحاطت بهذا الفقد، إذ كان ممنوعاً الحديث بهذا الموضوع في بيتها، والأرجح أن حب أبيها الكبير لأمها منعه من الحديث عن رحيلها أمام أولاده...

كانت ريما تحب أن تزورني في البيت لتجلس مع أمي وتشعر بحنانها؛ فأمي كانت تعامل صديقاتي كما تعاملني...

مرّة، جاءت ريما إلى بيتنا وقضينا معاً ساعات طويلة في اللعب والدراسة والأكل؛ لكن أمي لم تنسَ أن تنبهها إلى أن أباها يجب أن يعلم بمكانها... فكان ردّ ريما الدائم أنه يعرف حق المعرفة بمكانها... أرادت أن تقضي معنا أطول فترة ممكنة ضمن جو عائلي تشعر فيه بحنان الأم...

ويبدو أنها لم تخبر أباها عن مكانها؛ حين عادت إلى البيت أخذت نصيبها من العقاب القاسي، غير أنها لم تكترث كثيراً لهذا الأمر، فحنان أمي في ذلك الوقت قد كفاها، لا بل عوّضها عن ذلك العقاب الذي تلقّتْه! هذا ما أسرّتْ به إليّ حينها... وما زالت تذكر تلك الحادثة إلى اليوم!

في الصف الثالث الابتدائي، كنا نجلس أنا ورامة على مقعد درسيّ واحد؛ فجأة، أدخل الموجّه طالبة جديدة إلى صفّنا اسمها غادة. غادة فتاة جميلة المُحَيّا لطيفة، عيناها جذّابتان. كان دخولها إلى الصف خجولاً. دون تفكير وبعفوية طفولية صادقة، ركضنا أنا ورامة وأمسكنا بيديّ غادة وساعدناها في المشي للوصول إلى مقعدنا، فأحطناها برعايتنا وأجلسناها بيننا، وبقينا على هذه الحال إلى أن أصبح لديها صديقات وأصدقاء آخرون وأصبحنا جميعاً نتناوب على الاهتمام بها في الصف كما في الباحة.

كانت غادة تشاركنا كل شيء في حياتنا المدرسية، حتى إننا حين نلعب كرة القدم أو كرة السلّة في حصة الرياضة كانت تشجعنا على اللعب

وتحتفظ لنا بأغراضنا معها "في الحفظ والصون"، دون أن تشاركنا اللعب طبعاً.

حين حضّرنا حفلة عيد الأم في الصف السادس الابتدائي، قمنا بإشراف معلّمتنا بخياطة أثواب زرقاء وبيضاء جميلة لنرقص على أنغام أغنية (أمّاه أهلاً بعيدك، يا حياتي يا ماما...)؛ فشاركتّنا غادة بخياطة فستان لها مشابه لفساتيننا، وحضرتِ الحفل في مسرح المدرسة وهي ترتدي هذا الفستان الأزرق الجميل، تفاعلاً منها معنا في هذا الحفل.

غادة سبّاحة ماهرة جداً وهي أسرع منا جميعاً وأكثر مهارة، ففي ذراعيها قوة عظيمة!

تابعنا سوياً الدراسة الجامعية في قسم اللغة الفرنسية في كليّة الآداب في دمشق وفي دبلوم الترجمة ثم تابعنا دراساتنا العليا في أوقات مختلفة... وقد نالتِ مؤخراً درجة الماجستير في الترجمة من جامعة دمشق.

التقينا في العمل معاً في مكتبة الأسد الوطنية لعدة سنوات... وما زالت صداقتنا قائمة إلى اليوم...

أنا أحبها من أعماق قلبي وهي كذلك... هي تهتم برأيي وتثق بسداده وتستشيرني في الملمّات وفي أمورها الخاصة، وأنا أحاول جهدي صادقة أن أعطيها رأياً صائباً ومفيداً قدر الإمكان.

أحياناً، وفي بعض لحظات الإحباط التي تنتابني، أشعر بتفهّم غادة لي وبحبها واحترامها الشديد تجاهي. مؤخراً، بعد رحيل أمي، وكنتُ أعاني من مثل تلك اللحظات، قالتِ لي بثقة كبيرة: "ريم، لا يمكن أن تكوني ضائعة، فأنت النقطة العلّام التي نهتدي جميعاً بها"! هذا الكلام أدهشني وفي الوقت ذاته أَعطاني في حياتي دفعاً لطيفاً إلى الأمام.

غادة مثال رائع للإنسان الذي يقهر المستحيل ويعتمد على ذاته رغم كل الصعاب... هي تقود سيارتها بنفسها وتعمل كأفضل شخص منتج ومفيد في المجتمع. فهنيئاً لها.

مدرستي التي عشقتُها، اللاييك، ضمّتْ أساتذة نادرين في كل شيء: في الأخلاق والإخلاص والتعليم الصادق والمتفاني، أذكر منهم مدام عمر ومدام مباردي في المرحلة الابتدائية إضافة إلى مسيو بيير دانييل، الفرنسي وأستاذ اللغة الفرنسية في الصف السادس الابتدائي. لقد أثّروا فيَّ بشكل كبير وخاصة مدام مباردي، إذ كنتُ متفوّقة في الصفين الثالث والرابع اللذين كانت مسؤولة عنهما... ما زالت إلى اليوم تعتبرني طالبة مثالية.

في إحدى المرّات، اجتمعت بأمي مصادفة، فمدحت لها أخلاقي وتربيتي، وكنتُ لا أزال حينها في الصف الرابع الابتدائي.

في الصف السادس الابتدائي، وكان لي من العمر اثنتا عشرة سنة، شاركتُ في حفلة عيد الأم برقصة ارتديت فيها ككلّ البنات ذاك الثوب الأزرق الجميل؛ كما مثّلتُ قصيدة باللغة الفرنسية للشاعر الفرنسي لافونتين، الذي تأثّر ولا شك بقراءته لكتاب كليلة ودمنة... القصيدة هي من كتابه Les Fables وعنوانها Le loup et l'agneau (الذئب والحَمَل). أشرف علينا في تجسيدها أستاذنا الفرنسي بيير دانييل.

كنتُ متفوّقة في اللغة الفرنسية، وقد أهداني في نهاية العام كتاباً فرنسياً بعنوان: Aladin et la lampe merveilleuse (علاء الدين والمصباح السحري)، وكتب لي إهداء بالفرنسية يقول فيه: "***مع أفضل ذكرياتي***".

كان الأمر يتطلّب مني، أنا الحَمَل، ومن صديقي يوسف، الذئب، إضافة إلى التمثيل، حفظ القصيدة باللغة الفرنسية حفظاً جيداً. نجحنا نجاحاً منقطع النظير في تمثيل هذه الحكاية على لسان الحيوان، وكان الماكياج ناجحاً جداً.

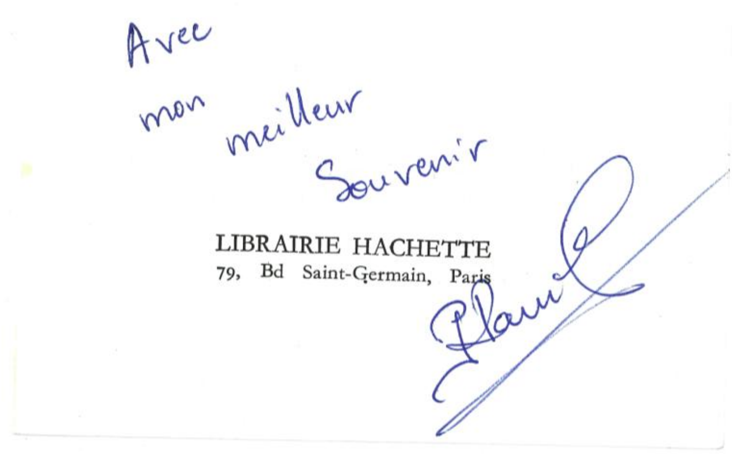

إهداء الأستاذ بيير دانييل

تتلخّص حكاية الذئب والحَمَل برغبة الذئب، القوي، في افتراس الحَمَل، الضعيف، فيتّهمه بأنه عكّر صفو الساقية حين شرب الحَمَل منها. إلا أن الحَمَل الصغير الضعيف دافع عن نفسه منطقياً، فقال للذئب:

"كيف لي أن أعكّر ماء الساقية في الأعالي وأنا أشرب من الأسفل؟!" فأجابه الذئب بجملة شهيرة، ذهبتْ مَثَلاً باللغة الفرنسية: "Si ce n'est toi, c'est donc ton frère" – "إنْ لم تكنْ أنتَ مَنْ فعل ذلك، فلا بد أنه أخوك"... إلا أن الحَمَل لم يكن لديه أخوة... وهكذا، انقضّ الذئب على الحَمَل والتهمه.

هذه الحكاية التي مثّلتُها أنا ويوسف في الصف السادس الابتدائي على مسرح اللاييك، فهمتُ مغزاها حين كبرتُ وعرفتُ أن الحياة تعطي الحق للأقوى... فمن خلال كذبة أسلحة الدمار الشامل استطاعتْ الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها الغربيون والعرب وغيرهم تدمير بلاد الرافدين وقتل الملايين من أبناء العراق وتشريدهم دون أن يرفّ جفن للمجتمع

الدولي الذي يدّعي التحضّر والمدنيّة والإنسانية... وها هو اليوم، هذا المجتمع يسعى، بالطريقة ذاتها وبحجج نشر الديمقراطية والحرية، إلى تدمير بلاد الشام، سوريا الطبيعية...

لم نعِ، حين مثّلنا هذه الحكاية في العام ١٩٧٢ ، أننا سوف نعيشها في العام ٢٠٠٣ وفي الأعوام ٢٠١٠ و٢٠١١ و٢٠١٢ و٢٠١٣ ... والله يستر ... قد يكون الحبل على الجرّار!

في عيد الأم ذاته، في العام ١٩٧٢ ، مثّلنا أيضاً مسرحية باللغة العربية الفصحى، عنوانها على ما أذكر،"تضحية أم" ...

جسّدتِ دور الأم زميلتي في المدرسة غادة، وأنا جسّدتُ دور البنت، ودور الأخ الأكبر، الفدائي كان لصديقي نبراس، ودور الأخ الأصغر لصديقي إياد؛ أما دور الجنرال الصهيوني فكان من نصيب صديقي يوسف، جوجو، إضافة إلى عاصم وميشيل لتجسيد دور العسكر الإسرائيلي.

في هذه المسرحية، نرى تضحية الأم الفلسطينية بأولادها في سبيل تحرير أرض فلسطين الحبيبة.

لقد أُخذتُ بموضوعها، فبكيتُ على المسرح وأبكيتُ الحضور الذي تفاعل معنا بِشكل لافت وصفّق كثيراً...

في كل هذه النشاطات، كان أخي هو الذي يحضر نيابة عن العائلة بسبب مشاغل أبي الدائمة، وقد فوجئ ببكائي على المسرح واندماجي بتمثيل دوري إلى الحد الأقصى!

بعد انتهاء هذا النشاط، دُعينا أنا ونبراس للمشاركة في برنامج الأطفال في التلفزيون العربي السوري من أجل إلقاء قصيدة الشاعر الدمشقي نزار قباني، التي شدتِ بها كوكب الشرق أم كلثوم لفلسطين:

أصبح عندي الآن بندقية، إلى فلسطين خذوني معكم. كان نشاطاً ناجحاً في تلك الفترة، وقد أُعجِبَ مخرج البرنامج والعاملون فيه بإلقائنا لهذه القصيدة، وجاءتهم إطراءات كثيرة من المشاهدين، كباراً وصغاراً، في ما يخص إنشادنا للقصيدة وطريقة تجسيدها بارتدائنا كوفية المقاومة الفلسطينية وكلّ واحد منّا يحمل بندقية "خشبية" طبعاً... وبعد ذلك، تمّت إذاعة القصيدة مغنّاة بصوت العظيمة السيدة أم كلثوم!

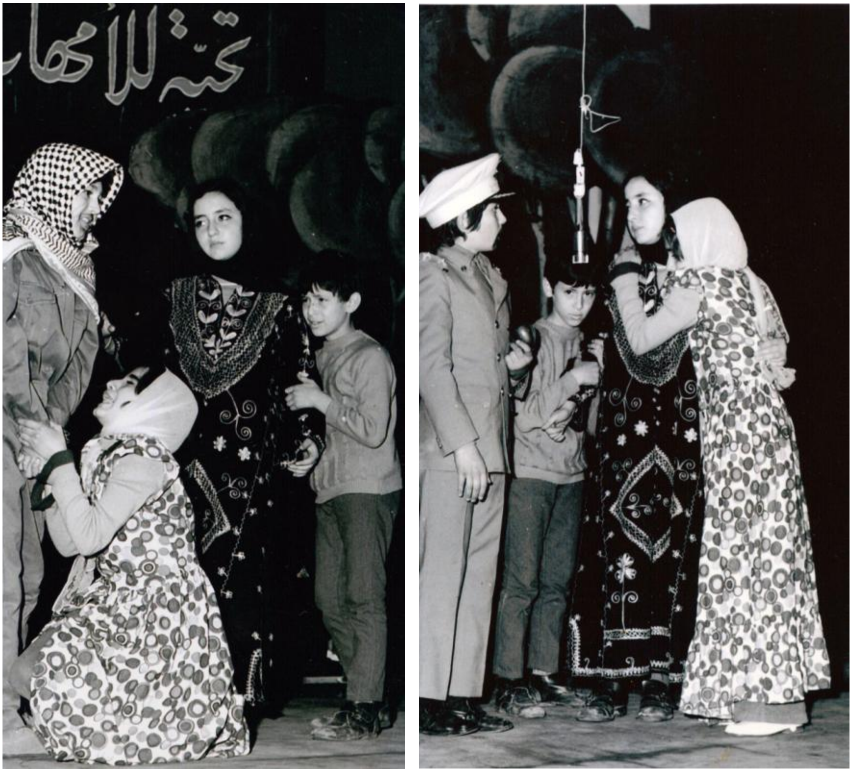

صورتان من المسرحية. أبدو راكعة.

كانت فلسطين ولم تزلّ بوصلتي التي أتوجّه من خلالها في حياتي الخاصة والعامة... فأنا مؤمنة أنها جزء غالٍ من سورية، وأنه لا سلام في

المنطقة إنْ لم تكنْ القدس عربية... يبدو أن هذا الصراع سوف يطول إلى أجيال قادمة، وهو لا شك "صراع وجود وليس صراع حدود" كما قال الشهيد أنطون سعادة.

في الصف الثاني الابتدائي، وكنتُ في الثامنة من عمري، زارنا في المدرسة، مندوباً عن مجلّة أسامة للأطفال، الكاتب السوري المعروف عادل أبو شنب، فقابل التلاميذ المتفوّقين وكنتُ من بينهم؛ طرح السؤال التالي على الجميع: "ماذا تريدون أن تصبحوا حين تكبرون؟"... حين جاء دوري، أجبتُه: "أريد أن أصبح فدائية لأساهم في تحرير فلسطين"!

أما رئيس تحرير مجلة أسامة في ذاك الوقت، فقد كان الأستاذ سعد الله ونّوس، المسرحي السوري المعروف... ومن بين الأدباء الذين كانوا يكتبون للأطفال إضافة إلى الأستاذ عادل أبو شنب، الأديب زكريّا تامر وغيره كثر من الأدباء السوريين، مثل محمد الماغوط وكوليت الخوري وناديا خوست... لقد كانت وزارة الثقافة السورية تهتمّ كثيراً بتنشئة جيل مثقّف يقرأ لأدباء سوريين عديدين ومهمّين.

في المرحلة الابتدائية، كانتْ ثمة نشاطات ترفيهية وثقافية كالرحلات إلى الغوطة التي كنتُ خلالها أغرق في اللعب وأنسى الأكل تماماً، إذ كان "آخر همّي" وأنا صغيرة! حتى إن جوجو قال لي مرّة بعد أن كبرنا وأصبحنا في صف البكالوريا، إنه كان يخاف عليّ من أن يمسّني أحد كي لا أسقط أرضاً، إذ كنتً شديدة النحف!

أما لماذا كنتُ في مثل هذا النحف، فالسبب هو امتناعي منذ الصغر عن تناول المأكولات الحيوانية وخاصة اللحوم، فالذبح من أجل الأكل، كان وما زال يشكّل لي مشكلة روحية ونفسية... بقيتُ على هذه الحال إلى أن وصلتُ إلى سنّ الحادية عشرة من عمري، فعانيتُ من فقر الدم الحاد،

فاضطررتُ، رغماً عني، للبدء بأكل اللحم للحفاظ على مستوى جيد للخضاب.

أذكر، في العام ١٩٦٨ أني ذهبتُ بصحبة أهلي إلى قرية حَلوة في لبنان، حيث تسكن عمتي وعائلتها. حاول ابن عمتي ناصر أن يكسر عندي هذه الرهبة، فأراني كيفية ذبح جدي في مسلخ قريب منهم، وأنا لم أعرف مسبقاً إلى أين يأخذني وما الذي يريدني أن أراه!

غير أن هذا المنظر ظلّ كابوساً في مخيّلتي وزادني إصراراً على الامتناع عن أكل اللحوم... إلى أن أُجبرتُ صحياً على ذلك!

في العام ١٩٩٢ ، كنتُ أحضّر بحثاً عن (الحرير في سورية) لصالح منظمة اليونسكو، ما اضطرّني إلى السفر في أنحاء سورية كلها إضافة إلى أنطاكيا واسكندرونة... حاولتُ من جديد أن أصبح نباتية خالصة لمدة عام كامل، غير أنني أُصبتُ بفقر دم حاد، فنصحني الطبيب بعدم تكرار المحاولة لأن جسمي لن يتحمّلها.

اليوم، وحتى هذه اللحظة، لا آكل اللحوم إلا مضطرّةً لأحافظ على مستوى خضابي آمناً، وما زلتُ أؤمن أن الإنسان يستطيع العيش دون ذبح الحيوان لأكله!

كان أغلب النشاطات الثقافية في المدرسة يتمثّل بحضور مسرح العرائس في اللاييك ذاتها. ولا أزال إلى اليوم أذكر مسرحية (الطابة النطّاطة) التي كانت ترقص وتغني قائلة: (أنا الطابة النطّاطة، أمشي وأرقص ببساطة). وكنا نحن جمهور الأطفال في المسرح نتجاوب معها ونغنّي مثلها.

تأثّرتُ كثيراً بهذا النوع من المسرح حتى إني قرّرتُ الاختصاص في مسرح الأطفال في فرنسا بعد أن حصلتُ على إجازة في الأدب الفرنسي في

العام ١٩٨٢ . حضّرتُ مشروعاً هاماً من أجل هذا الاختصاص، تدخل فيه الدمى ومسرح خيال الظل... غير أني بعد ذلك توجّهتُ إلى الاختصاص في الترجمة. لكني، وعن طيب خاطر، أعطيتُ هذا المشروع عن مسرح الأطفال إلى أحد الطلاب الخرّيجين من المعهد العالي للفنون المسرحية، الذي أراد، في أوائل الألفية الثالثة، الاختصاص في هذا الموضوع، للاستفادة من مشروعي ومن الأفكار الموجودة فيه.

أنا ونبراس نجلس القرفصاء، وغادة، رغدة، وأبيّ، وعاصم، وبشار وقوفاً

في الفصل الثاني من الصف الثامن أو الثاني الإعدادي، أي في ربيع العام ١٩٧٤ ، وكان لي من العمر أربعة عشر عاماً، اضطررتُ للاستعانة بالنظارات الطبية حتى أرى بشكل أوضح ما يكتبه الأساتذة على السبورة: لقد أُصِبْتُ بقصر النظر أو "الميوبي"! دخلتُ إلى الصف وأنا أشعر بالخجل من هذهِ "الإضافة" التي زيّنتْ وجهي! في الحصة الأولى، جاء مدرّس

الرياضيات... التفتَ إليّ وسألني: "هل أصبحتِ بحاجة إلى نظارات؟"... وقبل أن أجيبه، وقف صديقي نبراس وقال: "أحلَى، أستاذ... إنها ملائمة جداً لوجه ريم"! هذه الجملة نزلتْ برداً وسلاماً على قلبي... ومنذ ذلك اليوم أصبحتُ أحب نظاراتي التي ما زالت ترافقني إلى اليوم وأصبحتْ جزءاً مني ومن حياتي!

عَوْدٌ على بَدء...

أذكر أساتذة المدرسة الذين أثّروا في حياتي... منهم الأستاذة رويدة الترك التي جعلتني أحب اللغة الفرنسية في المرحلة الثانوية، وأقرّر الاختصاص فيها منذ ذلك الحين.

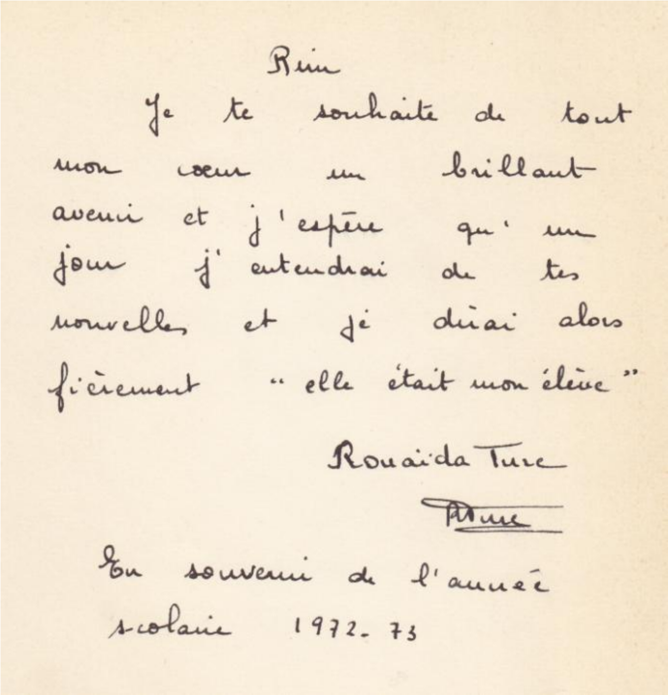
Rim
Je te souhaite de tout mon coeur un brillant avenir et j'espère qu'un jour j'entendrai de tes nouvelles et je dirai alors fièrement "elle était mon élève"
Rouaida Turc
En souvenir de l'année scolaire 1972-73

رسالة الأستاذة رويدة الترك بالفرنسية ١٩٧٣

والأستاذ يشوع، أستاذ الرياضيات، الذي علّمني الاهتمام الثقافي والأدبي... فرغم أن اختصاصه هو مادة الرياضيات، إلا أنه كان أول مَنْ لفتَ انتباهي إلى الأديب السوداني الطيب صالح، فنصحني بقراءة روايته (موسم الهجرة إلى الشّمال)، وكنتُ حينها في الصف الحادي عشر. منذ ذلك الحين وأنا أتابع القراءة في الأدب العربي الحديث بكلّ أشكاله. وقد أفدتُ من تلك القراءات في تدريسي للترجمة وللأدب العربي الحديث في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى.

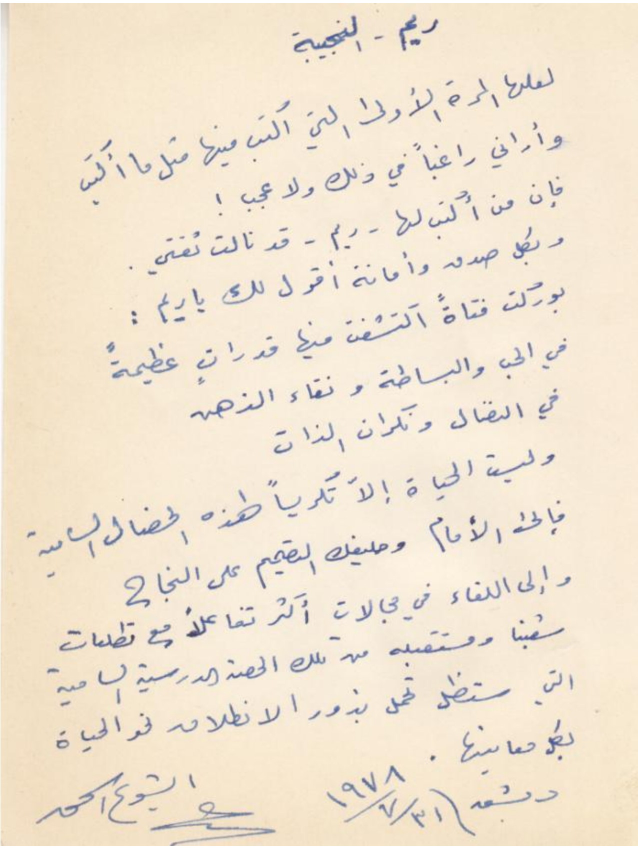

ريم - النجيبة

لعلها المرة الأولى التي أكتب فيها مثل ما أكتب
وأراني راغباً في ذلك ولا عجب!
فإن من أكتب لها - ريم - قد نالت ثقتي.
وبكل صدق وأمانة أقول لك يا ريم:
بوركت فتاة اكتشفت فيها قدرات عظيمة
في الحب والبساطة ونقاء الذهن
في النضال ونكران الذات
وليست الحياة إلا تكريساً لهذه الخصال السامية
فإلى الأمام وعليك التصميم على النجاح
وإلى اللقاء في مجالات أكثر تفاعلاً مع تطلعات
شعبنا ومستقبله من تلك الحصة الدرسية السامية
التي ستظل تحمل بذور الانطلاق نحو الحياة
بكل معانيها.

دمشق ٣١/٧/١٩٧٨

ا. يشوع الحمد

رسالة الأستاذ يشوع ١٩٧٨

كما أني لا أنسى الأستاذ رفعت زودة الذي درّسنا اللغة العربية في الصف التاسع، وقد عشقتُ مادة اللغة العربية من خلال تدريسه، وما زلتُ متميّزة فيها. درّستُها لأصدقاء وزملاء وطلاب لي، عرب وأجانب، وجعلتهم يحبونها ويتجاوزون العقبات التي تقف في طريق تعلّمها. أذكر أني درّستُها لصديقي وزميلي في الجامعة واسمه عبد الله ديم، وهو من السنغال، في السنتين الأولى والثانية في الجامعة، في قسم الأدب الفرنسي. كما درّستُها لصديق اسمه قاسم من السودان، كان يدرس الإعلام في جامعة دمشق، وجعلتُه يفهم منطقها ولا يستصعب الإعراب الذي كان يشكّل له كابوساً حقيقياً؛ وأنا أعتقد، ومصرّة على ذلك، أن الإعراب في اللغة العربية يتضمّن منطقاً رياضياً بحتاً.

درّستُها أيضاً لطلاب أجانب، منهم دبلوماسيون فرنسيون: سفير ومستشار أول ومستشار ثانٍ في السفارة الفرنسية في دمشق، فأصبحوا جميعاً يتذوّقون اللغة العربية بعد أن عملتُ على تذليل الصعوبات التي كانوا يعانون منها، اللفظية وكذلك النحوية بشكل خاص.

من الأساتذة الذين أثّروا فيّ أيضاً، أستاذ التاريخ في المرحلة الثانوية، الأستاذ يوسف الأمير علي، الذي جعلني أعشق مادة التاريخ، إذ كنّا نشعر من خلال شرحه لهذه المادة أننا نستمع إلى حكاية ذات مغزى.

أما الأستاذ حبيب لكح، مدير القسم الثانوي في المدرسة، فقد كان مربياً، يحترم الطلاب المنضبطين ويقسو على الطلاب المستهترين، غير أنه كان بمثابة الأب للجميع... حتى وقت قريب، كنتُ أتصل به وكذلك يفعل هو للاطمئنان؛ وحين رحل عن عالمنا في العام ٢٠١٢، لم أستطع المشاركة في وداعه بسبب الأوضاع المتأزّمة التي تعيشها سورية في هذه الآونة. رحمك الله يا أستاذ حبيب... كان ذا روح مرحة وظلّ خفيف. رآني في إحدى

المرّات مع أمي في القصاع، فسلّم علينا بحرارة قائلاً لها: "أهنّئكِ على هذه التربية التي منحتِها لثائر وريم... أنتِ حقاً أم نفخر بها جميعَنا... فمن ثمارهم تعرفهم"!

من ضمن نشاطات المدرسة، تمّ تنظيم رحلة قمنا بها إلى الأردن في الصف العاشر، الأول الثانوي، وكان عددنا حوالى الخمسين طالباً وطالبة، يرافقنا في هذه الرحلة بعض الأساتذة من أجل الإشراف على حسن سير أمورها. من هؤلاء كان الأستاذ يشوع... حين وصلنا إلى الحدود الأردنية، لم يرغب ضابط الحدود المسؤول بإدخال طالبين منا إلى الأردن لأنهما يحملان وثائق سفر فلسطينية، وهما صديقتي رغدا وطالب آخر لم أعد أذكر اسمه. ولأن فلسطين في قلوبنا وعيوننا، اعتصمنا جميعاً عند الحدود الأردنية رافضين الدخول من دونهما: فإما أن ندخل جميعنا إلى الأردن أو نعود أدراجنا جميعاً إلى سورية... حدثت اتصالات على أعلى المستويات بين سلطتَيّ البلدين، وكادت الأزمة تتفاقم... غير أن إصرارنا على الدخول جميعنا إلى الأردن جعلنا ننجح في إجبار السلطات الأردنية على السماح لنا بالزيارة مع الطالبين الفلسطينيين.

أنا أعانق رامة

زرنا جرش وعجلون والبحر الميت وعمّان... كانت رحلة لا يمكن نسيانها ... في أثناء هذه الرحلة، أخبرني الأستاذ يشوع أنه اختار اسم "ريم" لابنته حديثة الولادة في ذاك الوقت، لأنه أعجب بتربيتي وخلقي العالي في التعامل مع أصدقائي... كانت تلك شهادة ما زلتُ أفخر بها من أستاذ وصديق أحترمه وأُجِلّه.

ما أحب ذكره هنا التزامي التام باللباس المدرسي العسكري (لباس الفتوّة) الذي كان يتأفّف منه الكثيرون، وانضباطي في كافة الأمور التي تخصّ قواعد المدرسة وأنظمتها وخاصة في ربط الشَعر الطويل للبنات.

في إحدى المرات، في الصف الحادي عشر، شاركنا في برنامج المسابقات الذي كان يعدّه أستاذنا في مادة اللغة العربية، الأستاذ ياسر المالح، ويقدمه الأستاذ مهران يوسف. كان يوم خميس على ما أذكر... ذهبنا مجموعة من طلاب اللاييك للاشتراك في تلك المسابقة، بلباس عادي ودون أي التزام بقواعد المدرسة تلك.

أنا بين مهران يوسف وفيلمون وهبة في برنامج المسابقات ١٩٧٧/٣/٢٤

يوم السبت، كانت لدينا حصة تدريب للفتوّة، وكنتُ أنا مسؤولة، بتكليف من المدرّبة، عن دفتر الحضور والغياب. حين سلّمتها الدفتر بالتحية العسكرية وبانضباط كامل في ما يخص اللباس وربط الشَعر، وكان شَعري يومها مربوطاً بجدائل طويلة، قالت لي المدرّبة: "هكذا أفضل مما كنت عليه في التلفزيون"؛ وهي تلمّح إلى أني لم أربط شَعري هناك. فأخذتُ التَحية العسكرية أمامها وأجبتها: "أعتقد أني لم أكن في المدرسة أمس، سيدتي!" ثم انصرفتُ بالطريقة العسكرية ذاتها...

لا يمكن لنا أن نكون بلون واحد في كل الأحايين، فالحياة فيها التنوّع الذي يعطينا روح قبول الأمور المغايرة لما تعوّدنا عليه... وكما يقال: "لكلّ مقام مقال... ولكلّ وقت آذان".

في العام ١٩٧٦، وفي الصف العاشر، فُرِض علينا أستاذ رياضيات لا يفقه شيئاً في التعليم... استمزجتُ رأي غالبية طلاب الصف، فتبيّن لي أنهم لا يفهمون ما يريده منا هذا الأستاذ، حتى المتفوّقين منهم في مادة الرياضيات، كانوا يجدون صعوبات جمّة في فهم مُراده... قررنا جميعاً التوقيع على عريضة نشرح فيها الحال التي وصلنا إليها في عدم فهم شرح الأستاذ في الصف وتقديمها بعد ذلك إلى مدير المدرسة من أجل إعادة النظر في اختياره لهذا المدرّس... تمّ جمع التواقيع من غالبية طلاب الصف المتفوّق، وهو صفّي، وبقيتِ العريضة في جيبي كي أسلّمها بعد انتهاء الدوام للمدير العام. فاجأنا هذا الأخير بدخوله إلى الصف وطلبِ الورقة مني ثم إصرارِه على ألا أعود إلى صفّي في اليوم التالي إلا بصحبة وليّ أمري... كذلك الأمر بالنسبة إلى رغدا، لأنها ساعدتني في جمع التواقيع على العريضة التي قرأها الجميع... اكتشفتُ صدفةً بأن إحدى الطالبات، وعلى اعتبار أنها قريبة للمدير، كانت قد أفشت ما خططنا له، وهو حقّنا المشروع، قبل أن نقوم بتسليم عريضتنا إلى المدير... انتظرتُ ليخرج

الجميع من الصف بعد انتهاء الحصة الدرسية وكمنتُ لها في الممر الخالي من الطلاب والأساتذة، وعندما خرجتْ من الصف، عاجلتُها بضربة قوية وحشرتُها، ظهرها إلى الجدار، متّهمةً إياها بخيانة الطلاب جميعاً... رأيتُ في عينيها الذعر... كانت تلك هي المرّة الأولى والأخيرة في حياتي التي أتصرّف فيها بمثل هذا العنف! وآليتُ على نفسي ألا أعود إلى ذلك مرة أخرى... لقد اعتبرتُ أن تصرّفنا، نحن الطلاب، في كتابة هذه العريضة، ممارسة حرّة وديمقراطية لأبسط حقوقنا وقد أفسدتْه هذه "الخائنة" بوشايتها الدنيئة!

بالفعل، في اليوم التالي، جاء وليّ أمري ووليّ أمر رغدا إلى المدرسة... وبّخ أبي المدير على فِعلته النكراء لأنه لم يتمتّع بسعة الصدر المطلوبة من المسؤول الأول عن المدِرسة وعامَلَنا بشكل "مخابراتي" ممجوج! قال له أبي حينها: "كيف تريدون تربية الجيل الناشئ على الديمقراطية وحرية الاختيار بمسؤولية وعلى احترام الرأي الحر وأنتم تعاملون الطلاب بمثل هذه الطريقة العدائية والمخابراتية، بسبب أستاذ غير قدير ومفروض على المدرسة بالواسطة والمحسوبية؟!"

رغم أن طلب وليّ الأمر، عادةً، هو من نصيب الطلاب الكسالى وغير الملتزمين، على عكسي تماماً، لكني كنتُ فخورة جداً بمجيء وليّ أمري إلى المدرسة لأول مرّة في حياتي المدرسية، إذ إنه كان على علم بكلّ خطوة أقوم بها، مشجِّعاً ومؤكِّداً عليّ أن أكون جريئة في قول الحق والدفاع عنه...

بقيتُ إلى آخر يوم في حياتي المدرسية أنظر بازدراء إلى تلك الطالبة التي وشتْ بنا لتكسب رعاية المدير، وقد وضعها "عيناً" علينا في المدرسة!

اختار أهلي لنا، أنا وأخي، أن ندرس في اللاييك التي درسا فيها أيضاً لأنها مدرسة عَلمانية، أي أنها تحترم جميع الأديان، معتبرةً إياها أنها تنتمي

إلى الحيّز الخاص للإنسان... وبالتالي، لم يكن في مدرستنا أي درس من دروس الدين ضمن الصف. لم يختارا لنا هذه المدرسة لأنهما ضد الدين، على العكس تماماً، فأمي المسيحية الأرثوذوكسية، صاحبة أعلى العلامات في مادة تفسير القرآن الكريم في الجامعة، كانت مؤمنة دون تفاخر أو تظاهر، إذ إنها آمَنَتْ بقول السيد المسيح "أغلق بابك وصلِّ لربِّك"، وأبي كذلك الأمر، وهو المسلم التوحيدي؛ لكنهما كانا مؤمنين أن ما جمعهما هو الحب الإنساني أولاً والعروبة ثانياً، أما الدين فهو أمر خاص بين الإنسان وربّه... وكفى!

غير أن وزارة التربية السورية كان لها رأي آخر على ما يبدو، ففرضت التعليم الديني في المدارس كلّها بلا استثناء، في العام ١٩٦٧ على ما أظن، وكان أبي آنذاك في سجن القابون. زارتْه أمي هناك وسألتْه عن رأيه حول الموضوع، فأجابها: "بما أن تدريس الدين في المدارس أصبح إجبارياً، فليدرسِ الأولاد الديانة المسيحية لمعرفة تاريخ الأديان بالتدريج وثقافتها الأخلاقيَة"... وهكذا كان!

درستُ الدين المسيحي وكنتُ أحصل على العلامة التامة، وكان ترتيبي في الصف بين الثلاثة الأوائل...

في الصف الثاني الابتدائي، تخرّجتُ من الفصل الأول وقد حصلتُ على المرتبة الثالثة في المدرسة. وفي أواخر الفصل الثاني، تمّ تعيين مدير جديد للقسم الابتدائي في المدرسة، فاستهجَن كوننا، أنا وأخي، من المسلمين الموحّدين وندرس الدين المسيحي. فأصدر أمره بأن ندرس الدين الإسلامي اعتباراً من العام الدراسي التالي؛ ولم يكتفِ بذلك، بل عاقبنا على دراستنا للدين المسيحي بأن حُذفَت العلامة التامة من صفحة النتائج ووضعتْ بدلاً عنها علامة الصفرِ. وهكذا تخرّجتُ من الصف الثاني الابتدَائي في المرتبة " الثلاثين" بدلاً من الثالثة!!!

بكيتُ يومها بكاء مرّاً، فأنا دوماً متفوّقة... كيف بي أصبح في آخر الترتيب تقريباً؟! كانتَ صدمة لي، وأيّ صدمة! أما ردّة فعل أخي، فكانت عادية ولم يهتم لعلامة الصفر على الإطلاق...

في العام الدراسي التالي، بدأنا أنا وأخي، ندرس الديانة الإسلامية، وكنتُ أحصل فيها على العلامة التامة! لم يختلف الأمر عليّ... فالله واحد وكلّ الطرق تؤدّي إليه، أليس كذلك؟!

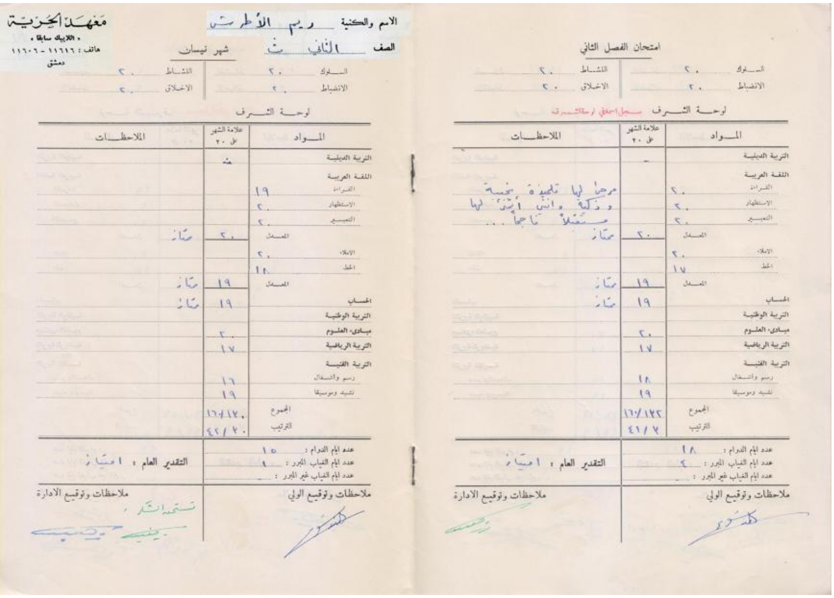

امتحان الفصل الثاني

السلوك ٢٠ — الانضباط ٢٠ — النشاط ٢٠ — الاخلاق ٢٠

لوحة الشرف: سجل اسمها في لوحة الشرف

المواد		علامة الشهر على ٢٠	الملاحظات
التربية الدينية		ـ	
اللغة العربية			
القراءة	٢٠		مرحا لها تلميذة نجيبة
الاستظهار	٢٠		وذكية وانني أتمنى لها
التعبير	٢٠		مستقبلاً ناجحاً ...
المعدل		٢٠	ممتاز
الاملاء	٢٠		
الخط	١٧		
المعدل		١٩	ممتاز
الحساب		١٩	ممتاز
التربية الوطنية			
مبادىء العلوم		٢٠	
التربية الرياضية		١٧	
التربية الفنية			
رسم وأشغال		١٨	
نشيد وموسيقا		١٩	
المجموع		١٦٠/١٣٢	
الترتيب		٤١/٧	

عدد ايام الدوام: ١٨
عدد ايام الغياب المبرر: ٤
عدد ايام الغياب غير المبرر: —
التقدير العام: امتياز

ملاحظات وتوقيع الولي — ملاحظات وتوقيع الادارة

معهد الحرية
«اللاييك سابقاً»
هاتف: ١١٦١٦ - ١١٦٠٦
دمشق

الاسم والكنية: ريم الأطرش
الصف: الثاني ث
شهر نيسان

السلوك ٢٠ — الانضباط ٢٠ — النشاط ٢٠ — الاخلاق ٢٠

لوحة الشرف

المواد		علامة الشهر على ٢٠	الملاحظات
التربية الدينية		ش	
اللغة العربية			
القراءة	١٩		
الاستظهار	٢٠		
التعبير	٢٠		
المعدل		٢٠	ممتاز
الاملاء	٢٠		
الخط	١٨		
المعدل		١٩	ممتاز
الحساب		١٩	ممتاز
التربية الوطنية			
مبادىء العلوم		٢٠	
التربية الرياضية		١٧	
التربية الفنية			
رسم وأشغال		١٦	
نشيد وموسيقا		١٩	
المجموع		١٦٠/١٣٠	
الترتيب		٤٢/٢٠	

عدد ايام الدوام: ١٥
عدد ايام الغياب المبرر: ١
عدد ايام الغياب غير المبرر: —
التقدير العام: امتياز

ملاحظات وتوقيع الولي — ملاحظات وتوقيع الادارة: تستحق الشكر

دفتر علاماتي في الصف الثاني وعلامة الصفر في الديانة

هذا ما جعلني في ما بعد أحفظ آيات من القرآن وأدرسه بتمعّن مرّات ومرّات، وأدرس الإنجيل والتوراة بالإضافة إلى قراءة الأبحاث الدينية في الأديان السماوية وفي الدين السوري ما قبل الميلاد لإغناء ثقافتي ولمعرفة أصول الدين؛ لقد قرأتُ بخاصة كتباً لعدة باحثين سوريين من أمثال فراس السواح ومحمد شحرور وصادق جلال العظم؛ واللبناني جورجي كنعان؛

والليبي الصادق النيهوم، والباحث المصري الذي قرأتُ له أعماله الكاملة وحضرتُ له كل المحاضرات التي قدّمها في دمشق، الأستاذ نصر حامد أبو زيد ...

استمرّتْ علاقتي بأصدقائي في مدرسة اللاييك أو معهد الحرية، إلى ما بعد مرحلة المدرسة، كما ظلّت صداقتنا قائمة بيننا وبين البعض من أساتذتنا. يمكنني القول إن أربعة عشر عاماً من الصداقة في المدرسة مثّلتْ أخوّةً وصدقاً، ليس بين الجميع بالطبع، ولكن مع مَن اخترتُهم أصدقاء لي. أما أهلي، فكانوا يعرفون أهل أصدقائي حق المعرفة. خلال المرحلتين الإعدادية والثانوية، أذكر، حين كنتُ أريد زيارة بعض الأصدقاء أو كنتُ أخرج معهم إلى السينما أو المسرح أو أذهب معهم إلى الملعب لحضور مباراة في كرة القدم أو السلّة، كان أبي يسألني عن أصدقائي، فأقول له مثلاً بأني سوف أخرج مع رامة ورغدا ونبراس وبشار وإياد وسامر...فيعدِّد أسماء آبائهم، فأجيبه بالإيجاب، فيقول: "حسناً، اذهبوا معاً..."

كان يعرف آباء أصدقائي ويفهم أن تربيتهم قريبة من تربيتنا في البيت، لذلك كان مطمئناً إلى أن هؤلاء الأصدقاء أهلٌ للصداقة والأخوّة والثقة.

في أثناء المرحلة الإعدادية، ألّفنا فريقاً للبنات للعب كرة القدم إلى جانب فريق الشباب، وكنتُ أنا حارسة المرمى المتفانية في صدّ هجوم قتيبة أو سامي أو بشار، وكانوا ثلاثتهم من أعتى المهاجمين في هذا الفريق. في إحدى المرّات، تغلّبنا على فريق الشباب بثلاثة أهداف مقابل هدفين... حتى إن قتيبة اغرورقت عيناه بالدموع من وقع الهزيمة! بعد ذلك، منعت الإدارة البنات من ممارسة لعبة كرة القدم، فاتجهنا لممارسة كرة السلّة مع بعض شباب صفّنا.

كنا نواجه فريق كرة السلّة للبنات في الصف الأعلى، وكانتْ فيه لاعبتان ماهرتان هما رنا وعزّة... غالباً ما كان فريقنا يُهزَم أمام هذا الفريق، إلا أننا نتمتّع بروح رياضية عالية جداً تجعلنا نتحمّل هذه الهزائم المتتالية.

أنا ورغدة مع فريق صفنا لكرة السلة في مدرسة اللاييك

في نهاية الصف العاشر، علينا أن نقرّر إلى أين سنتجه في الدراسة: إلى الفرع العلمي أم إلى الفرع الأدبي. كنتُ في قرارة نفسي قد اتخذتُ القرار بالاختصاص في الجامعة في العلوم الإنسانية، منذ ذلك الوقت: فأنا أحب اللغات والتاريخ والتربية الوطنية والفلسفة، مع أني لا أكره الرياضيات والكيمياء... إلا أن اللاييك لا تضمّ إلا الفرع العلمي، وإنْ أردتُ التوجه في سنتيِ الحادي عشر والبكالوريا إلى الفرع الأدبي، فعليّ تغيير مدرستي! وهنا المُعْضلة، فأنا لم أرغب بتغيير مدرستي وأساتذتي والابتعاد عن أصدقائي. لذلكَ، اتخذتُ قراري بالاستمرار في دراسة الفرع العلمي ثم، وبعد الانتهاء من البكالوريا، سوف أتوجه في الجامعة لدراسة اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي.

إذن، تمّ اتخاذ القرار النهائي المتعلّق بدراستي العليا في صيف العام ١٩٧٦

على ذكر مادة التربية الوطنية، أستطيع القول إننا كنا نتعلّم من خلالها الأخلاق ومحبة الوطن واحترام الآخر والشعور العميق بمسؤولية المواطَنة، من معرفة لحقوق المواطن وواجباته، خاصة حين نقرأ الجملة التالية:

"تنتهي حريتك عندما تبدأ حرية الآخرين". للأسف، تمّ استبدال هذه المادة بمادة التربية القومية الاشتراكية التي توجّه الطلاب إلى أفكار حزبية من لون واحد، ضاربةً عرض الحائط بأهمية تعلّم ماهية المواطنة الحقيقية والأخلاق التي على المواطن أن يتحلّى بها، كي يكون عنصراً صالحاً في المجتمع. وهذا ما أثّر سلباً في تربية الجيل الناشئ الذي أضحى يستقوي بالانتماء الحزبي ولا يميل إلى احترام الرأي الآخر ولا يعرف المعنى الحقيقي للحرية: الخيار الحر وتحمّل مسؤوليته دون المساس بخيار الآخرين!

نجحتُ في الشهادة الثانوية، البكالوريا، الفرع العلمي، وكان مجموع علاماتي يؤهّلني لاختيار كافة الكليّات العلمية، عدا الطب البشري والهندسة المدنيّة. غير أني اخترتُ دراسة اللغة الفرنسية والأدب الفرنسي، أما صديقاتي فقد اخترنَ كليّة الصيدلة.

كان أبي يرغب في أن أختار الصيدلة أو طب الأسنان، أما أمي فكانت تريدني أن أبقى مع صديقاتي، أي في الصيدلة. ظللتُ أحاججهما إلى اليوم الأخير في التسجيل: لن أنجح في دراسة الصيدلة ولا في دراسة طب الأسنان، إلا أني سوف أتفوّق في دراسة الأدب الفرنسي.

وهكذا، في اليوم الأخير للتسجيل، ذهبتُ وقدّمتُ أوراقي إلى كلية الأدب الفرنسي، فما كان من المسؤول عن التسجيل هناك إلا أن أخذ يحاول

إقناعي بالعودة عن قراري واختيار أي فرع علمي... فأجبتُه قائلة: "لقد انتهيتُ للتوّ من محاجّة أهلي لمدة شهر كامل في هذا الموضوع، ولستُ على استعداد لمحاجّة أخرى..."!

أنهيتُ السنوات الثلاث الأولى وأنا الأولى على دفعتي... وتخرّجتُ من كليّة الأدب الفرنسي في المرتبة الثانية...

ثم تابعتُ دراساتي العليا بتفوّق ثم الماجستير، إلى أن حصلتُ على شهادة الدكتوراه في الترجمة من جامعة النور في مدينة ليون الفرنسية، بعد أن تمّت معادلة أطروحتي في الماجستير بدبلوم الدراسات المعمّقة في فرنسا.

في كلية الآداب (أظهر الأولى إلى اليسار)

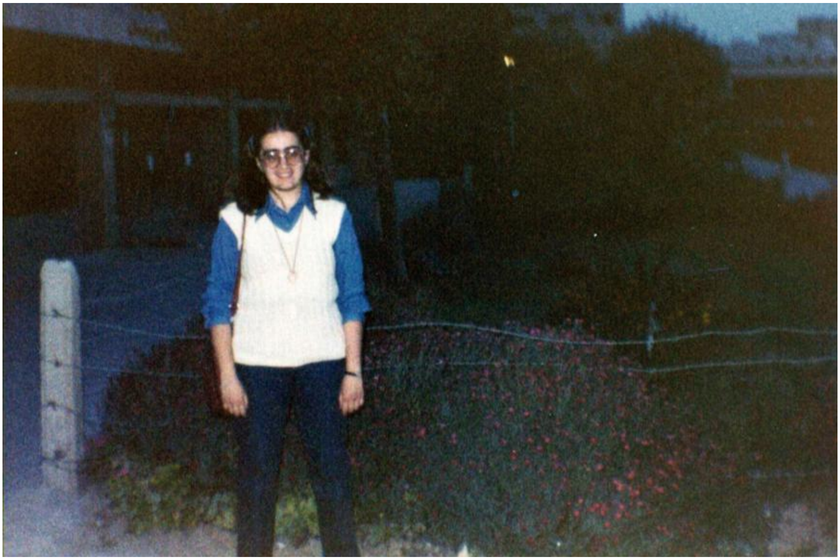

في كلية الآداب

في دفاعي عن أطروحة الماجستير

لجنة التحكيم في الماجستير، جامعة دمشق

في دفاعي عن أطروحة الدكتوراة في جامعة ليون الثانية حزيران ٢٠٠٣

لجنة التحكيم في الدكتوراة في جامعة ليون الثانية

تبدو رامة وثريا معي في أثناء دفاعي عن أطروحة الدكتوراة

الاحتفال مع الأصدقاء بعد نيل شهادة الدكتوراة في جامعة ليون الثانية

في السنة الجامعية الأولى، كنتُ أداوم في الجامعة وفي المدرسة معاً...كيف؟! لم أستطع الانسلاخ عن مدرستي كما فعل الآخرون. هي تعني

لي الكثير... كنتُ أذهب لزيارة الأساتذة وتأمّل الصفوف ومشاهدة التلاميذ وهم يلعبون في الباحة، وكنتُ أسترجع ذكرياتي الجميلة فيها. بقيتُ على هذه الحال طوال السنة الجامعية الأولى إلى أن استطعتُ الانسلاخ عنها، لكنها بقيت في قلبي وفكري وكنتُ أتحيّن الفرصة لفعل أي شيء يأتي بالفائدة على هذه المدرسة.

في الرابع والعشرين من نيسان / أبريل من العام ١٩٩٨، أي بعد تخرّجي من مدرسة اللاييك بعشرين عاماً، تمّ تنظيم اجتماع لجيلنا المدرسي بمبادرة طيبة من بعض الأصدقاء، وكان طبعاً بمشاركة مادية من جميع الطلاب، وتمّت دعوة أساتذة مدرسة اللاييك للحضور أيضاً. كان اللقاء في فندق الميريديان (داما روز حالياً).

للوهلة الأولى، شعرتُ بالاضطراب وتساءلتُ كيف سأرى رفاق المدرسة؟ هل سيعرفونني؟ هل سأعرفهم؟...

وللحظة، تبدّدتْ مخاوفي وذهب اضطرابي، فقد عرفني الجميع قائلين: "ريم، ها أنتِ كما كنتِ دوماً لم تغيّركِ السنون... أنتِ كما أنتِ، لمعان عينيكِ هو ذاته وابتسامتك هي ذاتها...".

سُرِرْتُ جداً بهذه التعليقات... صحيح أن الزمن قد مرّ، وأن عشرين عاماً ليست بقليلة، إلا أني على ما يبدو لم أتبدّل في مظهري العام ونفسيتي، فعرفني الجميع، وهذا أدخل الراحة إلى قلبي. وأنا أعتقد أني ما زلتُ محافظة على شعوري الطفولي حتى الآن.

تحدثتُ بحديث مقتضب أمام الميكروفون:

"لقد افترقنا كلٌّ في اتجاه، إلا أن خيطاً رفيعاً غير مرئي ما زال يربطنا ويشدّنا واحدنا إلى الآخر، وسيظلّ كذلك، وهو علاقتنا وانتماؤنا إلى مدرسة اللاييك".

أول اجتماع لدفعة صفنا في اللاييك وأبدو في الوسط وغادة الأولى وقوفاً إلى اليسار ١٩٩٨

ما أدخل الفرح إلى قلبي هو أن أحدهم اعترف، حينها، بحبه لي منذ عشرين عاماً، وما منعه من الاعتراف قبل ذلك هو خشيته من الصد، إذ كان معروفاً عني جدّيتي وحزمي!

آه لو علم أني لم أكن لأصدّ مثل هذه المشاعر الصادقة! فأنا أومِنُ بالحب في الحياة... فالحب الذي جمع أبي وأمي، هو الذي علّمني قيمة الحياة... الحب في كلّ عمل أقوم به هو الذي يمنحني الدافع في الحياة... لم أرَ يوماً الحياة إلا من خلال الحب... وما زلتُ أومِن به وأبحث عنه رغم شحّه في هذه الأيام بين البشر!

على كل حال، هذه هي الحياة وهذا هو النصيب!

الاجتماع الثاني لدفعتنا مع أساتذتنا في اللاييك ١٩٩٨

انبثقتْ عن اجتماعاتنا المتكرّرة تلك فكرة إنشاء رابطة لخرّيجي اللاييك... بدأنا بتنفيذها بجدّ، واستطعنا ترميم الطابق الأخير من المدرسة لتحويله إلى مقرّ للرابطة وكان ذلك بهمّة بعض المقتدرين وبهمّة صديقنا المهندس طريف وورشته، كما قام بترميم المسرح الذي كان له تاريخ طويل في الزمن الجميل. فقد صدحت عليه كوكب الشرق السيدة أم كلثوم وغنّى فيه فريد الأطرش... كما مُثِّلَت على خشبته مسرحيات من الأدب العالمي، أخرجها الدكتور رياض عصمت ومثّل فيها طلاب اللاييك من جيل أخي؛ أهم تلك المسرحيات وأنجحها (البخيل) لموليير.

توضّحتْ في ذهني أفكار كثيرة من أجل أن تكون هذه الرابطة جهة غير حكومية مؤثِّرة في تطوير مدرسة اللاييك تربوياً وجعلها تعود إلى سابق عهدها. وقد استطعنا العمل على ترميمها من بعض التبرّعات من

الأصدقاء والزملاء من أمثال: أحمد وطريف وخالد وغسان وفوز ورضوان... وغيرهم كثر.

بنات صفي في مدرسة اللاييك، ويبدو الثلاثي المرح رامة إلى اليمين في الأعلى وريم في الوسط، ورغدة أمامي

وبما أني انتُخِبتُ رئيسة للجنة النشاط الثقافي، فقد استطعتُ، مع فريق العمل في هذه اللجنة، وهما طريف وناجي، تنظيم حفل رائع للفرقة السيمفونية السورية بقيادة الأستاذ صلحي الوادي، وحفل آخر لجوقة الفرح من أجل أطفال فلسطين والانتفاضة، إضافة إلى محاضرة للدكتورة نادية خوست بعنوان (مدرسة اللاييك... ذكريات المكان)، ربطتْ فيها بين إنشاء اللاييك، ثمرة الانتداب الفرنسي، والتزام طلابها بالنضال الوطني من أجل الاستقلال؛ كما حرّضت هذه المحاضرة، عند البعض من كبار السن، ذكريات جميلة عن المدرسة في بداية نشأتها، فتحدّثوا عن القسم الداخلي

فيها وعن الوجبات الغذائية التي كانتْ تُقَدَّم للطلاب وعن دروس رقص الباليه والموسيقى التي كانت تُعطى فيها للطالبات.

لم أستمر طويلاً في العمل ضمن الرابطة بسبب شعوري بأن الأهداف الأساسية لتأسيسها قد "ضاعت في الطريق" ولم تعدْ واضحة، وذلك بسبب قصر نظر البعض، وتفضيلهم المصالح الآنية على تلك الأهداف الحقيقية التي كنتُ أشرحها للجميع من أجل جذب خرّجي اللاييك إلى تلك الرابطة! ثمة بعضهم، وأنا لم أكن أعرفه معرفة شخصية، قد قرّر الخروج من الرابطة لعلمه بأني لم أعدْ أنتمي إليها، إذ إنه شعر بضياع الأهداف وتشتّتها...

أكتفي هنا بالتلميح... وفهمكم كفاية!!!

٣- أمي

رحلت أمي في ٢٢ شباط ٢٠١٣ . رحلت بهدوء كما كانت تصلّي: نامت ولم تستيقظ صباحاً . وهكذا، غدت كلّ الصباحات مختلفةً وغريبة عني. لن أقدّم لها القهوة لنشربها سوياً ولن أقرأ لها المقالات الهامة من الإنترنت بعد اليوم. أيُعقَلُ هذا؟! نعم... هذه هي الحياة على ما يبدو!

صديقتي "هنّود" رحلت كالنسمة، كما كانت دوماً، ولم يعدّ باستطاعتي رؤيةُ عينيها المعبّرتين الصادقتين.

تعلّمتُ منها الحياةَ الحقيقية: العملَ والعطاءَ والصدقَ والوفاءَ والتسامحَ مع الآخرين إلى أقصى الحدود ونبذَ الزيف وقولَ الحق واختيارَه حتى لو كان الثمنُ الذي سأدفعُهُ كبيراً. حملتّ في جسدها روحاً نبيلة واختارت الدربَ الأصعبَ في الحياة: لقد اختارت بقلبها وبكلّ جوارحها ولم تندمْ علىَ خيارها هذا رغم الصعوبات التي واجهتها في المجتمع، إذَ إنها آمنت بقول السيد المسيح: "ما ينفعُ الإنسان أن يكسبَ العالم ويخسرَ نفسَه" !

أحبّت أبي بصدق وضحّت بالكثير في حياتها معه. وحين سألتُها مرّةً: (بعد أن عشت كلّ هذه الصعوبات، هل ندمت على خيارك؟)، أجابتني: "لو أُعيدتّ حياتي مَرّة ثانية لما اخترتُ غيرَها" . أليسَتّ هذه هيَ الحرّية؟!

ثباتٌ وقوّةُ إيمان وحبٌّ استمرّ بوهجه وتألّقه حتى آخرِ لحظةٍ عاشاها معاً وطِوالَ خمسين عاماً من الزواج إضافة إلى أربعة عشر عاماً من الحب الحقيقي.

كانت لنا أباً وأمّاً في الفترات السياسية الصعبة التي واجهها أبي. علّمتنا أنّ الحكومات تأتي وتذهب ولكنّ الوطن إذا ذهب وفقدناه يوماً فإنه لا يعود. لذلك علينا الإيمانُ به وبوجوده والحفاظ عليه رغم كلّ المِحَن.
ربّتنا مع أبي على احترام الآخر ومعتقداته حتى وإنْ خالفتْ معتقداتِنا: أليست هذه هي الديمقراطية؟!

أحبّتنا وأعطتنا بلا حدود واحترمتْ خياراتِنا ولم تفرض رأيَها على أحدٍ منّا ولا على طالباتها خلال ثمانية وعشرين عاماً من تدريس الفلسفة وعلمِ النفس في دار المعلّمات في دمشق.

رحل أبي وهو يتغزّل بها، في شهر ميلادها (تشرين الثاني)؛ رحلت أمي وهي تحبه بعمق وإخلاص في شهر ميلاده (شباط). أليس في ذلك عبرة؟! وها هما يرقدان بسلام في مكان واحد، أحدهما إلى جانب توأم روحه، لتتلاقى الأرواح في حبٍ عظيمٍ أبديٍّ عابرٍ للأديان، أليس في ذلك قدوة؟!

هنيئاً لكما يا أبي ويا أمي، وإلى الملتقى!

د. ريم منصور الأطرش

السويداء، في ٣٠ آذار/ مارس ٢٠١٣

هذه الكلمات كتبتُها بعد رحيل أمي المفاجئ، وبمناسبة مرور أربعين يوماً على ارتقائها. رحلتْ في بيت أخي في محافظة السويداء بعد أن أجبرتنا الأحداث في سورية على الالتحاق بأخي كي نكون سوياً في هذه الظروف العصيبة. لم تكن ترغب في ترك بيتها في دمشق، ذلك البيت الذي بذلت

عمرها لتبني كلّ لَبِنة فيه، غير أنها خافتْ عليّ كثيراً، إذ كان يجافيني النوم طيلة الأشهر الماضية بسبب أصوات المعارك، فقبلَت الخروج منه...

كانت فيروز تجمعنا بصوتها ورقيّها... فنقضي ساعات يومياً في الاستماع إلى هذا الصوت الملائكي السماوي.

أميَ يا ملاكي   يا حبّيَ الباقي إلى الأبدْ
ولم تزلْ يداكِ   أرجوحتي ولم أزلْ ولدْ

هذه القصيدة الرائعة للشاعر سعيد عقل أبكتْ أمي لسنوات، خاصة حين ارتقتْ أمها في العام ١٩٩٤ عن عمر أربعة وتسعين عاماً. وها هي ذي القصيدة المغنّاة ذاتها تبكيني اليوم بعد أن افتقدتُ أمي! فمهما تقدّم الإنسان في العمر، يبقَ في احتياج شديد إلى أمه: "ولم أزلْ ولدْ".

كانت أمي كلّ حياتي، خاصة بعد رحيل أبي في العام ٢٠٠٦.

حين ألمّ المرض بأبي، شعرتُ من خلال عنايتي اليومية به أنه أضحى ولدي... وحين ضعفت الحال بأمي، شعرتُ بالإحساس ذاته... لقد غدوتُ، كما قالت صديقتي سلافة، "أماً لأمي وأبي"!

قبل أقلّ من أسبوع على رحيلها، رأيتُ في الحلم أبي بهندامه الكامل وهو فرح جداً ومتأنّق، وإلى جانبه في غرفة فسيحة مضاءة بنور رائع، خالتي منيرفا وعمّها، العم اليان، إضافة إلى أمي. الجلسة فرحة والجو لطيف ومَرِح في ما بينهم.

رويتُ لأمي هذا الحلم في اليوم التالي، فتساءلتْ قائلة: "هل هذا يعني أني سوف ألتحق بهم في الآخرة؟" كانت ردّة فعلي مستنكرة لهذه الفكرة... فشعرتْ بخوفي وحاولتْ طمأنتي، مؤكِّدة على أننا قد ذكرناهم منذ وقت قريب، لذلك رأيتهم في منامي.

قبل رحيلها بعدة أشهر، في ١٦ / ١٢ / ٢٠١٢ بالتحديد، ألّفتْ أمي بيتاً فلسفياً من الشِعر على وزن البحر البسيط:

طالَ الزمانُ وملّتْ مني الأشهرُ   ربّي أعنِّي على باقي سُنَيّاتي

كنتُ أتمنّى لو بقيتْ لسنوات معي، حتى لو كانت " سُنيّات" قصيرة، لكن القَدَر اصطفاها بعد عشرة أسابيع من تأليف هذا البيت!

كانتْ لدى أمي موهبة في تأليف الشعر، إذ إنها عارضتْ قصيدة الشاعر سليمان العيسى في رثاء أبي، بعنوان منصور الأطرش، بقصيدة شعرية جميلة نشرتُها على موقعي على شبكة الإنترنت:

www.rimalattrache.com

يا بنَ الأصيلِ ويا رفيقَ دروبنا

والحزنُ يعصرُ قلبَنا الحيرانا

سيظلُّ ذكرُكَ عبرَ طولِ وجودنا

عطراً يفوحُ ببيتِنا وسبيلِنا

انظرْ إلينا من علوٍّ سمائكَ

تلقَ الوفاءَ، الحبَ والعِرفانا

أما قصيدة الشاعر سليمان العيسى بعنوان (منصور الأطرش) فقد نُشِرَت في جريدة تشرين في ٢١ / ١١ / ٢٠٠٦ :

يا بنَ العرينِ
ويا رفيقَ جراحنا
والريحُ تمضغُ حلمَنا الموؤودا

سيظلُّ بيتُكَ...
عبرَ حالكة الدُجى
ناراً تضيءُ كفاحَنا ...
ووقودا ...

أُمدُدْ يديكَ إلى الرفاقِ
من الردى...
الفجرُ فجرُكَ...
ما يزالُ بعيدا ...

قبل رحيلها بيوم واحد، كان يوم التفجير المروّع في حي المزرعة... انتفضتْ ثائرة على هذا القتل الإجرامي للأبرياء وعلى هذا التدمير غير المسبوق لشامها التي تعشقها، خاصة أن حي المزرعة يضمّ بيتنا القديم ومكان عملها السابق. حزنتْ كثيراً وتأثّرتْ... ثم سألتني قبل أن تنام نومتها الأخيرة في تلك الليلة: "أيُعقَلُ ألا أرى بيتي بعد اليوم؟" ذُهلتُ لهذا السؤال، وأجبتُها على الفور: "إنْ أردتِ، نستطيع العودة غداً إلى دمشَق" ... فقالتْ:

"لننتظر شهر آذار ولقاء بوتين وأوباما، ثم نقرّر" ...

غير أن القَدَر لم يُمهلها ...

صحوتُ صباحاً... حاولتُ إيقاظها، فوجدتُها "نائمة" تماماً دون أي انزعاج على مُحَيّاها، إلا أنها كانت قد ارتقتْ إلى دنيا الحق! هكذا، اختطف

الموت أمي عن عمر تسعين عاماً وثلاثة أشهر، عاشتْه مناضلة حقيقية في مجتمع صعب وظالم ومنافق في كثير من الأحايين... أظنها قد شعرت باقتراب المنيّة، رغم أنها لم تكن تعاني من أمراض الشيخوخة، بل تقدَّمَ بها العمر وهي في غاية الشفافية والرونق، وبريق عينيها لمّا ينطفئ...

ولِدَتْ أمي في ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٢٢ وكانت البنت الثانية لعائلة دمشقية مسيحية أرثوذكسية وطنية، مؤلّفة من خمسة أولاد: ثلاث بنات وصبيين.

تميّزتْ بين إخوتها وأخواتها، فكانت لطيفة المَعشَر، تحترم أباها وأمها، تتحمّل مسؤولية كبيرة، ذكيّة ولمّاحة ومجتهدة... حتى إن خالها جورج قد مدحها شِعراً في عيد ميلادها العاشر، فقال:

هندٌ فتاةٌ كلُّها ظُرَفُ وعلى مُحيّاها بدا اللطفُ

هي بنتُ عشرٍ، غير أن لها عقلاً يُقَصِّرُ دونَه الوصفُ

أما خالها حُنَيِّن، فكان يصف عقلها الراجح بأنه "يفيض" على الآخرين!

يبدو أن أمي تميّزت بإعمال العقل والذكاء اللمّاح إضافة إلى جمالها الجليّ... أما عيناها، فالمعاني كلّها فيهما والصدق يشعّ منهما وبريقهما يفوق الوصف.

لم تتكلّف يوماً ولم تصطنع أمراً مع أحد... عاشت صادقة، وكان رحيلها هادئاً، تلبية لصلاتها الدائمة: أرادت الرحيل نائمة، مثل عمّتها جول، دون أدنى عذاب لها أو لِمَن حولها... فكان لها ما أرادت!

عائلة أمي

أمي مع ابنة خالتي نبيلة

أرادتْ تشييعها يوم الأحد لعشقها لهذا اليوم... فكان أن غادرتْنا صباح الجمعة، ومن البدهي أن يتمّ التشييع يوم الأحد... التقى توقيت رحيلها

برحيل جدي سلطان الذي غادرنا يوم الجمعة وكان تشييعه يوم الأحد! وهي كانتِ تحترمه وتحبه إلى حدّ التقديس؛ وقالت يوم تشييعه: "هنيئاً له، لقد ارتقى يوم الجمعة وشُيّع يوم الأحد، وكأنه بذلك أرضى جميع الناس في بلدي وأثبت حبه لهم دونما تفرقة"!

أرادت لنومها الأبدي أن يكون إلى جانب توأم روحها منصور... فكان لها ما أرادتِ.

لم يعجبها يوماً وضع الورود على النعش لأنها لم تكن تقتنع بمثل هذه المظاهر، فكانت تفضّل لو أن ثمن كلّ هذه الورود يوظّف لفائدة المحتاج، وهذا ما كانت تفعله دون ذكر لاسمها مطلقاً، مؤمنةً بأن ما تعطيه يدها اليمنى يجب ألا تعلم به اليسرى! فكان لها ما أرادتِ، وخرج نعشها "حقيقياً" من الكنيسة إلى مرقدها الأخير؛ لكني حملتُ إليها بعد يوم واحد بعض الورود التي تحبها فأودعتُها سلامي وبثثتُها من روحي فيض محبتي!

لم تحب في حياتها الاتشاح بالسواد حزناً على أقرب الأحباء إلى قلبها، فأوصتني ألا أرتدي، أنا أيضاً، السواد على فراقها... فاحترمتُ رغبتها تلك... أوصتني ألا أضع في نعيها عبارة "متمّمة واجباتها الدينية" لأنها لا ترى فيها أي معنى... فكان لها ما أرادت في كلّ ما أوصتني به.

في الكنيسة، في السويداء، ثم في بيتنا في القريّا، كان الناس في وداعها أوفياء بلا تكلّف وبصدق بالغ، رغم أنهم، في معظمهم، لم يعرفوها شخصياً...

أما كلمة سيادة المطران سابا في وداعها، فقد شكّلت عزاء لقلبي وبلسماً لروحي الحزينة في تلك اللحظات القاسية: تحدّث عن خصالها بإسهاب العارف، رغم أنه، كالآخرين، لم يعرفها عن قرب! وهذا ما أضفى على قلبي سكينة ورضى...

رحلتْ في عيد الوحدة بين سورية ومصر لتحسّرها على انقضاء ذلك العيد دون رجعة، حتى اليوم... صادف أربعينها يوم سبت النور (٣٠ آذار / مارس ٢٠١٣)... سيصادف يوم مرور أربعة أشهر على رحيلها، ليلة النصف من شعبان التي كانت تصلّي فيها من أجلي ومن أجل خير البلد ولكل أحبائها؛ أما ذكرى مرور ستة أشهر على افتقادها، فسوف يكون يوم عيد زواجها، أي في ٢٤ آب / أغسطس... وكان رحيلها في شهر شباط / فبراير، شهر ميلاد حبيب عمرها منصور!

آمَنَتْ إيماناً عميقاً بمبادئ البعث العربي وبحتمية ميلاد الجيل العربي الجديد، وبقول الأستاذ ميشيل عفلق:

"يجب ألا نقول إلا ما نستطيع فعله، إلى أن يأتي يوم نستطيع فيه أن نفعل كل ما نقول".

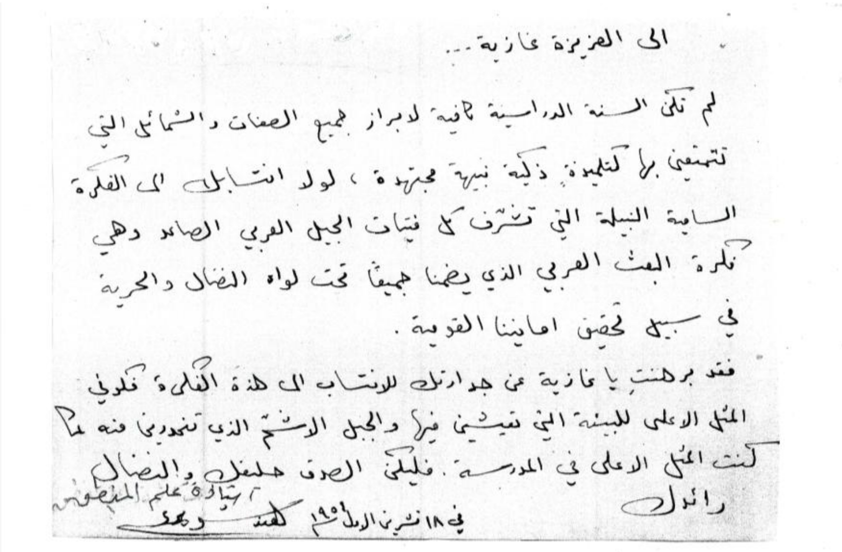

الى العزيزة غازية...

لم تكن السنة الدراسية كافية لابراز جميع الصفات والشمائل التي تتمتعين بها كتلميذة ذكية نبيهة مجتهدة، لولا انتسابك الى الفكرة السامية النبيلة التي تشرف كل فتيات الجيل العربي الصاعد وهي فكرة البعث العربي الذي يضمنا جميعاً تحت لواء النضال والحرية في سبيل تحقيق امانينا القومية.

فقد برهنت يا غازية عن جدارتك للانتساب الى هذه الفكرة فكوني المثل الاعلى للبيئة التي تعيشين فيها والجيل الناشئ الذي تنحدرين منه كما كنت المثل الاعلى في المدرسة. فليكن الصدق حليفك والنضال رائدك

في ١٨ تشرين الاول ١٩٥٤ المخلصة هند

رسالة من هند الشويري إلى طالبتها غازية حمزة ١٩٥٤

لقد ربّتنا، أنا وأخي، على هذه المقولة، وكذلك فعل أبي، حتى نكون صادقين مع أنفسنا ومع الآخرين...

هكذا نشأتُ وعلى هذا العهد بقيتُ... ولمّا أزلْ...

وعيتُ منذ الصغر حنان أمي ورعايتها لي ولأخي. لم أشعر يوماً بفارق في المعاملة بيننا، لا من جهة أمي ولا من جهة أبي. ومحبتها كانت تفيض علينا...

أنا وثائر وماما في لبنان

قد يقول قائل، كلّ الأمهات هكذا؛ وأنا أقول: إلا أن بعضهنّ ينتظر المقابل... أما أمي، فعطاؤها بلا حدود وبلا مقابل...

لقد استغنت عن كل الأمور المادية... لم تكترث بها مطلقاً: فهي لم تسعَ إلى تغيير دينها حرصاً على إرث ما من زوجها بعد رحيله، ولم تطلب منه أي مقابل مادي يعوّضها عن القانون الشرعي الذي يقول: (لا إرث بين ملّتَيْن)؛ بل أغدقتْ علينا ما استطاعتْ من محبة وماديات دون حساب وإلى آخر لحظة في حياتها، حتى مصاريف وداعها الأخير!

في صغرنا، كنّا نذهب في الصيف إلى فندق بلودان الكبير، حيث نقضي جزءاً من الإجازة. أما أبي، فمشغول بعمله السياسي الرسمي في دمشق، إلا أنه كان أحياناً يتردّد علينا هناك حين يجد لنفسه متسعاً من الوقت، أو فرصة سانحة للاستراحة!

كانت أمي تحتضننا في كلّ الأوقات، دون أن تتركنا ولو للحظة واحدة... حتى إن الشاعر بدوي الجبل، وقد كان يصطاف أيضاً في بلودان[٢]، كال لها المديح لأنها، حسب رأيه، أم مثالية لم تترك وَلدَيْها لحظة واحدة، كما كانت تفعل الأمهات اللواتي ينزلْنَ في الفندق ذاته.

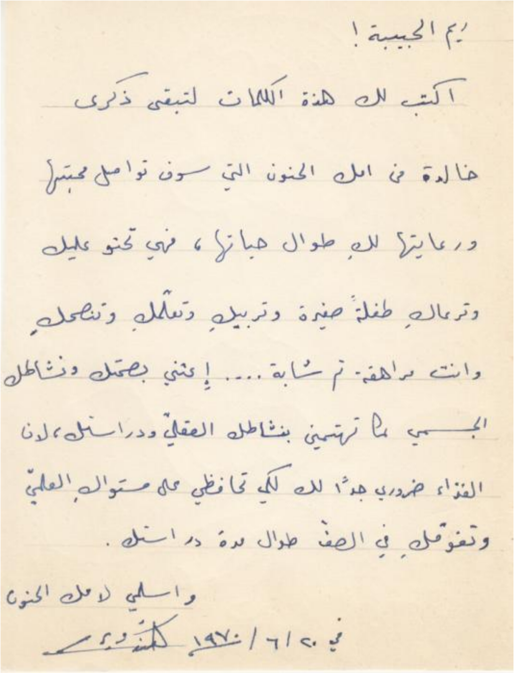
ريم الحبيبة!
أكتب لك هذه الكلمات لتبقى ذكرى
خالدة من أمك الحنون التي سوف تواصل محبتك
ورعايتك لك طوال حياتك، فهي تحنو عليك
وترعاك طفلة صغيرة وتربيك وتعلمك وتنصحك
وانت مراهقة، ثم شابة.... إنني بصحتك ونشاطك
الجسمي كما تهتمين بنشاطك العقلي ودراستك، لأن
الغذاء ضروري جداً لك لكي تحافظي على مستواك العلمي
وتفوقك في الصف طوال مدة دراستك.
واسلمي لأمك الحنون
في ٢٠/٦/١٩٧٠

رسالة أمي ١٩٧٠

[٢] بلدة سورية تقع إلى الشمال الغربي من مدينة دمشق وتُعدّ من أهم مناطق الاصطياف قرب العاصمة.

في بلودان أيضاً، كنّا نذهب لبيت خالتي منيرفا ونلعب هناك سوياً مع فوز... كنتُ أحبّ الأرجوحة المنصوبة على شرفة بيتهم، وأستمتع بالهدوء الذي يعمّ تلك البلدة.

الحياة في بيتنا في حي المزرعة في دمشق وديعة هانئة، لكننا نشتاق فيها لوجود أبي المشغول دوماً ثم الغائب بسبب السجن السياسي والمنفى في بيروت.

زرعتِ أمي فينا مبادئ حياتية راقية: علّمتْنا الاكتفاء بما لدينا دون اشتهاء لما يملكه غيرنا! كانتِ تقول لنا:

أنا وثائر وماما والثلج في ضواحي دمشق - الصبورة

نحن والثلج في ضواحي دمشق ـ الصبورة ١٩٧١

"احرصوا على الأهم من الأمور ثم على الأمور الهامة ولا تهتموا بالتوافه". وانسحب هذا في حياتي كلّها على تصرّفاتي في كلّ المجالات، فأنا لا أشتري شيئاً لستُ بحاجة إليه ولا أكنز الأشياء الثمينة كما يفعل الآخرون.

لم تكن أمي تهتم بالماديات، إذ لم أرَ في يدها إلا محبس زواجها الذي لم تغيّره حسب الموضة كما تفعل النساء عادةً، وبقي هو ذاته في إصبعها حتى آخر لحظة في حياتها، أي طيلة ستة وخمسين عاماً؛ كان ذلك المحبس هدية من صديق أهلي يوسف تقلا يوم زواجهما، وثمن المحبسَيْن عشر ليرات لبنانية.

ثمة مبادئ ربتني عليها صغيرةً، أفادتْني في حياتي كلّها، منها تحمّل المسؤولية بكلّ أشكالها. في صغرنا، كانت تعطي كلاً منّا مصروفه، أسبوعياً، قائلة لنا: "هذا هو مصروفكما لمدة أسبوع... إذا قمتُما بصرفه دون أن ينتهي الأسبوع، فليس لكما غيره... وإذا بقي منه بعد نهاية الأسبوع فهو لكما، يستطيع كلٌّ منكما وضعه في حصّالته، وسوف أعطيكما المصروف الجديد في بداية الأسبوع التالي". أذكر أن مصروفي طيلة المرحلة الابتدائية لم يتعدَّ الليرتين أسبوعياً. لذلك كنتُ أحرص على ألا أصرف أكثر من هذا القدر خلال أسبوع كامل، وأحياناً كنتُ أضع ما يتبقّى من مصروف الأسبوع في حصّالتي، حتى إني جمعتُ من مصروفي ومن كل الهدايا الذهبية التي قدِّمَتْ لي في الصغر حوالى اثنتي عشرة ليرة ذهبية إنكليزية، وكذلك فعل أخي... هذه الليرات الأربع والعشرون ساهمنا بها في شراء بيت العائلة، الذي دفعتْ أمي معظم ثمنه من جهدها وعملها.

علّمتني ألّا أتعلّق بالأشياء وألّا أهتمّ بالمظاهر وأن أرضى بما قَسَمَه لي القَدَر، فمَنْ ينظرْ إلى ممتلكات غيره وأشياء غيره وميّزات غيره يتعب في

حياته. كانت تقول لي: "ثمة دائماً مَنْ هم أذكى وأحلى وأجمل وأغنى منّا... فالأفضل لنا أن نستمتع بما قَسَمَ الله لنا"!

كنّا نقضي أنا وأخي ساعات حلوة في الصيف، نخترع ألعاباً نمارسها سوياً مثل سيارة الإطفاء والتاكسي؛ فكنّا نقلب المقعد ونعتبره السيارة المناسبة التي يقودها أخي طبعاً وأنا المساعدة له... أليس هو الأكبر سنّاً؟... وهكذا...

في أحد الأيام، أحببنا أن نلعب لعبة المدرسة، فاشترينا طباشير ملوّنة وبدأنا نكتب بها... ولكنْ، على ماذا؟... لم يكن لدينا لوح أسود... فقرّرنا الكتابة على حائط غرفة الجلوس... كان أهلي نياماً خلال قيلولة ما بعد الظهر. استيقظا من النوم، وخرج أبي من البيت. أما أمي، وهي شديدة الملاحظة، فقد انتبهتْ إلى بقايا الطباشير الملوّنة على الأرض، بعد محوِ ما كتبناه، طبعاً، من على الحائط. نظرتْ إلى الجدار، فاكتشفَتْ ما فعلناه... لم تغضبْ، ولم تقلْ شيئاً، بل ذهبتْ إلى المطبخ وأتت بليف أسفنجية جديدة وصابون وماء، وقالتْ لنا: "خلال ساعة، يجب أن يكون هذا الجدار نظيفاً"، وخرجتْ من الغرفة... وهكذا كان!

منذ ذلك الحين، وكان عمري لا يتجاوز خمس سنوات، تعلّمتُ أن أتحمّل تبعات أخطائي وألا أتهرّب من مسؤولية ارتكاب الخطأ وبالتالي، ألا أقول "ما دَخَلْني"![٣]

دخل أبي السجن السياسي إثر انقلاب ٢٣ شباط / فبراير ١٩٦٦، وكنتُ حينها في السادسة من عمري. شرحتْ أمي الوضعَ، لي ولأخي، مؤكِّدةً أن أبي ليس مجرماً، إلا أنّ رفاقه العسكريين في الحزب ذاته قد انقلبوا على المدنيين وأدخلوهم السجن.

---

[٣] أي ليس لي أيّ علاقة بالموضوع.

بدأ الوعي يتسرّب إليّ وأنا في هذه السنّ المبكرة... في المدرسة. عانيتُ كثيراً من التغامز عليّ من بعض التلميذات، وقد قادتْه إحداهنّ، وتدعى لينا... حاولتُ أن أشرح للجميع أن أبي لم يرتكبْ جرماً، وأنّ هذا السجن السياسي لا علاقة له بالإجرام وإنما بالرأي المخالف لرأي مَنْ قاموا بالانقلاب. تعبتُ من نظرة هؤلاء التلاميذ والتلميذات في المدرسة، إلّا أنّ صلابة أمي هي التي ساعدتْني على تخطّي هذه المحنة في تلك السن المبكرة من طفولتي.

في أحد الأيام، قُرِعَ الجرس... فتحتْ أمي الباب، وإذ بي أسمعها تقول مستنكِرة: "جايب عسكر معك كمان؟!"

دخل العم جبران مجدلاني ومعه رجل يرتدي البِزّة العسكرية، فقدَّرتُ أنّ هذا الرجل من العسكريين الذين تسبّبوا بسَجن أبي... مدَّ يده لمصافحتي وملاطفتي، إلا أني رفضتُ أن أمدّ له يدي وخرجتُ من غرفة الجلوس وصفقتُ الباب خلفي بقوّة تعبيراً عن غضبي منه وعدم ترحيبي به! بعد فترة، عرفتُ أن هذا العسكري لم يكنْ إلا اللواء حافظ الأسد!

في يومٍ من أيام تلك الفترة من العام ١٩٦٦، تحضّرتُ للذهاب إلى المدرسة بالباص (أوتوكار المدرسة) بصحبة أخي...فتحنا باب البيت لنخرج، وإذا بشخص غريب يقف في الخارج ويرافقنا إلى الباص... ولدى عودتنا من المدرسة، رافقَنا في نزولنا من الباص إلى باب البيت!!! استغربتُ وجوده وسألتُ أمي عنه، فقالتْ لي إنه حارس وضعَهُ الانقلابيون على باب بيتنا ليمنع عنا الزيارات ويراقبنا طوال الوقت... كنّا، كما يقال، قيد الإقامة الجبرية! لكننا لم نُحرَم من الذهاب إلى المدرسة، "فالعلم نور" حتى عند الانقلابيين! "اللّه يكثّر خيرهم"...

بالفعل، لم يعدْ بإمكان أيّ شخص زيارتنا في البيت! لكنّ خالتي منيرفا استطاعت الدخول إلينا، و"فكّ الحصار عنّا" حين غضبتْ من هذا الشخص، الحارس الرقيب، وصرختْ في وجهه قائلة: "لن تقدر على منعي من زيارة أختي"! فما كان منه إلا أن رضخ لإلحاحها اتقاءً لغضبها وسمح لها بالدخول إلى بيتنا!

أما صديقة أمي، ماري روز، فقد دخلتْ إلى البناء وتظاهرتْ بالذهاب لزيارة جيراننا في الطابق الرابع؛ لحقَ بها الحارس، وحين اطمأنّ إلى دخولها بيت الجيران، عاد أدراجه ليظلّ في مدخل البناء، فنزلتْ هي من الطابق الرابع ودخلتْ على مَهَلٍ إلى بيتنا في الطابق الثاني من أجل الاطمئنان علينا جميعاً.

يبدو أنهم لم يستطيعوا القبض على أبي لأنه كان متوارياً عن الأنظار دون أن نعرف مكانه... لكن بعد فترة، علمتْ أمي بمكانه، ولم تصرّح به لنا إلا بعد عودة أبي من منفاه في بيروت في ربيع العام ١٩٦٩. كان أبي متوارياً في بيت العم غابي يوسف، شقيق مهران يوسف المذيع التلفزيوني الشهير، ومعه طارق عزيز...

لا أذكر أني رأيتُ أبي طيلة تلك الفترة، إلى أن تمّ القبض عليه لاحقاً في التاسع من آذار / مارس من العام ١٩٦٦. بعد القبض على أبي، تمّ إيداعه في سجن الاستراحة مع رفاقه البعثيين من القيادة القومية... أذكر منهم: علي غنّام من المملكة العربية السعودية ومسعود الشابي من تونس وجبران مجدلاني من لبنان وكمال ناصر من فلسطين وصلاح البيطار وغيره من سورية...

فهمتُ حينها الهدف من ملازمة ذاك الحارس لنا ليل نهار... كان هدفه القبض على أبي فيما لو أراد المجيء لرؤيتنا. لكنّ أبي قد أتى فعلاً

إلى البيت وزارنا ليلاً في تلك الفترة، متنكِّراً بزيّ فلاح وقد عصب إحدى عينيه وحمل سلَة وأخذ يمشي وهو يعرج وبيده الثانية عصا... لم يستطع ذاك الحارس "الخارق الذكاء" اكتشافه!

أذكر ليلتها، ولستُ متأكدة تماماً من هذه الذكرى، أني صحوتُ من نومي وسمعتُ صوت أبي في البيت، إلا أنّ أمي أكّدتْ لي بأني أحلم، كي أعود إلى النوم ثانية... حين كبرتُ، علمتُ أنه لم يكن حلماً، لكنهما خشيا من أن أثرثر لأحد أصدقائي بما حدث ليلاً!

وعلى ذكر العم غابي يوسف، وهو من أصول أرمنية من السويدية في لواء اسكندرونة، من آل خايويان، أحب هنا أن أقول إنه كان يحبنا أنا وأخي حباً عظيماً؛ في حياته الخاصة، رفض الزواج تماماً، لكني ما زلتُ أذكر أن أمي حدثتني عن قصة حب لم يفصح عنها لأحد!

ماري روز وأمي وأنا

كان العم غابي، حين نزوره في بيته، مع أمه وأخيه، يأخذنا في مشاوير جميلة ليشتري بعض الحاجيات للسهرة، فهو صاحب مزاج عالٍ دوماً! وحين نريد اجتياز الشارع، يمسك بيدي الصغيرة، وكنتُ حينها في سن العاشرة أي في العام ١٩٧٠، كما يمسك بيد أخي، ويقول لنا: "لا تجتازا

الشارع حتى تسمعاني أنهي العدّ إلى ثلاثة... ثم يقول: واحد، اثنان، ثلاثة... يلّا"... ونركض ثلاثتنا، نحن الطفلين وهو الطفل الثالث معنا... رحمك اللّه يا عمي غابي، فأجواء المرح كانت دوماً تشعّ في بيته، ولا أدري إلى اليوم سبب مكامن الحزن العميق في عينيه!

كانت أمي الأولى بين إخوتها وأخواتها في إتمام دراستها العليا في الجامعة، فحصلتْ على إجازة في الفلسفة وعلم النَّفْس من جامعة دمشق، وقدّمتْ رسالة تخرّجها في موضوع علم الجَمال، بإشراف الأستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي، الذي ظلّ ينوّه برسالتها مرجعاً للطلاب الجامعيين لعشر سنوات بعد تخرّجها؛ ثم حازتْ على شهادة دبلوم دراسات عليا في التربية وعلم النَّفس، مركِّزةً على علم نفس الطفل.

أمي في الجامعة، الرابعة من اليمين وقوفاً

تمّ تعيينها مدرّسة في دار المعلّمات في دمشق في العام ١٩٥٢ على ما أعتقد.

قبل أن يتمّ تعيينها، بقيتُ حوالى السنة دون عمل بحجة عدم وجود شاغر! لكنّها حين دخلتُ إلى دار المعلّمات وبدأت بالعمل، اكتشفتُ أنّ زميلاتها كنَّ يتقاسَمْنَ الساعات بينهنَّ، وتُحسَب لهنّ ساعات إضافية مع أنها تكفي لإكمال نصاب أستاذة جديدة، وذلك، كي لا تدخل مدرّسة "غريبة" إلى الدار!

فوجئتْ أمي بمثل هذا التصرّف ولامتْ زميلاتها عليه لأنهنّ بهذه الطريقة كنّ يحرمْنَ زميلة أو زميلاً آخر من فرصة العمل تلك. من أجل هذا، رفضتْ طيلة حياتها العملية تدريس أي ساعة إضافية، بهدف أن تساهم في تأمين الساعات اللازمة لاستكمال النصاب التدريسي لزميلة أو زميل محتاج إلى العمل. كان هذا التصرّف بالنسبة لها تصرّفاً مبدئياً لم تَحِدْ عنه مطلقاً، حتى في أحلك الظروف المادية التي عشناها!

أمي وهي تستلم شهادتها من الدكتور قسطنطين زريق رئيس جامعة دمشق ١٩٥٠

أما في الصف، فنهجها ديمقراطي مع طالباتها، إذ إنها كانت تنصت إلى آرائهنّ ومشاكلهنّ وتحاول أن تكون بمثابة الناصح المفيد لهنّ.

ثم إنها في نقد دروسهنّ، كانت تبدأ دوماً بالملاحظات الإيجابية وتؤكد عليها من أجل تشجيع الطالبات على العطاء بشكل أفضل، كما تؤكد لهنّ على ضرورة التحضير الجيد و استخدام وسائل الإيضاح بشكل مفيد ومنهجي وتقديم الدرس بلغة فصيحة بسيطة وسهلة والابتعاد عن اللهجة المحليّة حتى تكون دروسهنّ مفهومة وواضحة المنهج من ألفها إلى يائها. ثم تنتقل لانتقاد الأمور السلبية في الدرس الذي تقدمه إحدى طالباتها؛ وقبل ذلك، تسأل طالباتها عن ملاحظاتهنّ المتعلّقة بدرس زميلتهنّ...

هكذا، كانت تشجعهنّ وتقوّي لديهنّ دقة الملاحظة والنقد البنّاء. أخيراً، تعطيهنّ الخلاصة المفيدة لكلّ ما تقدّم من ملاحظات.

كانت تتفهّم أوضاع الطالبات في القسم الداخلي وتراعي كونهنّ بعيدات عن أهاليهنّ، فتدعوهنّ أحياناً إلى البيت للاطمئنان على أوضاعهنّ وجعلهنّ يشعرنَ بدفء العلاقات الإنسانية البعيدة عن أي مصلحة شخصية. حين عوقبَت إحدى طالباتها المتميّزات بحرمانها من الرحلات التعليمية في أنحاء القطر، طالبت أمي بأن تكون الرحلات في ذلك الشهر داخل دمشق حتى تتمكّن هذه الطالبة النجيبة من المشاركة والاستفادة منها.

أما طالبات القسم الخارجي، فأغلبهنّ من ريف دمشق... أحياناً، وفي فصل الشتاء، كنّ يصلنَ متأخرات بسبب سوء الأحوال الجوية وعدم توفّر المواصلات. لم يكن يُسمَح لهؤلاء بالالتحاق بالصف بسبب التأخير، إلا أن أمي كانت تخالف هذا القانون على مسؤوليتها الشخصية وتُدخلهنّ إلى صفها حرصاً منها على ألا يخسرنَ الفائدة العلمية من الدرس. اعتادتْ، حين تسترجع ذكريات تلك المرحلة، أن تعلّق قائلة لي: "كيف يمكن لقلبي أن يطاوعني أن أتركهنّ في الخارج وقد قطعنَ عشرات الكيلومترات لحضور

الدروس في هذه الظروف المناخية السيئة، وتشهد على ذلك أحذيتهنّ المليئة بالطين؟!"

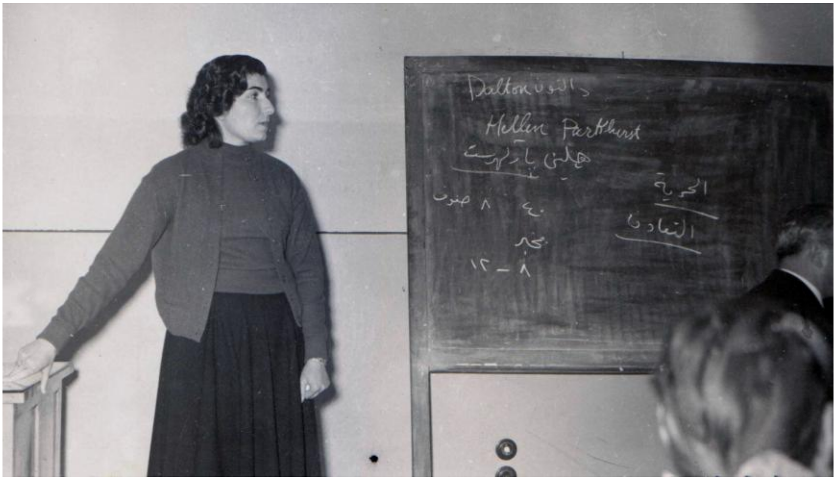

صورتا أمي وهي تعطي درسها بحضور الأمير فهد بن عبد العزيز

نتيجة لتفوّقها في إعطاء دروسها، كان المفتش المسؤول يختار صفّها ليحضر درسها أي ضيف يأتي في زيارة رسمية لسورية، ولحضور بعض

الفعاليات في وزارة التربية، أو ما كان يسمّى بوزارة المعارف في الخمسينيات من القرن العشرين.

في عيد المعلّم، كانت طالباتها يرغبْنَ في تقديم هدية رمزية لها تعبيراً منهنّ عن تقديرهنّ لعطائها، غير أنها ترفض ذلك بشكل حازم، مؤكِّدةً لهنّ أن هذا واجبها الذي تؤدّيه، ولا شكر على واجب يقوم به المواطن لصالح أبناء وطنه... من أجل ذلك، لم تقبل أي هدية، ما حدا بالطالبات أن يفهمنَ طبعها ويتوقّفنَ عن مثل هذه المحاولات. مع ذلك، كانت الطالبات أحياناً يقدّمنَ لها بعض زهرات الياسمين المتهاطل في طرقات دمشق وجنائن بيوتها؛ تفرح أمي بالياسمين الذي تعشقه وتشكرهنّ على لطفهنّ، فتأتي إلى البيت وعطر الياسمين فوّاح منها.

بعد تقاعدها، كانتْ تفخر بطالباتها اللواتي أصبحنَ شهيرات على مستوى الوطن حين يظهر اسم إحداهنّ في الإعلام مثلاً: واحدة منهنّ أضحت مخرجة تلفزيونية معروفة وهي السيدة هند ميداني؛ وطالبة أخرى أصبحت كاتبة معروفة أيضاً، تكتب للأطفال قصصاً وبرامج تلفزيونية جميلة ومفيدة، وهي السيدة جمانة النعمان؛ وطالبة ثالثة نالت درجة الدكتوراه في الأدب الفرنسي وأصبحت أستاذة في جامعة دمشق وهي الدكتورة ماري شمعون؛ وأخرى أضحتْ فنانة تشكيلية مشهورة برسوماتها الجميلة للأطفال وهي الفنانة لجينة الأصيل على ما أعتقد...

في خضمّ أحداث انقلاب ٢٣ شباط / فبراير ١٩٦٦ ، قام بعض الموتورين في الوزارة بحرمان أمي من ممارسة مهنتها التي تحبها من أجل خنقنا مادياً ومعنوياً، إذ إن النظام السياسي آنذاك قد حرم أبي من راتبه التقاعدي وأراد في الوقت نفسه حرمان أمي من لقمة العيش الشريفة، علماً أنها كانت المعيل الوحيد للأسرة، ولا ملجأ لها في العائلتين لأن القطيعة التي

فرضها أبوها قد ألزمت كلّ أفراد العائلة تقريباً، إلا مَنْ حكّم عقله وإنسانيته، وهم قلائل!

هكذا أصبحنا بلا دخل! لكنّ أمي لا تركع ولا تستسلم... استغلّتْ إتقانها للغة الفرنسية وحاجة الوزارة لمدرّسي هذه اللغة، وقامتْ بتقديم طلب لتدريس الفرنسية في المدارس الإعدادية. صحيح أن مستوى اللغة كان متدنياً وإعطاء مثل تلك الدروس كان مملّاً، إلّا أنها لم تستسلم ولم تستكنْ وقبلتْ بالأمر الواقع لتعيل أسرتها وحيدةً دون معين سوى قوة إيمانها بقضيتها وبحبها لزوجها وولديها. هكذا، لم نشعر في البيت أن ثمة شيئاً قد تغيّر على المستوى المادي، لأنّ تربية أمي لنا الزاهدة بالكماليات، وتوصيتها بعدم التبذير قد رسخَتْ فينا منذ نعومة أظفارنا.

استمرّت حياتنا بتنظيم دقيق في كلّ تفاصيلها وباقتصاد مدروس: كانت أمي تقسّم راتبها إلى احتياجات البيت واحتياجاتنا الهامة وأولها المدرسية ولوازم البيت من مأكل ومشرب وفواتير المعيشة اليومية إضافة إلى الإيجار، وتنسى نفسها وحاجاتها تماماً، حتى إنها لم تشترِ ملابس جديدة واكتفتْ لسنوات عدّة بحذاء واحد فقط!

مضت الأيام ومرّت السنون ونحن نفتقد لوجود أبي بيننا، فهو قابع في سجنه السياسي لأكثر من سنة، ثم في منفاه القسري لأكثر من سنتين، وفي تلك الأثناء كان اعتمادنا على مجهود أمي في التدريس وعليه فقط دون غيره، إلى أن أُقرِّ لأبي راتبه التقاعدي البسيط!

بعدما كبرتُ، روتْ لي معاناتها في مرحلة سجن أبي والمنفى: فمن تهديدها بخطفنا، نحن ولديها، إلى معاناتها في الحصول على إذنٍ لزيارة أبي في السجن، ومن ثمّ معاناتها على الحدود السورية حين كان يُسمَح لها بزيارته.

في إحدى المرات، ذهبتْ وحيدة إلى بيروت، وتركتْ جدتي، أمها، لترعانا في البيت، بعد أن سمح لها جدي بذلك "إنسانياً"!!!

على الحدود السورية، تمّ تفتيش حقيبتها تفتيشاً دقيقاً، رغم أنها قالت للعسكري المسؤول عن هذه المهمة إنها لا تحمل سوى حاجاتها الشخصية فقط. لم يصدقها، لأن الهدف الأول والأخير بالنسبة له ولرؤسائه كان إزعاج أمي بكل الطرق الممكنة. فتّش الحقيبة، فلم يجد أي شيء مريب فيها؛ أغلقها، فأطبقت على إصبعه، فجُرِح... تألم قائلاً لأمي: "أأعجبك هذا؟ حقيبتك جرحتني" فأجابته: "لو لم تكن تستحقها لما حدث لك ما حدث... لماذا لم تصدقني؟!"

في مرة ثانية، لم يسمح لها مسؤولو الحدود السورية بالذهاب إلى لبنان رغم حصولها على إذن بالتوجّه إلى هناك. أرادت العودة أدراجها إلى دمشق، فلم يسمحوا لها أيضاً بذلك! لقد طبّق هؤلاء المَثَل الشامي القائل: "صحيح لا تقسموا، ومقسوم لا تأكلوا، وكلوا حتى تشبعوا!"

عَلقتْ أمي يومها على الحدود السورية لساعات طوال، دون أن يُسمَح لها بالجِلوس في مكتب ما أو مكان ما ... بقيت هكذا في العراء لا تدري بأي منطق يتصرّف هؤلاء "الأشاوس"!

كانت تلك تصرفات صبيانية وساديّة لمجموعة حاقدة من السلطة السياسية في دمشق، تابعة لمدير المخابرات العامة، سيء الذكر، آنذاك!

غير أن أحد الضباط الشرفاء، لم يعجبه ما جرى، فاتصل خلسة بشخصية معروفة في دمشق، راوياً ما يحدث مع أمي على الحدود. سعتْ تلك الشخصية سعياً حثيثاً إلى أن تمّ تأمين عودة ميمونة لأمي إلى دمشق بعد ساعات طويلة ومعاناة رهيبة هناك!

في أحد الأيام التي مرّت على أبي في سجن القابون، شعر بإمكانية تدبير مؤامرة ضده وضد رفاقه السجناء السياسيين، فأراد أن يتخذ

الاحتياطات اللازمة لدرء هذا الخطر الداهم وحماية نفسه ورفاقه. طلب من أمي، "بالشيفرة"، أن تهرّب له إلى السجن مسدسَيْن موجودَيْن في البيت. وفي زيارتَيْن متتاليتين إلى السجن، استطاعت تنفيذ الطلب... كيف؟! بدسّهما داخل أوراق امتحانات طالباتها الملفوفة أسطوانياً، ضمن حقيبة كبيرة، ما زالتْ موجودة حتى اليوم وما زلتُ أستخدمها... فهذه الحقيبة هي الشاهد على جرأة أمي وشجاعتها وتفانيها في تلبية رغبات أبي في الملمّات وإيمانها المطلق وثقتها التامة بقراراته التي يتخذها... لقد كانت له في السرّاء والضرّاء نِعمَ الرفيقة والزوجة!

في حادثة أخرى، وبعد خروج أبي من السجن في ٩ حزيران، "والفضل في ذلك يعود إلى هزيمتنا أو نكستنا"، كما وُصِفَت آنذاك، في حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، جاء العم مظهر العنبري ونبّه أبي إلى أن ثمة معلومات استشفّها تفيد بأنّ مدير المخابرات العامة يحضّر له مكيدة من العيار الثقيل من أجل تلفيق اتهام بحقه، مدّعياً افتراءً، حياكة أبي لمؤامرة ضد الحُكم آنذاك، من أجل إعادته إلى السجن من جديد ومحاولة التخلّص منه نهائياً هناك!

أراد أبي التأكد من ذلك، فذهب مع أمي إلى محيط منطقة الشرطة العسكرية وانتظر بعيداً، طالباً إليها الدخول إلى هناك لمقابلة أحد أصدقائه من الضباط الكبار ليؤكّد أو ينفي هذا الخبر. دخلتْ إلى المنطقة العسكرية تلك، لكنها لم تجد ذاك الضابط، بل لاحظت استنفاراً عاماً، وعساكر مكبّلين... سألت أحد عناصر الشرطة عن سبب تكبيلهم، فأجابها "إنهم خونة"! خرجت بسرعة وأخبرت أبي عن كلّ مشاهداتها... استشعر الخطر، فأرسل إلى صديق آخر يستطلعه الأمر؛ فجاء جوابه: "العين محمَرّة عليك يا أستاذ منصور، والأفضل لك الخروج من سورية".

كانت نصيحة صادقة، فقرّر أبي حينها الخروج إلى المنفى في بيروت!

في السجن، كان مسموحاً للسجناء السياسيين الاتصال هاتفياً بعائلاتهم، وهو اتصال مراقَبٌ بالطبع. كل يوم اثنين، كنّا نتلقّى هذا الاتصال من أبي، فيتحدّث مع أمي "بالشيفرة" فتفهم عليه مباشرة وتلبّي له كل طلباته، دونما حاجة لأي شرح زائد... حتى إن رفيقه العم نذير دُهِش متسائلاً: "كيف تفهم عليك أم ثائر وتقوم بحلّ كل تلك الألغاز التي ذكرتها على الهاتف؟"؛ أجابه أبي: "تفهم بالومى"! فعقّب قائلاً: "إيه سيدي، نيّالك[4]! نحن نحكي بالمشرمحي[5] وما حدا يفهم علينا"!

في خضمّ تلك الظروف الصعبة، مادياً ومعنوياً، لم تنسَ أمي واجبها تجاه أمها؛ فقد كانت تخصص لها ما يعادل ربع راتبها الشهري... وحين كانت تعيش في بيت أهلها، قبل الزواج، كانت تقسّم راتبها إلى ثلاثة أثلاث: ثلث للبيت وثلث لأمها وثلث لها. رغم كل ما مرّ بنا من أوضاع صعبة، إلا أنها ظلّت تقدّم لأمها شهرياً ربع راتبها بعد زواجها، على مدى حياة جدتي، حتى تشعر باستقلالها المادي الذي أرادته لها أمي كما أرادته لنفسها ولي في ما بعد؛ إذ ربّتني على أن العمل المنتِج أساس في الحياة، ولا معنى لها دونه.

لذلك، بدأتُ أعمل وأنا في سن الثامنة عشرة وما زلتُ إلى اليوم. كما أنها لم تفرّق، كما سبق وذكرتُ، بيني وبين أخي في المعاملة، لا مادياً ولا معنوياً، باعتبارنا ولديها، ولا فرق عندها بين ذكر وأنثى... لقد آمَنَتْ بكل هذا إيماناً عميقاً وطبّقتْه في حياتها وبعد رحيلها!

حين بلغتْ سن الستين، حصلتْ أمي على تقاعدها، بعد عمل دام ثمانية وعشرين عاماً... لم تمدِّد سنة واحدة، كي تعطي فرصة للجيل

---

[4] حظك حلو.

[5] بالتفصيل المملّ وبوضوح تام.

الجديد في العمل؛ كما أنها فرحتِ كثيراً بهذه المرحلة لأنها سوف تتفرّغ للقراءة ولقاء صديقاتها. فلم أرَها يوماً، لدى عودتي من العمل، إلا وهي تقرأ.

أنا وكوليت أم رامة في مدينة ليون التي احتضنت حبها لمحمود ٢٠٠٣

كنتُ أشتري الكتب الجديدة لتغذية روحي، فكانت تبدأ مباشرة بقراءتها. كثيراً ما كنّا نجلس سوياً ونقرأ بصمت، فيدخل أبي علينا، عائداً من بعض شؤونه خارج البيت، فيجد البيت مرتّباً والطعام جاهزاً بانتظاره، ونحن على هذه الحال، فيقول مداعباً: "يا لها من عائلة مثقفة"!

كانت أمي تعجَب بطريقة قراءتي ومثابرتي وتثني عليها، إذ تعلّمتُ من كوليت، والدة صديقتي رامة، تلخيص ما أقرأه أو ما أشاهده من أفلام ومسرحيات ونقده في دفتر خاص بي، ما يُعَدّ تمريناً جيداً للذاكرة.

بقيتِ أمي متقاعدة خلال حوالى واحد وثلاثين سنة، قضتْها، كالمعتاد، بالاهتمام بنا وبأهلهَا في السرّاء والضرّاء، وفي خدمتهم حين مرضوا،

وكذلك فعلتِ مع أخي حين تعرّض مرتين لحادث سير: أولهما في العام ١٩٧٥ وثانيهما في العام ١٩٩١ .

في المرة الأولى، تجنّد البيت كله من أجل خدمة أخي: فلازمه أبي في المشفى، ولازمناه أنا وأمي في البيت... إلى أن تقرّر ذهابه إلى باريس من أجل استكمال علاجه. كانت تلك من أصعب الأوقات على أمي خاصة، وعلينا جميعاً بشكل عام. أذكر حينها، ونتيجة لهذا الوضع القلق في البيت، أني تراجعتُ في دراستي، وكنتُ في الصف العاشر، ولم أعد بين الأوائل، كما العادة، في صفي؛ وقد استغرب الجميع ذلك!

في المرة الثانية، في العام ١٩٩١ ، شعرت أمي بذعر لا يوصف على أخي نتيجة حادث السير الثاني الذي تعرّض له، ما حدا بي إلى منعها من زيارته في المشفى رأفة بها : لقد كان مُربّطاً بالشاش الأبيض "من ساسه إلى راسه" كما يقال!

في هاتين المرتين، لم تكن أمي راغبة في ذهابه في تلك الطريق التي سلكها ... كان حدسها قد نبّهها إلى أن الخطر محدق به.

مرةً، وفي العشرينات من عمري، كنتُ عائدة إلى البيت خريفاً، سيراً على الأقدام في السابعة مساء؛ دخلتُ إلى حارتنا مسرعة، ففوجئتُ "بمهووس"، وما أكثرهم في شوارعنا، يركب دراجة هوائية ويحاول التحرّش بي. لم أعرف ماذا أفعل... دخلتُ بسرعة إلى البناء الذي تسكن فيه صديقتي ريما وأهلها في منتصف حارتي، وصعدتُ إليها، فاستقبلتني بترحاب، وأعلمتُها عن سبب مجيئي دون خبر مسبق. بقيتُ عندها حوالى نصف ساعة، إلى أن تأكّدتُ من خروج ذاك المهووس من حارتنا . نزلتُ من عندها متّجهة نحو البيت... دخلتُ فوجدتُ أمي في غاية القلق، رغم أن موعد عودتي هو في الساعة الثامنة، وأنا رجعتُ قبل الموعد بنصف ساعة.

فسألتُها عن سبب قلقها، وأنا لم أتأخر مطلقاً؛ فأجابتني: "كنتُ في غاية الخوف عليك يا ابنتي، فمنذ نصف ساعة، أي في السابعة مساء، سمعتُ صوتك يناديني مستغيثاً"!

غريب هذا الحَدْس، ففي ذاك التوقيت كنتُ أشعر فعلاً بضيق شديد، غير أني لم أستغثْ بل تصرّفتُ بحكمة على ما أعتقد... رويتُ لها حينها تفاصيل ما جرى معي!

كانت أمي مشهورة بحَدْسها بين زملائها في الجامعة، إذ تتوقّع ما هو هام في المنهاج ويمكن أن يُطرَح أسئلة في الامتحان... وفعلاً، كانت معظم توقّعاتها تتحقق في الامتحانات الجامعية. لذلك، قبل الامتحان كان زملاؤها يتحلّقون حولها من أجل معرفة توقّعاتها الصائبة تلك.

ظلّتْ هذه المَلَكة ترافقها في كلّ مراحل حياتها: فهي لم تتوقّع أمراً في علاقاتنا الإنسانية وفي حياتنا، نحن عائلتها جميعاً، إلّا وحدث كما قالتْه تماماً، حتى بعد مُضيّ سنوات طوال! لقد كانتْ على حقّ في كلّ التفاصيل والتحليلات المنطقية التي أوردتْها في ما يخصّ علاقات أبي الإنسانية والاقتصادية والحزبية والسياسية، خاصة أنها توقّعتْ مواقف الغدر التي أُصيب بها! لكنه، وفي كثير من الأحيان، لم يُصغِ لتوقّعاتها... إلا أنه في ما بعد كان يقول لها: "يا هند، كنتِ على حق"!

كان لها رأيها الخاص بثورة الثامن من آذار ١٩٦٣ ، إذ إنها نبّهتْ أبي إلى أن دخول العسكر في السياسة مسألة خطيرة؛ فالأفضل للبلاد أن يكبر حزب البعث وينمو ديمقراطياً ضمن المجلس النيابي لا أن يأتي إلى السلطة بانقلاب عسكري! ومن المعلوم أنه كان قد حصل على سبعة عشر مقعداً في البرلمان في انتخابات العام ١٩٥٤ .

هذا الكلام ينسحب أيضاً على حياتنا، نحن ولدَيْها، فالحياة أثبتت أنها كانتْ على حق في كلّ ما توقّعتْه لنا في خياراتنا الحرّة التي قمنا بها: إذ إنها كانت تُبدي لنا رأيها فقط ولا تفرضه على أحد منّا؛ وأنا أؤكّد هنا، للحقيقة فقط، أنها كانت محقّة في آرائها وأنّ ما اخترناه ولم تكنْ متفقة فيه معنا بالرأي، وجدنا فيه صعوبات جمّة وعقبات تصل أحياناً إلى درجة الاستحالة في الحلّ! فطوبى لها من زوجة وأمّ صادقة ومحبّة "في كل قول وفعل وفكر" قدّمتْه لنا بسخاء ودون انتظارٍ لأيّ مقابل!

من نوادر أمي حين تقدمنا إلى امتحانات الشهادات العامة في العام ١٩٧٥: أنا إلى امتحان الشهادة الإعدادية، البروفيه، وأخي إلى امتحان الشهادة الثانوية، البكالوريا العلمية،... كنا نذهب يومياً: طلاب البكالوريا في السابعة صباحاً وطلاب التاسع أو البروفيه في الحادية عشرة؛ كانت تنتظرنا على الشرفة، وقبل وصولنا كانت ترى من النافذة الطلاب عائدين إلى بيوتهم من الامتحانات، فتسألهم بحرارة عن كيفية تقديمهم لها وعن مدى صعوبة الأسئلة أو سهولتها، كي تطمئن من خلال إجاباتهم علينا؛ حتى إنها كانت تسألهم عن الأبحاث التي أتت منها الأسئلة!

بقيت أمي تهتم بدراستنا وبما ننجزه واستمرّت في مساعدتنا: ثائر في الهندسة، إذ إنها ساعدتْه في ترجمة بحث باللغة الفرنسية أفاده في مشروعه للتخرّج من كليّة الهندسة المدنية؛ وأنا ظللتُ أستشيرها في كلّ تفاصيل حياتي ودقائق أموري، العلمية والثقافية والشخصية، إلى أن رحلتْ...

فقدتُ برحيلها الحوارَ البنّاء ونبع الإرشاد الذي لا ينضب بحلوله الخلّاقة لكل الأمور... فهي نعمَ الأم والصديقة. كانت علاقتي بها علاقة "انصهار" فكري ونفسي، كما وصفتْها رامة صديقتي؛ وكنتُ "بيت أسرارها"

كما وصفني أخي... وهذا صحيح؛ إلّا أني لا زلتُ أحتفظ بهذه الأسرار ولن أبوح بها في يوم من الأيام!

في سنتي الجامعية الرابعة، دعوتُها لحضور محاضرة ألقيتُها بالفرنسية في درس تاريخ الفن، عن الفنان الهولندي الذي أعشقه، فان كوخ، في حصة الراهبة الأخت نيكول، أستاذتنا الفرنسية في مادة تاريخ الفن. حضّرتُ المحاضرة بشكل جيد، واستعرتُ من مكتبة قسم الأدب الفرنسي شرائح ضوئية للوحاته وعرضتُها في المحاضرة. كانت المحاضرة ناجحة جداً برأي أستاذتي الأخت نيكول وزملائي الطلاب وبرأي أمي أيضاً. أذكر أنها قالت لي وقتها: "لقد استوفيتِ في هذه المحاضرة كل الشروط التربوية الضرورية لإعطاء أي مادة للطلاب، رغم أنكِ يا ابنتي لم تدرسي كيفية إعطاء الدروس تربوياً، وهذه موهبة على ما يبدو. أتنبّأ لكِ يا ابنتي بأن تكوني أستاذة ناجحة". فرحتُ جداً بهذه الملاحظة التي قدمتْها لي...

فعلاً، امتهنتُ التدريس، وكنتُ خلال ثلاثين سنة من التدريس، ناجحة برأي طلابي؛ فأنا أستمزج آراءهم في دروسي من خلال استبانة مُغْفَلَة الاسم، أطرحها عليهم فصلياً من أجل تقييم عملي!

في صيف عامي الجامعي الثالث، حصلتُ على منحة دراسية فرنسية في جامعة السوربون في باريس لمدة شهر ونصف، كوني الأولى على دفعتي. لم تكتفِ أمي بذلك، بل أعطتني هدية مادية لأقضي شهراً آخر في فرنسا بعد الدراسة. أفدتُ من هذا الشهر - العطلة وزرتُ أماكن كثيرة في فرنسا منها شارتر وكاتدرائيتها الشهيرة، ومنطقة الجورا، حيث تسكن جدة رامة، صديقتي، في مدينة لونس لو سونييه. كان ذلك من أجمل ما قمتُ به في حياتي والفضل يعود إلى أمي التي أتاحت لي تلك الفرصة. كما أنها قدمت الهدية ذاتها لأخي ، فسافر إلى فرنسا وبلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ مع

صديقنا المشترك فايز. لقد قررت أمي هذه الهدية لأخي لأنه لم يذهب إلى فرنسا إلا للعلاج، وأرادت له رحلة ترفيهية هذه المرّة.

أمي معطاءة دوماً... حتى إنها بمناسبة زواج أخي قدمت له مبلغاً كبيراً من مالها الخاص مساعدة له على بدء حياته الجديدة بشكل مرتاح، كي لا تدعه يعاني كما عانتْ هي وأبي مادياً في بناء عش الزوجية.

في أثناء فترة تقاعدها، اتفقتْ مع صديقتها ماري على لقاء أسبوعي، كل يوم اثنين، في كافتيريا هادئة وسط البلد، من أجل تمضية أوقات صباحية لطيفة. كان لهما ما أرادتا لأكثر من عشرين عاماً، إلى أن رحلتْ صديقتها ماري في شهر تشرين الأول / أكتوبر من العام ٢٠٠٤، فرثتها أمي رثاء جميلاً وصادقاً.

حزنتْ أمي كثيراً على فراق صديقة عمرها، واشتاقت إليها ولم تستطع نسيانها ولا نسيان ذكرياتهما مطلقاً حتى آخر يوم في حياتها.

كان أبي يمازحها قائلاً: "كيف كان لقاء الاثنين؟" تلميحاً إلى "لقاء الأربعاء" الشهير للأديب طه حسين.

قلتُ سابقاً إن أمي لم تصطنع شيئاً ولم تتكلّفه، لذلك لم تستخدم الماكياج إلا قليلاً في حياتها، وتركتْه نهائياً بعد رحيل أبي في العام ٢٠٠٦. أما بعد تقاعدها، فقد قررت ترك الشيب يغزو شَعرها دون صباغته كما كانت تفعل من قبل. ولم تُقْدِم على مثل هذه الخطوة إلّا بعد استشارة أبي، الذي وافقها الرأي. قالت يومها: "عليّ الاعتراف بعمري وعدم الخجل من الشيب، فلماذا أستخدم الصِباغ ولماذا أتحمّل تلك العذابات عند الحلّاق؟"

كانت في أعماق ذاتها تؤمن بقول السيد المسيح "أغلق بابك وصلِّ لربك"... في أواخر سنيّ حياتها، فوجئتُ وأنا أراها تصلّي يومياً قبل النوم،

وترسم إشارة الصليب... وكذلك كانت تفعل صباحاً. لاحظتُ هذا الأمر لأني كنتُ ألازمها، في تلك الأوقات، لحظة بلحظة... فسألتُها: "منذ متى وأنت تصلّين يومياً؟" فأجابتني: "طوال حياتي"... لم أنتبه مطلقاً... تخيّلَوا... أنا ابنتها ولم أنتبه إلى ذلك إلا مؤخراً! ليس لأني لا أملك دقة الملاحظة، بل لأنها كانت تتعمّد الصلاة وحيدة دون تفاخر بمظاهر الإيمان... فإيمانها أعمق من ذلك بكثير!

كانت تحب حضور قداس الشهر المريمي في أيار / مايو من كل عام. وحين بدأ الضعف يدبّ في أوصالها، كنتُ أرافقها إلى الكنيسة، طوعاً ودون طلب منها؛ لأكون إلى جانبها فيما لو احتاجتْ إلى مساعدةٍ ما. خلال سنوات حياتها الأربع الأخيرة، لم تعدْ تخرج من البيت بسببِ التقدّم في العمر، فكنتُ أحاول البحث عن هذا القداس في المذياع لتستمع إليه من إذاعة دينية مسيحية، وكانت تُسَرّ من ذلك وتصلّي.

في شبابها، حين انتسبت إلى الجامعة، لم يعرف زملاؤها أنها مسيحية إلا في السنة الأخيرة، فاسمها عربي ولباسها محتشم مثل الغالبية العظمى من نساء بلدنا، وذلك عندما تدلّت، مصادفة، سلسلة ذهبية من رقبتها تحمل الصليب، رغم أنها كانت تحرص على ألا تظهر تلك السلسلة مطلقاً، ليس خشية من شيء، لكنّ الإيمان بمفهوم أمي هو أمر خاص جداً، وما من ضرورة للتفاخر أمام الناس بأي انتماء ديني؛ هكذا ربّتنا وهكذا علّمتنا...

لم تفرض علينا ممارسة أي طقس ديني، وكذلك فعل أبي... بيتنا عَلماني بامتياز وبصدق... نحترم كل الأديان... وأنا شخصياً، حاولتُ أن أثقّف ذاتي في كلّ الأديان السماوية والأديان التي كانت سائدة في منطقتنا قبل الميلاد.

ثمة ذكرى لا تفارق مخيّلتي... حين كان أبي في السجن، أخذتنا، أنا وأخي، معها لزيارة دير سيدة صيدنايا... لم تشأ تركنا وحدنا في البيت خوفاً علينا من تنفيذ ذاك التهديد بالخطف! دخلت إلى غرفة الصلاة الصغيرة، الشاغورة، وركعت لتصلّي، ففوجئت ببوابة الأيقونة مغلقة... أمسكت بها بقوة وحاولتِ فتحها. جاءت الأم الراهبة المسؤولة عن الدير وهدّأت من روعها، وفتحت لها تلك البوابة!

هدأت أمي وأتمّت صلاتها، ثم خرجت واعتذرت من الراهبة، التي بدورها قدّرت حالتها النفسية آنذاك، كونها تعرفها جيداً وتعرف ظروفها.

رحلت أمي صديقتي، وقد قضت في بيت أخي، ومع أسرته الصغيرة المؤلّفة من زوجته وولديه منصور وكريم، لحظات لطيفة، فاض فيها حبها علينا جميعاً...

كنتُ أطلب منها يومياً أن تصلّي لخلاص سورية، فتجيبني: "أنا أصلّي لكِ يا ريم وللبلد وللجميع، يومياً، بالتوفيق والخلاص". إذ إن شعارها في فيض المحبة كان: "المريض حتى يشفى والمسافر حتى يعود والصغير حتى يكبر ويشتدّ عوده"... وبلدنا الآن تشبه، برأيي، المريض والمسافر في آن واحد!

الأم هي الوطن كما يُقال... رحلتِ أمي، وطني، ووطننا ما زال جريحاً ينزف... فكيف لي بالسكينة؟!

آمل أن تعود بلدي من هذا السفر الجنوني وأن تشفى من ذاك المرض المدمِّر!

رحلتِ أمي وقد أوصتنا، أنا وأخي، أن ترقد إلى جانب توأم روحها، أبي، في رقادها الأخير...

كان لها ما أرادت، بعد أن أتممنا لها قداس وداعها الأخير...

رحمك الله يا أمي... رحمك الله يا أبي... سوف أبقى مَدينةً لكما ما حييت..

نحن الأربعة في بعلبك ١٩٦٨

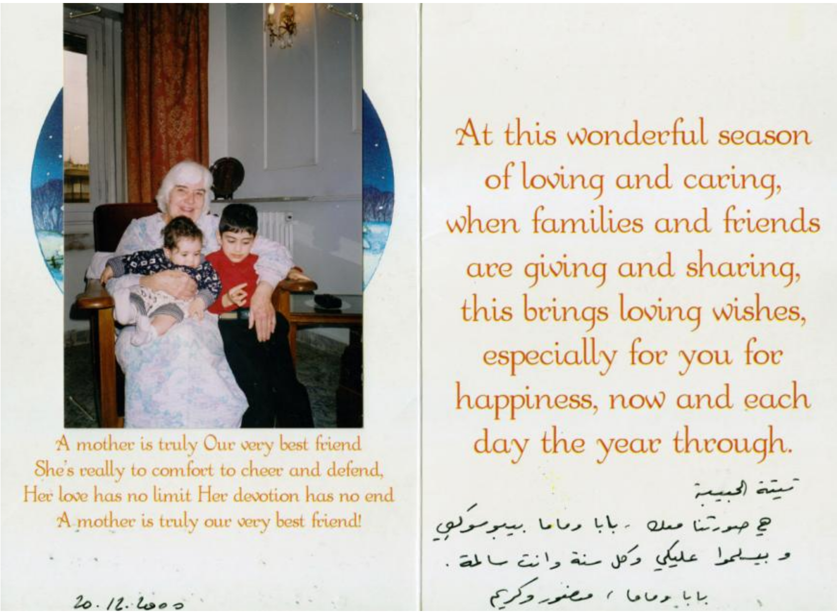

أمي مع حفيديها منصور وكريم، ٢٠٠٠

٤- أبي

رحل أبي في الساعة السادسة والربع من صباح يوم الثلاثاء الواقع في ١٤ تشرين الثاني / نوفمبر (شهر ولادة أمي)، من العام ٢٠٠٦ بعد ستة أشهر من المعاناة مع مرض لم نعرف له سبباً ولم يستطع الأطباء في دمشق ولندن وباريس وولاية ويسكانسن في الولايات المتحدة الأميركية تحديد ماهيته بشكل حاسم وجازم! حتى إن طبيبه المعالِج في المشفى في دمشق حين سأله أبي: "ألم تعرفوا يا حكيم ما هو مرضي؟"، قال: "لا". فاستطرد أبي متسائلاً:"أيُعقَل ذلك ونحن في القرن الواحد والعشرين، وأنتم لم تستطيعوا التوصّل إلى ماهية مرضي؟!". فأجابه الطبيب: "يا عم، أنت شخصية استثنائية وكذلك هو مرضك استثنائي!".

كانت صحته ممتازة قبل وقوعه فريسة هذا المرض اللغز... لم يكن يشكو من شيء... كانت بنيته قوية وكذلك عظامه... حتى إن أسنانه سليمة دون أي تدخّل من طبيب الأسنان... قال له أحد أطباء الأسنان: "لو أن كل الناس مثلك، لما استرزقنا في هذه الحياة"!

في أوائل شهر أيار / مايو من العام ٢٠٠٦ وقبل مرضه بأيام، وقف طائر الوقواق على نافذة غرفتي ونعق بقوة صباحاً باكراً... لأول مرّة منذ أربعة وثلاثين عاماً ينعق ويزعق على نافذتي بهذه الطريقة... تضايقتُ، وجاءني شعور أن أبي سوف يصاب بأذى ما... فضربتُ النافذة بعنف كي

يبتعد هذا الطائر الشؤم عني... وفعلاً، وقع أبي مريضاً بعد أقل من أسبوع من هذه الحادثة...

في المشفى، كنتُ أجلس إلى جانبه، يده في يدي طوال الوقت، وحين كنتُ أُضطرّ لتركها من أجل عمل ما عليّ أن أقوم به، كان يتمسّك بها ويمنعني من الابتعاد حتى أبرّر له أهمية ما أريد فعله، فيترك يدي، وأعود إليه فور انتهاء ذلك العمل!

طلب مني مرّة، وبإلحاح، الاستماع إلى أغنية فيروز (شام يا ذا السيف لم يغب، يا كلام المجد في الكتبِ / قبلكِ التاريخ في ظلمة، بعدكِ استولى على الشَهُبِ)...

غنّيتُ له الأغنية بصوتي، إلى أن استطعتُ الإرسال في طلبها من البيت مع المسجّلة، فأنصتَ إليها ثم استسلم لنوم عميق!

كنتُ دوماً، وهو في المشفى كما في البيت، في أثناء مرضه، أهتمّ بأموره الشخصية وحين أرتّب له شَعره، أغنّي له أغنية ريمي بندلي: (مشِّط شَعرك يا قمر، والمشط الحلو انكسر، وينك يا قمر؟ عم مشّط شَعري...). كما أني كنتُ أحييه يومياً بتحية من تأليفي، فأقول: (كيفك يا حلو الحلوين، يا قمر القمرين، يا قمر الدين!)، فكان يبتسم بحنان...

حين كنتُ أعطيه في البيت بيدي إبرتين يومياً، صباحَ مساء، كنتُ أسأله: "هل آلمتُكَ؟" فيجيبني دوماً:

"ناموسة هدّتْ على قرن جاموسة... فقالت لها، يلّا بخاطرك بدّي طير... فأجابتها الجاموسة بدهشة: ليش متى هدّيتِ؟" وذلك ليطمئنني بأنه لم يشعر بأدنى ألم، كما لم تشعر الجاموسة بالناموسة وهيَ تقف على قرنها...

عشية رحيله، تركتُه لينام وذهبتُ إلى المطبخ في بعض أعمالي... سمعته يناديني كما دوماً: "يا ريما"... ركضتُ من فوري، لكنني وجدتُه يغطّ

في نوم عميق... وقد أكّدت لي الممرضة المرافقة له أنه نائم ولم يتكلّم مطلقاً. حدّثتُ أمي بما سمعتُ، وفوجئتُ أنها هي أيضاً قد سمعت الشيء ذاته، ونحن متأكدتان من أنه لا يستطيع النداء بهذا الشكل بسبب وضعه الصحي... صباحاً ارتقى إلى الأعالي... فهل كان هذا النداء الذي سمعتُه هو الوداع الأخير؟! لستُ أدري...

خرج في وداعه في الملعب البلدي في السويداء أكثر من خمسين ألف شخص، في ١٧ تشرين الثاني / نوفمبر من العام ٢٠٠٦.

بعد رحيله، كتبتُ لأبي رسالة بعنوان (رسالة إليه) ونشرتُها في موقعي على شبكة الإنترنت، إضافة إلى (نثرات مما كتبه) تعطي القارئ لمحة عن أفكاره، وما كُتب أو قيل عنه أيضاً، ثم وضعتُ صوراً للكتب التي نشرتُها له بعد رحيله: (الجيل المُدان- في سبيل العراق): www.rimalattrache.com وإليكمُ الرسالة:

رسالة إليه

دمشق في ١٧ كانون الأول ٢٠٠٦

أبي الحبيب،

اشتقت إليك!

مضى شهر وبعض الوقت على غيابك ومازلتُ أشعر بأنك ستعود يوماً. وقد يمضي العمر وأنا لا أزال أشعر بأنك ستعود يوماً!

أحمد الله وأشكره أنني استطعت أن أكون قريبة منك، ألازمك في فترة "مرضك"؛ اقتربتُ إلى حدّ شعرت فيه بأنني عدت طفلة إلى جانبك، نلهو معاً لأعوّض ما فقدتُه حين لم تكن إلى جانبنا قسراً، أو طوعاً... حين كنتَ للوطن، وللناس، كل الناس، إلى جانبهم ومن أجلهم...

حتى في أشد أيام مرضك، وحين كنا نتابع معاً الحرب الصهيونية الغاشمة على لبنان الحبيب، لم تمسك دموعك وأكدت على ضرورة استمرار المقاومة مهما كلّف الأمر، متمنياً أن تشفى بسرعة كي تذهب لتنحني أمام قامة السيد حسن نصر الله رمز المقاومة العربية!

أتساءل الآن، هل كان نداؤك لي قبل تسع ساعات من رحيلك وداعاً؟ رغم أني، متأكدة بأنك لم تنادني، إلا أنني مازلت حتى اليوم أسمعه يرنّ في أذنيّ...

أعتزّ وأفخر بما قاله الناس عنك وفي رثائك... كانوا أوفياء وكانت كلماتهم صادقة ومعبّرة.

حين أتت البرقيات عبر "الفاكس"، وفي لحظة واحدة من المغرب العربي والبحرين، قلت لأمي: "هذا وطننا العربي يرثيه من المحيط إلى الخليج"!

والآن، حين أقرأ خطك على أوراقك التي تركتها أشعر بقلمك الصادق الذي عبّر، كما لسانك، عن إيمانك بعقيدتك التي وهبتَ لها حياتك ولم تتزحزح عنها ولم تبدّل تبديلاً. أحار في أوراقك، من أين أبدأ، ولكنني سأفي بوعدي لك، إن شاء الله، وسأكمل ما بدأناه سوياً!

أبي الحبيب،

افتقدناك جميعاً، أما أمي، رفيقة دربك، فما زالت دموعها لم تجف بعد، ولا أظنها ستفعل، إذ إنها فقدت توأم روحها الذي كان وما يزال رمزاً للنبل والصدق والمحبة.

لقد علّمتمانا معاً حب هذا الوطن الكبير والإيمان بالأمة العربية ورسالتها الخالدة، وكان بيتنا وما يزال يعيش شعار الثورة السورية الكبرى "الدين لله والوطن للجميع".

علمتمانا أن الله مقدس في السماء والوطن مقدس على الأرض! وكم أخشى على هذا الوطن بعد رحيلك!!

أبي،

ارقدْ بسلام حيث أنت...

أما نحن، فسنبقى على العهد أوفياء ولن نبدّل تبديلاً.

ودامت روحك ذخراً لنا.

ابنتك ريم

يوم تشييع أبي في الملعب البلدي في السويداء، خرج لوداعه أكثر من خمسين ألف محبّ ووفيّ يغطيه علم بلادي

وُلِدَ أبي في ٣ شباط / فبراير من العام ١٩٢٥، وكان الصبي الأول لجدّيَ سلطان الذي استطاع البقاء على قيد الحياة، بعد أن مات عدة صبية لم تتجاوز أعمارهم الأشهر القليلة أو بضع سنوات معدودات. عاش طفولته المبكرة في صحراء وادي السرحان، على الحدود السعودية الأردنية، التي انتقل إليها جدي وعائلته مع بعض الثوار وعائلاتهم بعد إخماد معارك الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ – ١٩٢٧)، واستمرار نهج المقاومة المتمثّل برفض إلقاء السلاح ورفض الخضوع لشروط المستعمِر الفرنسي، والحفاظ على روح النضال في سبيل استقلال سورية أو بلاد الشام!

عاش أبي في رحاب هذه الصحراء بين سن الثانية والسابعة من عمره. ثم انتقل جدي إلى الكرك في الأردن، فعاش أبي هناك بين سن السابعة والثانية عشرة، أي حتى العام ١٩٣٧ .

وإذ سقط عن جدي سلطان حكم الإعدام كما سقط عن الوطنيين الآخرين، عاد في ١٨ أيار / مايو ١٩٣٧ إلى الوطن، سورية، وإلى قريته القريّا في محافظة السويداء، جنوب سورية.

أثّرت هذه الطفولة الصحراوية في أخلاق أبي وتكوينه بشكل ملفت، فهو صلب كصلابة صخور الصحراء وواسع الصدر والأفق ومنفتح الفكر كما هو اتساع الصحاري وامتدادها... صبور على الملمّات، طويل البال، رؤوف بمَن حوله، عطوف على المظلوم، قاسٍ على الظالم... أعتقد أنه تمثّل بأخلاق أبيه، واشتدّ عوده في شظف العيش الذي عانت منه سنواتُ طفولته المبكرة. في سيرته الذاتية "الجيل المُدان"، تفاصيل رائعة كتبها عن حياته الغنيّة تلك، بشكل عام وعن حياته في صحراء وادي السرحان بشكل خاص.

في الأشهر الأخيرة من حياته، كنتُ مضطرّة لتقديم الماء له بغزارة كي يشربه خوفاً عليه من آثار الأدوية الكثيرة التي وُصِفَت له... وقبل أن أقدّم

له كأساً كبيرة من الماء، كنتُ أعتذر منه اعتذاراً شديداً لعلمي الأكيد أنه لا يحب شربه مطلقاً. قال لي معلّقاً في إحدى المرّات: "هل ثمة من شخص لا يحب الماء؟". أجبتُه: "نعم، أنت". فابتسم مؤكِّداً: "أنا أحبّ الماء، غير أني روّضتُ نفسي على القليل جداً منه كي لا أتعلّق به"! دُهشتُ لهذا الذي أسمعه للمرّة الأولى في حياتي؛ "ولماذا؟"، تساءلتُ، فأجابَ: "لأنني كنتُ أفترض دوماً أني معرَّض سياسياً للسجن؛ وحتى لا أسمح لأحد بأن يُجبرني على قول ما لا أبغيه ولا أودّ الإفصاح عنه مقابل نقطة من الماء، درّبتُ نفسي على الاستغناء عن هذا السائل الذي فيه الحياة، كلّ الحياة"! صمتُ ولم أنبِس ببنت شفة... اغرورقتْ عيناي بالدموع، بفخر لا يضاهيه إلا الإعجاب بهذا الأب الثمانيني الذي ما زال يروِّض روحه على أمور يعجز عنها الشباب! ازداد إعجابي به وتقديري له... صحيح أن "كل فتاة بأبيها معجَبة"، ولكنّ، ألا ترون معي أنه يستحق هذا الإعجاب، بصرف النظر عن حقيقة هذا المَثَل؟

تشكّل وعيي مبكراً نتيجةً لدخول أبي السجن السياسي وأنا في سنّ السادسة من عمري. ولقد تراكمت ذكرياتي عن هذه المرحلة وعن المنفى بتفصيل واضح.

أذكر في ما أذكر أن أبي دخل سجن "الاستراحة"، وهي فيلا في شارع القصور في دمشق، بين ساحَتَيّ العباسيين والقصور، في آذار / مارس ١٩٦٦. هذه الفيلا ما زالت موجودة إلى يومنا هذا، تحيط بها حديقة، كانت جميلة، واليوم أصبحتْ مهمَلة... في كلّ مرّة أمرّ بهذا الحي، لا بدّ لي من أن ألتفت لألقي نظرة باتجاهها، إذ إنها ضمّت جزءاً غالياً وقاسياً، في آنٍ واحد، من ذكريات طفولتي!

بدأنا بزيارة أبي في هذا السجن "المريح" الذي نمّ عن رغبة من القيادة القطرية لحزب البعث، أي الفريق "البعثي" العسكري الانقلابي، بمعاملة

رفاق الماضي القريب، أعضاء القيادة القومية، معاملة حسنة ومحترمة. كنتُ أشتاق للحظة لقاء أبي، فيضمّني إليه وكذلك يفعل مع أمي وأخي، لنجلس ونتحدث سوياً في مكان لطيف لا نشعر فيه بالعدائية؛ حتى الحرّاس كانوا لطفاء! كان من "نزلاء" هذه الفيلا البعثيون المدنيون العرب والسوريون... وهم: مسعود الشابي من تونس، علي غنّام من السعودية، الشاعر كمال ناصر من فلسطين، المحامي جبران مجدلاني من لبنان، والأستاذ صلاح البيطار وأبي وآخرون من سورية...

هكذا إذن، كان أمل الأمة في أن يتوحّد العرب لخيرها، وها هم يتّحدون في السجون السياسية نتيجة الانقلابات العسكرية! آه... مرحى... مرحى... "كلّنا في الهمّ شرقُ"!

أعود إلى ذكرياتي في سجن الاستراحة... كان سجناً أستطيع تصنيفه بالخمس نجوم... إذ كان أصدقاء أهلي والأقارب يرسلون إلى نزلاء فيلا الاستراحة الكثير من أطايب الطعام: فخالتي منيرفا أرسلت الرز بالفول واليبرق، وعمتي بتلا أرسلت المجدّرة الجبلية بناء على توصية من أبي نقلتها أمي إليها ... وهكذا ... في إحدى المرّات، أرسل العم كرم توما وزوجته ليونا، وهي بلجيكية، وجبات لذيذة مرفقة بالبيرة! نعم، لا تستغربوا ... كل تلك الوجبات والمشروبات دخلت إلى سجن الاستراحة واستمتع النزلاء بالأكل والشرب على أحسن ما يرام!

حين كنا نزور أبي هناك، كان الأستاذ علي غنّام يلاعبنا لعبة الملاكمة ونتسلّى كثيراً معه ونضحك أنا وأخي. في السجن كان بعض النزلاء يفتعل مواقف مضحكة وظريفة للترويح عن الجميع... من هذه المواقف، تظاهُر الشاعر كمال ناصر بالسير في أثناء نومه؛ اتفق الجميع على هذه الكذبة، عدا أحدهم، فانطلت عليه... إذ إنهم أوصوه ألا يوقظه في أثناء سيره نائماً كي لا يصاب بصدمة نفسية! فكان الشاعر كمال ناصر ينزل إلى الطبقة

السفلى من الفيلا مغمض العينين ويتجه إلى البرّاد فيأكل ويشرب منه ما يحلو له، وعين زميله تراقبه بصمت... فينتظره لينهي استمتاعه بوجبته الليلية ولا يوقظه، احتراماً منه لتوصية الرفاق، ثم يساعده في العودة إلى فراشه، لينام كمال قرير العين؛ ويبقى زميله ساهراً من أجل أي طارئ إنْ حدث... وهكذا دوالَيْك...

يومها ودّعني ولم أكن أدري أنني سأودّعه يوماً إلى الأبد. في القريّا ـ السويداء، نيسان / أبريل ١٩٩٠

في أحد الأيام، قرّر الرفاق في سجن الاستراحة الهرب... فوضع أبي الخطة بإحكام، إذ إنه راقب دوريّات الحرّاس وساعات التبديل بينهم في أماكن الحراسة. كانت الخطة تقضي بأن يقف أبي في نافذة الطبقة الثانية للمراقبة، ثم يرمي حصاة صغيرة حين تحين فرصة الهرب دون أن يرى الحرّاس ذلك لأنهم سوف يكونون في الجهة الخلفية للمبنى، فيخرج أول الهاربين من نافذة الطبقة السفلى ويقفز من البوابة الرئيسية التي سوف تكون دون حراسة في تلك اللحظة... ثم ينتظر الثاني دوره ويستعد للهرب؛ حين يرمي أبي الحصاة الثانية، يقفز ثاني الهاربين... وهكذا. وضع أبي هذه الخطة المحكَمة، لكنه رفض تطبيقها على نفسه، فهو يرفض فكرة الهرب من السجن ويرى أن بإمكانه التصرّف لصالح مَن هم خارج السجن، وبالتالي يمكن له وهو في داخل السجن التفاوض مع القيادة القطرية الانقلابية لتحقيق مطالب القيادة القومية! وقد قرّر أن يقول إنه كان نائماً في أثناء هروب رفاقه. غير أن المحامي جبران مجدلاني الذي جاء دوره في الهرب في آخر القائمة، تردّد ولم ينفّذ الخطة الموضوعة، رغم أن أبي قد رمى له الحصاة مرّة بعد مرّة... فضاعت منه الفرصة نهائياً وبقي مع أبي في الداخل.

في الصباح، اكتشف الحرّاس ما جرى، وبدأ التحقيق مع أبي والأستاذ جبران اللذين أكّدا أنهما كانا يغطّان في نوم عميق ولم ينتبها لما حدث! تسببت حادثة الهرب تلك بنقل مَن تبقّى إلى سجن القابون العسكري... وشتّان بين فيلا الاستراحة، سجن النجوم الخمس، وبين سجن عسكري صارم وقاسٍ!

حُرِمنا فترة طويلة من زيارة أبي في سجن القابون، إلا أننا استطعنا رؤيته بعد أن نفّذ السجناء إضراباً قاسياً عن الطعام من أجل المطالبة بحقهم في الزيارة... وسُمِح لنا وللعائلات الأخرى بزيارة الأحبة الذين

افتقدناهم مدة طويلة... وصلنا إلى السجن، فاستقبلنا الحرّاس ببرود وجفاء مع التفتيش الدقيق، ثم دخلنا إلى مكان قذر ومخيف إلى أن أصبحنا في غرفة صغيرة فيها سرير عسكري حديدي كان ينام عليه أبي ووجدناه هناك. فاحتضننا وهدّأ من روعنا وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث..إلا أني أذكر إلى اليوم تفاصيل شعوري بالرهبة والخوف معاً في ذاك اليوم البعيد!

توفيت عمتي الكبرى، شقيقة أبي، غازية، وكذلك عمه علي وهو في سجن القابون، فسمح له المسؤولون بمغادرة السجن لمدة أسبوع كي يحضر مراسم العزاء في القريّا. بعد مضي الأسبوع، عاد أبي إلى السجن ولم يمرّ ليرانا في البيت، لأنه كان يعتبر نفسه في مهمة وقد عاد منها حسب وعده.

رفض حارس السجن إدخاله لأنه لم يصدق أن ثمة سجيناً يعود من تلقاء نفسه إلى الحبس مع أن الفرصة كانت مواتية له للهرب... إلا أن أبي أصرّ على الدخول مطالباً بأن يأتي مدير السجن ليحلّ هذه المعضلة... وهكذا كان، فعاد إلى "قواعده سالماً في السجن". كانت السلطة أيضاً ترغب في أن تراه هارباً كي تلصق به أي تهمة تراها مناسبة لتفجير حقدها عليه، كالفساد وغيره، إذ إنها استولت على كل أوراقه الخاصة في مكتبه في القيادة والبرلمان؛ غير أن ظنها خاب خيبة كبيرة: لقد وجد المسؤولون أنه قد ملأ خزان السيارة الحكومية التي كانت تحت تصرّفه بالوقود وبدّل لها العجلات الأربع من جيبه الخاص دون أن يستردّ المبلغ الذي دفعه، وهو من حقّه طبعاً...

أما النكتة المضحكة، فهي أن السلطة رفضت في البداية إقرار معاش تقاعدي له؛ ثم أقرت له أدنى معاش تقاعدي في ذاك الوقت لأنها اعتبرت أنه لا يستحق تقاعد عضو مجلس قيادة الثورة، أي بمثابة رئيس جمهورية اليوم، نظراً لأنه تخلّف عن الدوام لمدة أربعة عشر يوماً، وهي الأيام التي

كان فيها متوارياً عن الأنظار بعد انقلاب ٢٣ شباط / فبراير ١٩٦٦ حرصاً على حياته!

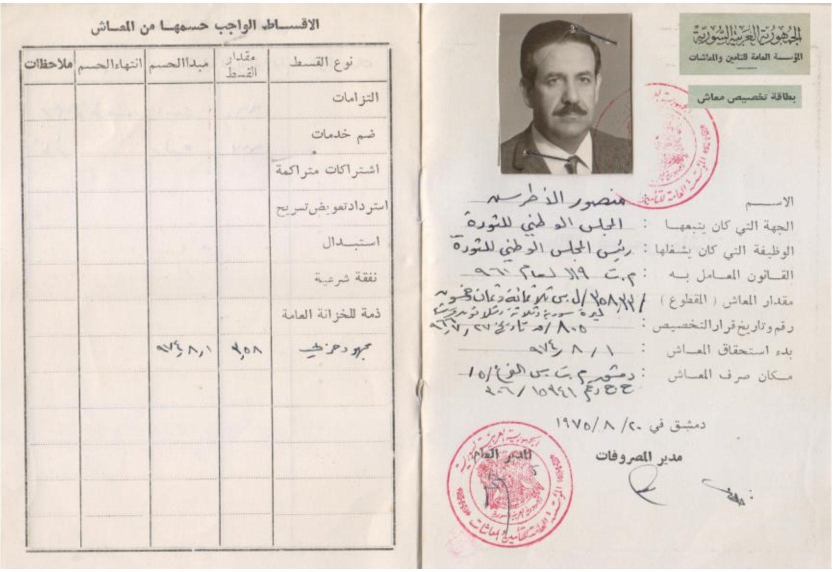

الاقســاط الواجب حسمهـا من المعــاش

نوع القسط	مقدار القسط	مبدا الحسم	انتهاء الحسم	ملاحظات
التزامات				
ضم خدمات				
اشتراكات متراكمة				
استرداد تعويض تسريح				
استبـــدال				
نفقة شرعية				
ذمة للخزانة العامة				
مجهود حربي	٩٫٥٨	١/٨/١٩٧٤		

الجمهورية العربية السورية
المؤسسة العامة للتأمين والمعاشات

بطاقة تخصيص معاش

الاســـم : منصور الأطرش
الجهة التي كان يتبعهـا : المجلس الوطني للثورة
الوظيفة التي كان يشغلها : رئيس المجلس الوطني للثورة
القـانون المعـامل بـه : م.ت ١١٩ لعام ١٩٦٦
مقدار المعاش (المقطوع) : [illegible]
رقم وتاريخ قرار التخصيص : ٨٠٥ /م تاريخ ٢٧ / ٧ / ١٩٧٥
بدء استحقاق المعـاش : ١ / ٨ / ١٩٧٤
مـكان صرف المعـاش : دمشق [illegible]

دمشق في ٢٠/ ٨/ ١٩٧٥

مدير المصروفات

المدير العام

دون تعليق

من الأمور المضحكة المبكية في سجن القابون والتي حدّثنا عنها أبي في ما بعد هي أنه كان يضطرّ لتنظيف زنزانته بنفسه، وقد علّم رفاقه كيفية تنظيف زنازينهم أيضاً، لأن العساكر المسؤولين عن النظافة لم يكونوا يقومون بهذه المهمة كما ينبغي... إضافة إلى أنه كان يقوم أحياناً بتحضير الطعام له ولرفاقه؛ فحين جاء إلى سجن القابون، فوجئ بأن السجناء من رفاقه كانوا يأكلون *à la carte* أي حسب الطلب، إذ إن مسؤول السجن كان يسألهم عن رغباتهم في أنواع الطعام ليؤتى لهم به، كي يقال يوماً إنهم كانوا مرفّهين في السجن أكثر مما كانت حالهم في بيوتهم! منع أبي هذا التصرّف نهائياً وطلب من مدير السجن أن يؤتى للسجناء جميعاً، وهو من ضمنهم طبعاً، الطعام ذاته الذي كان يأكله العساكر العاملين في السجن يومياً، ومن النوعية نفسها... وهكذا كان.

في إحدى المرّات، حضّر أبي فطوراً لرفاقه وكانت حلّة كبيرة من الفول المدمَّس، وقد حرص على تغطيتها حتى لا تتسلل إليها الحشرات... غير أن "صرصوراً متطفّلاً" تسلّل إلى الحلّة و «غطس» في الفول الشهي. حين بدأ الرفاق بالأكل، لاحظ أحدهم وجود هذا "الصرصور" ونبّه أبي إليه. فصُدِم هو بهذه الحشرة واغتاظ من تطفّلها واقتحامها حلّة وليمته اللذيذة التي تعب في تحضيرها، فما كان منه إلا أن غرف لقمة كبيرة من الفول مع هذا الصرصور ثم قام بابتلاعها وإياه ليخلّص رفاقه من الحشرة المتطفّلة تلك. إلا أن معظمهم لم يستطع إكمال الأكل بسبب تقززهم من المشهد! لكن أبي الذي التهم الجراد في طفولته في صحراء وادي السرحان لم يكن غريباً عليه أكل هذه الحشرة "الغاطسة" في حلّة الفول: "يلّا... زيادة في البروتين"!

كنتُ قد حدثتكم عن تهريب أمي لمسدسَيْن إلى داخل سجن القابون، بناء على طلب من أبي. يبدو أنه استطاع إخفاء أحدهما، أما الآخر فلم يكن قد فكر في المكان المناسب لإخفائه، حين فوجئ بتفتيش مباغت لزنازين السجناء... احتار في أمره... فجأة، وقعت عينه على دلو في الحمّام كان يستخدمه في وضع الماء لتنظيف زنزانته، فقلبه رأساً على عقب ووضع المسدس تحته.

دخل الضابط للتفتيش... قام بتفتيش زنزانة أبي ثم دخل إلى الحمّام، فشاهد الدلو المقلوب، فلكزه بقدمه، فانزلق الدلو من أول الحمّام إلى آخره، وبقي على حاله والمسدس تحته تماماً... كانت حركة الضابط المفتش حركة يعتقد هو أن فيها قدراً كبيراً من الاستهتار بالسجناء، غير أنه غاب عن باله أنه بغطرسته تلك لم يقم بواجبه كما يتحتّم عليه وبالتالي فقد أنقذ أبي من "السين والجيم" ومن أمور لا شك أنها أكثر فظاظة!

بعد انقضاء السجن والمنفى، أي بعد ثلاث سنوات، وبالتحديد في ١٧ نيسان / أبريل من العام ١٩٦٩ اتخذ أبي قراره بالعودة من منفاه في بيروت إلى دمشق... إنه عيد الجلاء الذي أعشقه وقد أصبح عيدَيْن بعودة أبي الميمونة لنعيش مجدداً أسرة واحدة معاً. كنا حينها في بيروت، وأذكر أني طرتُ فرحاً حين علمتُ بالخبر. لكني لم أعرف كيف يمكن له الدخول من الحدود السورية ونحن كنا نعاني ما نعانيه حين نذهب لزيارته في منفاه. فخطرت لي فكرة رائعة تتلخّص في أن يدخل الحدود السورية دون أن يراه أحد، وكنت وقتها في التاسعة من عمري؛ اقترحتُ على أمي قائلة: "ماما، إحبلي فيه وجيبيه للشام"! كانت تلك عصارة تفكير طفولي متأنٍّ!

في ذلك اليوم، ركبنا أنا وأمي وأخي سيارة أجرة "صديقة" وقطعنا الحدود بسلام وبتأخير متعمَّد مفروض علينا، مثل كل مرة. ثم، بعد أن قطعنا الحدود ودخلنا الأراضي السورية وفي نقطة متَّفَق عليها، توقف السائق المؤتَمَن ونزل من السيارة ورفع غطاءها الأمامي متظاهراً أنه يصلح عطلاً ما في المحرّك... وأنا في هذه الأثناء كنتُ أمزّق كيساً كبيراً من النايلون من شدة فرحي بنجاح الجزء الأول من الخطة... فجأة، ظهر أبي متسلّقاً جبلاً يفصلنا عن بعض القرى اللبنانية ومعه بعض الأصدقاء والأقارب لحمايته، مثل زوج عمتي وأخيه وابن عمتي على ما أذكر، وكان هو يضع على رأسه كوفية وعقالاً. ركب السيارة بسرعة، فأغلق السائق غطاء المحرك وانطلقت السيارة بنا باتجاه دمشق. وصلنا بعد حوالى نصف ساعة إلى بيتنا في حي المزرعة... أخيراً سوف نعود لنعيش معاً وبشكل دائم!

ترجّل أبي بخفّة مقابل بيتنا ودخل إلى دكان جارنا الخياط الذي استقبله بترحاب شديد؛ لكنه نبهّه كي لا يقول لأحد ما رآه! أنْزَلَنا سائق السيارة أمام مدخل البناء، فدخلنا مع حقائبنا نحن الثلاثة فقط، واتجهنا

إلى بيتنا في الطابق الثاني... صعدنا الدَرَج، وحين وصلنا إلى الطابق الأول، كان أبي قد دخل إلى هذا الطابق من حديقته الخلفية، فاستقبله العم أبو جورج بترحاب لم يخلُ من مفاجأة، وأدخله إلى بيته ليُخرجه منه إلى الدَرَج الذي نصعد عليه... ثم أكملنا مشوارنا حتى البيت وكنا حينها قد أصبحنا أربعة، فدخلنا بيتنا آمنين بعد أن أوصينا العم أبا جورج أن ينسى ما شاهده اليوم... وهكذا كان... بقي أبي مختفياً عن الأنظار في البيت لمدة أسبوعين أو أكثر قليلاً ثم قرّر إخبار اللواء حافظ الأسد هاتفياً بوجوده في بيته، قائلاً له: "إن أردتم القبض عليّ فأنا هنا في بيتي وهو قريب جداً من بيتك... وأنا جاهز لذلك"! غير أن أحداً لم يأتِ للقبض عليه والحمد لله! لقد عشتُ لحظات مرعبة آنذاك خوفاً من أن أَفقده مجدداً وأعيش معاناة زيارته في السجن!

لم أستطع كتم هذا السرّ... فحدّثتُ صديقتي رامة بما جرى... ندمتُ في ما بعد وخفتُ على أبي من ثرثرتي... فقلتُ لها في اليوم التالي: "رامة، لا تصدّقي ما قلتُه لك، فقد كان حلماً رأيتُه وتمنّيتُ لو كان حقيقة"!

استغربتْ رامة الأمر إلا أنها صدّقتني! ولكن، بعد أن أعلن أبي عن وجوده في بيته على الملأ، عدتُ مرّة جديدة وقلتُ لرامة: "إنه حقيقة وليس حلماً، لكنني اضطررتُ أن أكذب عليك"! لم تغضب رامة مني، بل قدّرتْ ظرفي وعرفتْ أني خشيتُ عليه من ثرثرتي.

حين اعتُقلَ أبي في العام ١٩٦٦ ، قرّرت السلطة "اعتقال" سيارته الخاصة أيضاً، البويك البيضاء، المُشتراة من حرّ ماله، لترميها في المنطقة الحرّة تحت الشمس والمطر وكافة عوامل الطبيعة! وحين عاد أبي من منفاه في بيروت، احتاج إلى سيارة من أجل تنقّلاته، فاشترى، تقسيطاً، سيارة

سيتروين سوداء قديمة جداً، موديل سنة ألف وتسعمائة "وخشبة"[6]! كان منذر ابن جيراننا يقول لأخي: أبواب سيارتكم تفتح "بالمقلوب"! وذلك لأن البابَيْن الأماميين يتمّ فتحهما إلى الخلف! لا أذكر أننا ركبنا هذه السيارة مرّة إلا وطلب أبي من أخي ثائر أن يجلس خلف المِقْوَد، ثم نقوم أنا وهو بدفعها إلى الأمام كي يكون لها القدرة على الحركة؛ يعني حالها كحال سيارة فيروز في مسرحية ميس الريم: "هالسيارة مش عم تمشي، بدنا حدا يدفشها دفشة"!

سيارة البيوك التي عانت من الغربة

في منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، قال لي أحد أصدقائي إن والده كان يشاهدنا ونحن ندفع السيارة في الطريق، فيتعجّب قائلاً: "أيُعقَل أن تحرم السلطة رئيس البرلمان السوري السابق من سيارته الخاصة حتى يُضطرّ إلى استخدام سيارة مهترئة، لا تسير إلا «بقوة الدفع»"؟! بقينا على

---

[6] تعبير مستَخدَم في العاميّة السورية، كناية عن الطراز القديم لأيّ شيء نستعمله!

هذه الحال حتى العام ١٩٧٠، حين سمح لنا رئيس الجمهورية آنذاك بإدخال السيارة البويك إلى أرض الوطن... فعادتْ إلينا سالمة، ولكن ليست غانمة، فقد اضطرّ أبي لإعادة تأهيلها من جديد كي تكون صالحة للاستخدام البشري!

أذكر في هذا الصدد أنه في ثمانينيات القرن العشرين، كنتُ أقضي وقتاً في بيت جدي سلطان في القريّا، فجاءت عائلة من قرية السفيرة التابعة لريف حلب... جاءت من أقصى شمال سورية إلى أقصى جنوبها مستنجدةً بأبي لرفع ظلم وقع عليها، وما أكثر حالات الظلم في ذاك الوقت! ساعد أبي هذه العائلة على قدر استطاعته... وهي ما زالت وفيّة لنا تسأل عن أحوالنا حتى بعد رحيله.

في أحد الأيام من منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، اتصل بأبي سفير جمهورية الصين الشعبية المعتَمَد في دمشق، طالباً منه موعداً لأمر هام. جاء السفير إلى بيتنا في دمشق تصحبه شابة صينية في بداية الثلاثينات من عمرها، قطعت المسافة من بكين إلى دمشق بحثاً عن حبها الضائع!

روتْ قصتها لأبي، وكانت قبل ذلك قد روتها للسفير الذي أكّد لها أن الأستاذ منصور الأطرش هو خير ملاذ لحلّ مشكلتها. القصة باختصار هي أنها أحبّت شاباً سورياً من محافظة السويداء وكان يدرس في جامعة بكين، وهي تعمل هناك... عاد إلى بلدته كي يبلغ أهله بقراره الذي اتخذه بالزواج من تلك الشابة الصينية، وانقطعت أخباره عنها تماماً... استقبل أبي هذه الشابة في بيت جدي في القريّا، فنزلت ضيفة معزّزة مكرّمة لعدة أشهر وتعلّمتْ اللهجة الجبلية وعاشت مع عمّاتي في البيت.

بحث أبي عن هذا الشاب وطلبه ليأتي إليه، فجاء... عنّفه قائلاً له: "بنات الناس، حتى لو في الصين، لسنَ لعبة... عليك أن تفي بوعدك لهذه

الشابة وتتزوجها". أكّد الشاب أنه يحبها، غير أن أهله غير موافقين وقد أجبروه على خطبة قريبته! عمل أبي على إقناع أهل الخطيبين بضرورة بناء زواج سليم على أسس الحب والتفاهم وليس على أساس الإجبار... وأقنع الفتاة السورية بأنه من الأفضل لها الزواج من شخص يحبها ولا يحب فتاة أخرى، لأنها لن تكون سعيدة مع قريبها هذا المتعلّق قلباً وروحاً بتلك الفتاة الصينية.

تمّت كل الأمور برضا الجميع... بقيت مشكلة واحدة وهي أن الفتاة بوذية وعليها تغيير دينها كي تستطيع الزواج من شاب مسلم من طائفة الموحّدين. أشهرت إسلامها واختار لها أبي اسماً عربياً مشابهاً لمعنى اسمها الصيني: عبير؛ تمّ عقد الزواج، وكان أبي شاهداً على العقد في المحكمة الشرعية في دمشق. أصرّ القاضي على سماع الشهادتَيْن من العروس والعريس كذلك، لضيقٍ عنده في الأفق... ولا أدري إن كان هذا التصرّف فردياً أم أن جميع القضاة يصرّون على هذا الأمر حين يأتيهم شاب من الفِرَق الإسلامية الأخرى... فالمفتَرَض أنه مسلم وما من داعٍ لتأكيد ذلك!

عاشت هذه العائلة فترة لا بأس بها بين سورية ولبنان، ثم عادت إلى الصين لإيجاد فرصة عمل أفضل.

في أواخر العام ٢٠٠٢ سافرتُ إلى الصين والتقيتُ بهذه العائلة في بكين، وقد أصبح لدى عبير وفريد ابنتان شابتان... أصرّت عبير على أن أزور بيتهما الجديد وأعمالهما التجارية الناجحة في بكين كي أُطَمئِن أبي على أن زواج "ابنته" عبير الصينية ناجح على جميع المستويات وهي في غاية السعادة. كانت تعرّفني على أصدقائها الصينيين على أني "أختها" لأنها لن تنسى ما فعله أبي من أجل تحقيق سعادتها: ما قام به هو ما يقوم به كل أب من أجل ابنته!

في البيت، كنتُ من حزب "المعارضة"، فأنا أعبّر دوماً عن رأيي بصراحة دون خوف من سلطة الأب؛ كان أبي في مواجهتي رحب الصدر ديمقراطياً، رغم أن أفكاري تشطح في كثير من الأحيان، خاصة في الأمور الاجتماعية "الحساسة". كنتُ، من خلاله، ألوم حزب البعث لأنه لم يبذل مجهوداً أكبر في تطوير المجتمع، بل رضخ للتركيبة الدينية والعشائرية في بلادنا. وفي بدايات القرن الواحد والعشرين، كما دوماً، تواترتْ حوادث "جرائم الشرف" في سورية، تلك الجرائم التي لا علاقة لها بالشرف على الإطلاق... حزنتُ لما يجري... فنحن في الألفية الثالثة وما زالت كرامة المرأة تُهان ويُستَهان بحقها في الحياة لمجرّد أنها اختارت الارتباط بشخص أحبّته، لا ينتمي لطائفتها أو لمذهبها! أذكر أني قسوتُ في النقد على حزب البعث الذي لم يساهم بشكل فعّال في تطوير المجتمع وارتقائه إلى مستوى الإنسانية بتطبيق حقيقي لقوانين العَلمانية، ولو على المستوى الخياري... فأجابني أبي: "يا ريم، لم يتركونا نتنفّس... ثلاث سنوات من الحكم لم نستطع خلالها تحقيق ما كنا نحلم به، بل كنا نصدّ التآمر تلو الآخر... كنا نحضّر قانوناً متطوّراً للطوائف، بما يحقق عَلمانية عقلانية بفصل الدين عن الدولة والسياسة، ولكن..."! سكت حزيناً وأطرق مفكّراً! شعرتُ حينها بمعنى المَثَل الشعبي القائل: "يللي بيعرف بيعرف، ويللي ما بيعرف بيقول كفّ عدس"!

تعلّمتُ من أبي الكثير: تقديس العلم والمعرفة والسعي للثقافة والثقة بالنفس والتواضع في الوقت عينه... فرح بي حين أنجزتُ بحث الدكتوراه في فرنسا وكذلك الأمر بالنسبة لأبحاثي الأخرى وحين شاركتُ في المؤتمرات العلمية الدولية داخل سورية وخارجها. تعلّمتُ منه إعمال العقل والترفّع عن الغرائز والترّهات والتسامح مع الآخر إلى أقصى الحدود، إذ إنني رأيتُه كيف صفح عن رفاقه الذين غدروا به في الحزب، كما رأيتُه كيف تسامح مع

أقاربه ورفاقه في الوقت عينه الذين ظلموه "علناً" لمجرّد أنه لم يقبل تلبية رغباتهم الشخصية في التسلّق إلى السلطة على حساب مبادئه وكلّ ما آمَنَ به من أخلاق في هذه الحياة! علّمني احترام الآخر ومعتقداته؛ علّمني رحابة الصدر وسعة الأفق والحوار مع الآخر دون كلل أو ملل.

عندما دخلتُ معترك الحياة العملية، نصحني قائلاً: "إياكِ يا ابنتي ونفسية الموظف البيروقراطي"... وقتها، لم أستوعب تماماً ما قصده، إلا أني فهمتُه بعد أن عاركتُ الجو الوظيفي! وأحمد اللّه أني لم أكن ممن لديهم شهوة السلطة والتسلّق الوظيفي! فقد عملتُ بصدق وتفانٍ دون انتظار شكر ودون البحث عن منفعة شخصية...

ما زال أبي مثلاً أعلى يُقتدى به... آمنتُ بأفكاره ومبادئه وأعمل على تطبيقها في حياتي.

في كثير من الأحيان أراه في أحلامي أو أسمع صوته يحدثني عن آرائه وأفكاره التي خطّها على الورق وعملتُ أنا على نشرها في كتب أنيقة يقرأها الناس. منها على سبيل المثال ما كتبه حول العمق الاستراتيجي الممتد بين بادية الشام والعراق، ونشرتُه في كتابه المُعَنْوَن (في سبيل العراق)، دار الفرات ٢٠١٠ في بيروت، إذ كتب يقول: "اخترتُ، للسفر إلى بغداد، طريق البرّ، وتأثّرتُ كثيراً بالبادية المترامية الأرجاء وأحسستُ بالعمق القومي المتبادل بين سوريا والعراق، وكأن هاتفاً داخلياً في نفسي دعاني إلى تحريض المسؤولين السوريين والعراقيين على الالتزام بهذا المسار مدى الدهر. في هذه الصحراء المترامية الأطراف أجد الأمان والعمق القومي والعمق الجغرافي ووحدة الأرض والحماية من غزو الأعداء بتوفير المدى لاستمرار المقاومة مهما طال الزمن، لتحقيق وجود أمتنا التي ترفض الاستسلام لأمريكا ولغيرها من أتباعها..."

رأيتُ مرة في الحلم هذا المدى الممتد بَرّاً من دمشق إلى بغداد، رغم أني لم أسلك تلك الطريق مطلقاً!

في أحد الأحلام، رأيته يسألني: "هل نشرتِ كل ما كتبتُه؟" فأجبتُه: "طبعاً لا، لقد حذفتُ أشياء لا يمكن نشرها في بلادي وأجّلتُ أشياء أخرى قد يأتي وقتها في يوم من الأيام".

وفي حلم آخر، رأيتُ شجرة عالية مضاءة بمصابيح جميلة، أغصانها مدلّاة، وكنتُ حين أعدّل من وضعيتها تضاء على الفور، وأبي إلى جانبي يساعدني في إضاءة الشجرة ويحدثني عن الأوراق في أدراجه التي عليّ تحقيقها!

في إحدى الليالي، وبالتحديد في ٢ / ٦ / ٢٠١٠ رأيتُ في منامي شخصاً حدثني هاتفياً طالباً التحدث إلى أبي واسمه "هاني النعيم"... فأعطيتُ أبي سمّاعة الهاتف، ذاكرة له اسم هذا الشخص، فكان مهتماً بالحديث معه... أذكر أني رويتُ لأمي هذا الحلم، فقالت لي: "إنه أبوك، هانئ في النعيم"... يا لها من فكرة!

لقد خصصتُ جزءاً هاماً من دفتر يومياتي أكتب فيه هذه الأحلام علّها تصبح مادة لعملٍ أدبي يوماً ما!

في طفولتي ويفاعتي، كنتُ أمازح أبي من وحي حياة السجن السياسي الذي عانينا منه جميعنا. كان حين يدخل البيت، أغافله من الخلف و"أهدّده" بيدي في ظهره، على أنها مسدس، و"آمره" بفظاظة: "امشِ معنا!"... فيجيبني: "إلى أين؟"... فأقول: "هناك ستعرف..." فيضحك من كل قلبه... إنه أسلوب المخابرات الذي عانى منه الكثيرون في بلادنا العربية.

في ذاك الزمن، كنتُ قد اكتشفتُ رقابة موضوعة على أبي وتحرّكاته، وكان هدفها مراقبته "متخفيّة"، إلا أني كشفتُها بدقة ملاحظتي لكل ما

يحيط ببيتنا... قمنا، أنا وأبي، بمغامرات مضحكة ضد عناصرها، وهم ما زالوا إلى اليوم يعتقدون بأن مهمتهم قد نجحت نجاحاً كبيراً! لقد طبّقنا المَثَل القائل: "كلّاس لا يغبّر على طحّان"...

مع حبّهما في عيد ميلادي في العام ٢٠٠٤

خلال غيابه عنا لثلاث سنوات كاملة، كنتُ معتادة أن أعطي دفتر علاماتي المدرسي لأمي كي تمهره بتوقيعها، فهي وليّة أمري في غيابه. بعد أن عاد من منفاه في بيروت في العام ١٩٦٩، أعطيتُ أمي، كالمعتاد، دفتر علاماتي لتوقيعه، فرفضت قائلة: "اليوم أبوك هنا بيننا وهو وليّ أمرك، أعطه إياه ليشاهده ويوقّعه"... كان وَقْع ذلك طيباً على نفس أبي، لكني، طفلةً، لم أفهم الفارق... بعد أن كبرتُ، قدّرتُ لأمي هذه الخطوة التي أعادت التوازن إلى نصابه!

قد تكون علاقتي بأبي وأمي مميّزة كما وصفتْها رامة، صديقتي: فعلاقتي الفكرية والروحية بهما ذات عرى لا تنفصم، وعلاقتي الروحية بأمي أيضاً علاقة انصهار...

كنتُ منذ صغري وحتى تخرّجي من الجامعة ودخولي معترك الحياة والعمل، أجلس إلى مائدة الغداء معهما ومع ثائر، وأحكي ما جرى معي بكل تفاصيله التي غالباً ما كانت تسبب الملل لأخي؛ ثم نحاول معاً استخلاص العِبَر والدروس الحياتية منها. هذا ما منحني، في معظم الأحيان، "فِراسة" اجتماعية يتأكد من خلالها حَدسي وانطباعي الأول في علاقاتي مع الناس على المدى البعيد... كان هذا وما زال يدهش أصدقائي، فيأتون إليّ بعد لأيٍ ليقولوا لي: "ريم، لقد أصبتِ... كانت نظرتك في هذا الأمر أو في هذا الشخص في محلّها تماماً..."

ثم إني فكرياً، ارتبطتُ بوشائج عميقة مع أبي وأمي: فقراءاتنا الثقافية وتحليلاتنا ونقاشاتنا متناغمة ومعمَّقة ويومية... لذلك، تراني أفتقد إلى الحوار بعد رحيلهما وأشعر نوعاً ما بالخواء!

هذا ما دعا أبي لأن يوصيني بأوراقه ووثائقه... وهذا ما دعا أمي لأن تبثّني لواعج قلبها ومشاعرها وقصة حب عمرها، وتطلب مني أن أكتبها في يوم من الأيام...

وها أنا ذي ألبّي لها طلبها وقد لبّيتُ طلب أبي بنشر كتابَين له حتى الآن...

أتمنى من عميق قلبي ومشاعري أن أكون عند حسن ظنّهما وعلى مستوى ثقتهما بي...

٥- في بيروت

بيروت، آه يا بيروت... أنتِ مدينة جميلة... "دلّوعةُ " المدن العربية أنتِ، لكنك برأيي لا تضاهين دمشق في جمالها وعراقتها!

دمشق عشقي... وبيروت حبّي... هذه وُلِدتُ وعشتُ فيها، وتلك احتضنتْ أبي في شدّته وكانت المنفى الخياري ذاتياً والقسري موضوعياً، لكنه كان حانياً عليه وعلى رفاقه... هذه حياتي كلها، وتلك ضمّت ذكريات غالية على قلبي...

الطريق إلى بيروت كان يغمر قلبي بفرح عارم، فأنا على موعد جميل للقاء أبي الغائب عني والحاضر في قلبي. أما الطريق منها إلى دمشق فكان ثقيلاً على روحي، إذ أفارق أبي كي آمل لقياه في يوم آخر!

تلك الطريق، جيئة وذهاباً، قطعتُها بصحبة أمي وأخي مرات لا تُحصى بين صيف العام ١٩٦٧ وربيع العام ١٩٦٩.

كانت مدرسة اللاييك تعطّل عطلة عيد الميلاد المجيد لمدة أسبوعين، كذلك الأمر في عطلة عيد الفصح... وخلال فصل الصيف، ثمة ثلاثة أشهر من العطلة... هكذا، نقضي أربعة أشهر في السنة مع أبي في بيروت، أي ثلث العام فقط!

قبل أسبوعَيِ الميلاد ومثلهما في الفصح، كنا أنا وأخي نطلب من معلّمة الصف إعطاءنا الدروس والوظائف التي علينا إنجازها في أثناء العطلة؛ فأقوم بما عليّ حال وصولي إلى "بيتنا" في بيروت.

صحيح أني أسمّيه "بيتنا" لكنه في الواقع ليس لنا، إنه لشخص كريم اسمه حسن حلاوة، من بني معروف الكرام في لبنان. حين عَلِمَ بوجود أبي هناك، أصرّ على وضع شقة له في "الروف"، أي السطح، في إحدى الأبنية التي يملكها، تحت تصرّفه دون أي مقابل. هذا البيت جزء من بناء حلاوة، الذي يقع ضمن "زاروب" متفرّع عن شارع أستراليا، وتقع منطقة هذا البناء بين شارع الحمرا وساقية الجنزير.

يتألف البيت من ثلاث غرف، واحدة للجلوس واثنتين للنوم، إضافة إلى مطبخ لطيف يطلّ على بحر الروشة و"تِرّاس" واسع مطلٍّ على البحر. كنت أعشق هذا المنظر الخلّاب: شروق الشمس وغروبها في البحر حَدَثان متجدّدان: رغم أنهما يتكرّران يومياً إلا أنني كنتُ أُدهَش أمامهما في كل يوم...

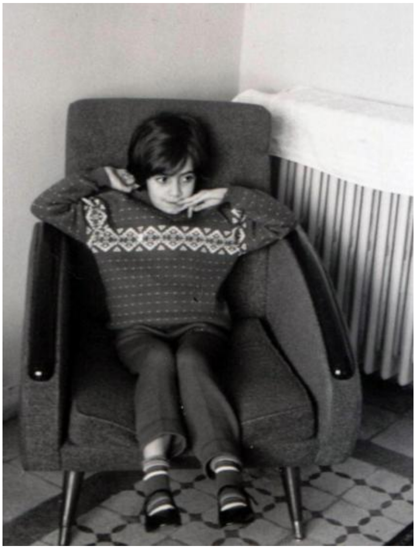

في "بيتنا" في بيروت

على شرفة "بيتنا" في بيروت ١٩٦٨

حين عدتُ إلى بيروت في العام ١٩٩٥ من أجل دراسة أوضاع الحرير فيها بعد انتهاء الحرب الأهلية وبعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً من الغياب عنها، حاولتُ البحث وحيدة عن هذا البيت لعلمي أن البناء ما زال قائماً، غير أني لم أهتدِ إليه بسبب تغيّر معالم بيروت التي أعرفها قبل الحرب... وقد أكون مررتُ في " الزاروب" ذاته، لكني لم أعرفه!

تغيّرت بيروت كثيراً منذ آخر مرّة زرتُها فيها، أي في العام ١٩٧٢ ، فهي لم تعد تلك المدينة "الحانية":

لقد أصبحت عدائية وقاسية على أهلها وزوّارها!

في طريق الذهاب إلى بيروت لزيارة أبي، نحمل حاجياتنا الخاصة؛ وفي طريق العودة إلى دمشق، كانت أمي تشتري لنا علبة واحدة فقط من شوكولا غندور التي أعشقها؛ ولكي لا يعتبرها رجال الجمارك السورية حجّة ضدنا في "تهريب البضائع" كما هي عادتهم في مضايقتنا المستمرة، كانت أمي تفتح العلبة في سيارة الأجرة التي تقلّنا مع راكبَيْن آخرين، وتقدّم لهما وللسائق بعض قطع الشوكولا اللذيذة على سبيل الضيافة... وهكذا، لا تُعتَبَر العلبة "بضاعة مهرَّبة"! يا لهم من رجال متفانين في المحافظة على "سلامة" الصناعة الوطنية!

إذن، لم نكن نجلب معنا من بيروت أي شيء سوى هذه العلبة اليتيمة من الشوكولا... لذلك، فقد تعوّدنا في بيتنا وتربّينا على ألا نشتري إلا ما تنتجه سورية، بلدنا... وكبرتُ أنا على هذه العادة الحسنة، فكل ما أرتديه وآكله، إلا في ما ندر، هو صناعة وطنية أفتخر بها.

في ثمانينيات القرن العشرين، حين اشتدّ الحصار الاقتصادي الخانق على سورية، كان معظم الناس يذهبون إلى شتورا أو بيروت لشراء كل شيء، حتى الخبز! أما أمي، فكانت تقول لنا دوماً: "ما هو غير موجود في سورية

ليس ضرورياً ويمكن الاستغناء عنه"! هكذا، لم نشعر بنقص طيلة سنوات الحصار... لقد ارتضينا على الدوام بما بين أيدينا من منتجات وطنية.

أنا وثائر في "بيتنا" في بيروت والبحر خلفنا ١٩٦٨

حين بدأ الانفتاح الاقتصادي في سورية، في أواخر التسعينيات من القرن العشرين وانتشر كالسرطان في بداية الألفية الثالثة، لم أنبهر على الإطلاق كما فعل الآخرون، فالبضائع المستورَدة والكماليات لا تعنيني في شيء؛ ألم تقلْ أمي إنه يمكن الاستغناء عنها؟!

أعود إلى بيروت وذكريات الطفولة فيها...

من أهم الأمور بالنسبة لي هي أن أبي كان متفرّغاً في معظم الأوقات لنا، وحين يجتمع برفاقه، كنا نحن أيضاً مع عائلاتهم: النساء يتحدّثْنَ بأمورهنّ وهمومهنّ ونحن الأولاد نقضي الأوقات الجميلة معاً.

أذكر أن أبي قد اصطحبني معه عدة مرات، وأنا في السابعة من عمري، لمشاهدة أفلام شارلي شابلن الصامتة في سينما ستراند في شارع الحمرا.

وقد أُعجِبتُ، ولا أزال، بهذا الممثل العبقري الذي استطاع تجسيد نقده اللاذع للمجتمع الأوروبي المدّعي للتمدّن والتطور دون أي تعاطف إنساني حقيقي، ببساطة متناهية. منذ تلك اللحظات وأنا أعشق السينما وما زلتُ منبهرة بشاشتها الكبيرة...

من أمتع لحظات الأكل بالنسبة لي كانت، إما تلك التي يصطحبنا فيها أبي إلى مطعم "مرّوش" في منطقة رأس بيروت، حيث كنا نتناول الفول والحمّص ونشرب الشاي بأرخص الأثمان، أو تلك التي نقضيها في تناول شطيرة من الفلافل اللذيذة في محل "فلافل صهيون" في أول ساحة البرج. كان أحد رفاق أبي يعلّق قائلاً له: "شي حلو! تُطعمنا وأسرتك شطائر الفلافل اللذيذة ونشبع تماماً وكل ذلك بخمس ليرات لبنانية... يا بلاش!"

خلال فصل الربيع أو نهاية فصل الصيف، كنا نتمشّى على كورنيش بحر بيروت الجميل، قرب صخرة الروشة لنتفرّج على المراكب الصغيرة التي تنطلق في البحر لتمرّ تحت هذه الصخرة، نقطة العلّام البيروتية!

صخرة الروشة دليلي إلى بيروت التي كنت أعرفها

في صيف العام ١٩٩٥، حين زرتُ بيروت لأول مرة بعد انقطاع عنها لسنوات طويلة، اضطربتُ كثيراً لأنني لم أستطع التعرّف على تلك المدينة الجميلة التي أحببتها والمنطبعة في ذاكرة طفولتي. توجّهتُ إلى الروشة، فهدأ اضطرابي وجلستُ إلى "النقطة العلّام" لأبثّها لواعج فؤادي، واحتسيتُ القهوة ليعود بي الزمن إلى أيام حلوة خَلَتْ!

من ذكرياتي الجميلة في بيروت، ذهابي أحياناً مع أهلي إلى مقهى "الهورس شو" أو "حدوة الحصان" لصاحبه السيد مُنَح الدبغي في شارع الحمرا. حلّ بدل هذا المقهى اليوم، مقهى آخر اسمه "الكوستا كافيه".

كان السيد مُنَح وكل العاملين في المقهى يُنَبِّهون أبي إن كان ثمة من خطر عليه في الجلوس هناك! لذلك قلّ ما ذهب إلى المقاهي، فحياته كانت دوماً معرّضة لخطر ما من مكان ما!

في العام ٢٠٠٧، بعد رحيل أبي، ذهبتُ إلى بيروت من أجل نشر سيرته الذاتية "الجيل المُدان"، وكنتُ مع أصدقاء لي، ترافَقْنا سوياً على الطريق من دمشق إلى بيروت، وكلٌّ منا لديه مهام يقوم بها حتى آخر النهار، لنعود، من ثمّ، إلى دمشق معاً... أخذتُ أبحثُ عن مكان نلتقي فيه الساعة السادسة مساء، فقلتُ لهم: "نلتقي هنا عند الكوستا كافيه"؛ ولستُ أدري لماذا اخترتُ هذه النقطة بالتحديد، وكأن قلبي لهف إليها، هكذا، لله ولوجه الله!

حين اتصلتُ بابن عمتي ناصر لملاقاتي، أخبرتُه أنني بالقرب من هذا المقهى، فقال لي: "عرفته إذن؟" فأجبتُ بالنفي، فأردف قائلاً: "ريم، هذا هو المكان الذي كان يضم مقهى الهورس شو"!

في الحقيقة ذُهلْتُ لأني لم أكن أدري أن هذا المكان ما زال محفوراً في وجداني ولا وعيي بهذا الشكل... لم أكن أعرف أني سوف أستدلّ هكذا على مكان أحبه ويحمل جزءاً من ذكريات جميلة رغم أن معالمه قد تغيّرت عليّ... يبدو أن الحنين عميق في داخلي لدرجة لم أكن أتصوّرها!

شتاءً، كنتُ أُنصتُ في "بيتنا" إلى تلاطم أمواج البحر... كانت تخيفني أحياناً، إلا أن لحظَات الخوف العابرة تلك ما تلبث أن تختفي عند هدوئها...

صيفاً، كنا نذهب للسباحة في مسبح "سبورتنغ" الملاصق للبحر والذي يحوي على مياهه المالحة، التي أستمتع فيها حين تحملني فلا أشعر بوزني ولا بثقل معاناتي، على قلّتها في ذاك الزمان...

ما زلتُ أحب البحر وأتمنى لو أعيش في مكان مطلّ عليه، رغم أني ما زلتُ أشعر بالرهبة من هيجانه وأعماقه شديدة الزرقة! فالنظر إلى الأفق من خلال امتداد البحر علاج لكل آلام النفس البشرية، والنزول فيه تخلُّصٌ من كل عبء ثقيل!

في لبنان، كنتُ أرى كلّ شيء جميلاً: البحر والجبل... الريف والمدينة... الناس والأبنية... أليس فيه أبي؟!

في صيف العام ١٩٦٨، قضينا أياماً جميلة في برمّانا، في فندق "رخيِّص وكويِّس وابن ناس"، اسمه فندق Belvédère Annexe، أي (ملحق البلفيدير)[٧].

صاحبة هذا الفندق الصغير سيّدة لطيفة اسمها "مدام" أوليفيا... أحبتنا كثيراً وأغدقت علينا من اهتمامها، لدرجة أنها كانت تسأل أمي عن رغبتها في الـ *Menu* أي في تحضير الوجبات التي تفضّلها لطعام الغداء. هناك، تعرّفنا إلى أطفال مثلنا، كنا نلعب معهم في حديقة الفندق التي تحوي على أرجوحة أحببتُ اللعب عليها. من ضمن هؤلاء الأطفال، كان معنا أولاد الفريق أمين الحافظ (أبو عبده) وزوجته (أم عبده): عبد الرحمن وصباح وشذى وبشر، وطفل حديث الولادة هو خالد.

[٧] Belvédère (بلفيدير): تعني هذه الكلمة بالفرنسية المكان المرتفع المطلّ على مناظر جميلة.

حين رجع أبو عبده إلى حلب في العام ٢٠٠٣، اتصلتُ به وهنّأتُه بالسلامة؛ وفي العام ٢٠٠٧ زارتنا أم عبده في البيت وكان معها ابنها بشر وعائلته... استرجعنا ذكرياتنا الجميلة التي ولّت...

كنا نلهو أطفالاً معاً، فنصنع من كل حبّة بلّوط صغيرة متساقطة على عشب حديقة الفندق غليونا، وذلكً بشكّها بقضيب خشبي صغير. كما أذكر أننا كنا نلهو بجمع ثمرات الخرّوب.

أنا وثائر وإبنا خالي إياد وعمر في بيروت ١٩٦٨

في إحدى المرات، جاء إليّ أحد أطفال الفندق، وهو لبناني ولا أذكر اسمه، قائلاً إنه عثر على ثمرة لذيذة يمكن أكلها مباشرة، وطلب مني إمساكها بيديّ، ففعلتُ، فما كان منها إلا أن وخزتني بإبرها الحادة الموجعة! كانت تلك ثمرة الصبّار بقشرتها الإبرية. قضتِ أمي ليلة كاملة وهي تنزع

الإبر من يديّ وأنا في غاية الألم... عوقِب ذلك الطفل "الشرير" عقاباً شديداً من أبويه وأجبراه على الاعتذار مني على فعلته، فسامحتُه!

بقيتُ لسنواتٍ لا أقرب ثمار الصبّار، رغم أن طقوس بيعها في شوارع دمشق هي طقوسٌ ولا أجمل: يجلس الناس جماعات، صيفاً وخريفاً، في ركن لطيف ورطب في الشارع على الكراسي الملوّنةً الصغيرة، ويقضون ليلتهم وهم يأكلونها بتلذّذ ويتسامرون حتى وقت متأخر، والبائع، بيديه العاريتين، يقشّر لهم ثمار الصبّار دون أن يشعر بوخز إبر قشرتها... إلى أن أقنعني أبي مرّة بالجلوس معه في ساحة الروضة لأكل "الصبّارة" كما يسمّيها أهل الشام، وكنتُ حينها في العشرينات من عمري... أذكر أنني تذوّقتُ يومها أطيب ثمرة في الدنيا... وبقيتُ أشتري ثمار الصبّار لأمي وأبي وآكل معهما البعض منها، ولكني لم أنسَ في حياتي ما فعله بي ذلك الولد "الشرير" في برمّانا.

في ذاك الصيف البعيد، في برمّانا، كنتُ أركض في حديقة الفندق ذاته مع الأطفال، ثم نصعد معاً الدَرَج راكضين أيضاً. في إحدى المرّات، وقعتُ على إحدى حوافه الحادة، فجُرِحَ أنفي جرحاً استدعى عدة قُطَب جراحية.

كان مَنْ أسعفني هو الدكتور مروان محاسني، رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق حالياً. أذكر الآلام المبرحة لتلك القطب، فأستنتج اليوم أنها تمّت من دون تخدير!

حمتني هذه القبعة من شمس بيروت رغم حبي لها

في هذا الفندق، ثمة شاب يعمل فيه اسمه نهرا، وهو من أقارب أصحاب الفندق على ما أظن. في إحدى المرات أخذنا نهرا أنا وثائر لحضور فيلم فيروز (بنت الحارس). حين جلستُ على المقعد في السينما، لم أستطع مشاهدة الفيلم بسبب قِصَري، حاولتُ أن أتطاول، دون جدوى... فما كان من نهرا إلا أن رفع المقعَد وطواه وأجلسني على حافته المطوية... كان حلّاً رائعاً، إذ استطعتُ الاستمتاع بالفيلم وبأغاني فيروز الجميلة فيه والتي تعطي للطفل الحريّة لأن يسرح بخياله، خاصة أغنية (طيري يا طيّارة طيري يا ورق وخيطان...).

كنتُ أحب سلام زوج السيدة أوليفيا وأخيها رمزي: "نهاركم سعيد"! أو "اللّه معكم"؛ تحية رقيقة تختصر لطف سريرتهما وعمق محبتهما للناس جميعاً!

في العام ١٩٩٦، ذهبتُ إلى برمّانا، وتقصّدتُ زيارة فندق (ملحق البلفيدير)، فوجدتُ ناطور الفندق الخالي من الزبائن، فحمّلتُه سلامي للسيدة أوليفيا في كندا؛ نزلتُ إلى الحديقة... ما زالت الأرجوحة في مكانها، لكن الأعشاب البرّية قد غطّت دَرَجات الفندق المهجور!

زرنا أماكن كثيرة في لبنان في العام ١٩٦٨، منها سيدة حريصا، حيث ركبنا في السلّة المعدنية الملوّنة المعلّقة بين السماء والأرض: التيليفيريك. لم أستطع الاستمتاع كما يجب بالمناظر الخلّابة لأن خوفي وأنا معلّقة هكذا في الهواء قد طغى على كل ما عداه.

زرنا أيضاً مغارة جعيتا بغرابتها؛ وبعلبك بعَظَمَتها؛ وضيعة حَلوة في منطقة راشيا، بهدوئها ووداعتها، حيث تسكن عمتي وزوجها وأولادها... زرنا مناطق كثيرة من لبنان، أحببتُها كلها. أولاً لأننا نعيش عائلة واحدة مترابطة في كنف أبي وأمي وهذا ما كنتُ أفتقده في دمشق في تلك الآونة

بسبب غياب أبي الاضطراري عنا، وثانياً لأن لبنان كان عطوفاً مع أبي وضمّه بحنان حين قست عليه سورية!

بعد ركوبنا التلفريك في حريصا

هذا ما كان يعتمل في داخلي وأنا في سن السابعة والثامنة من العمر. لم أكن أدري حينها أن أبي قد تعرّض لمحاولات متكررة من التهديد بالتصفية الجسدية هناك! لقد أوردتُ ذلك في هوامش سيرته الذاتية "الجيل المُدان"، إذ إني وجدتُ رسائل التهديد تلك بين أوراقه الخاصة بعد رحيله في العام ٢٠٠٦، لكني ما زلتُ أفضّل عدم نشرها لما تحمله من أحقاد وبشاعة وكلام أقل ما يقال عنه إنه كلام رخيص!

خلال تلك الفترة الصعبة على ما يبدو، كان أبي شديد التوتر، غير أنه كان يحرص على ألا يُظهر لنا ذلك، نحن ولديه... إلا أننا في تلك الفترة بالذات وفي إحدى المرات أحدثنا ضجيجاً لم يحتمله في البيت، وكان يغطّ

في قيلولته... فما كان منه إلا أن قام من نومه ووضعنا فوق بعضنا على السرير وأخذ يضربنا بحزام بنطاله: كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي ذقنا فيها طعم عقاب قاس إلى هذا الحد... بكيتُ بحرقة رغم أن معظم الضربات كانت من نصيب ثائر... بكيتُ وقتها لأني لم أعهد أبي يضربنا، كذلك خشيتُ على أخي الذي تحمّل كل هذا عني بصمت! يبدو أن ثائر قد استوعب الحالة... وحسبه أنه حماني من الضربات الموجعة التي تلقّاها بجسده الغضّ!

نحن الأربعة في ظل سيدة حريصا

من المؤكد أن أبي قد ندم على فعلته تلك، ودليلي على ذلك أنه لم "يقترف" مثل هذا "الإثم" الأبوي في حقنا من جديد... لقد سامحناه لأننا عرفنا في ما بعد سبب هذا الغضب المفاجئ.

ثائر وريم ومروان في حَلوَة ١٩٦٨

في ذاك العام ١٩٦٨، كنتُ متفوّقة في صفي، فأهداني أبي "عروسة" شقراء جميلة، ما زالت موجودة عندي إلى اليوم وما زلتُ أعتني بها وأمشِّط لها شعرها الأشقر الناعم... ثيابها زرقاء وعيناها زرقاوان واسمها Bella أي "جميلة" وهي تصغرني بثماني سنوات، لكنها، وعلى العكس مني، استطاعت أن تبقى طفلة كما كانت! أما أنا فقد حافظتُ على طفولتي من داخلي وفي أعماقي، وهذا ما عرفه عني الأصدقاء.

في إحدى المرات، كنا في السوق في بيروت، فرأى أبي فستاناً جميلاً أراد أن يشتريه لي... سألني عن رأيي بالفستان، أجبتُه بجدية طفولية: "لا، لا أريده... لم أحبه". فرضخ لرأيي لأنه لا يريد إجباري على أمر لا أحبه.

حين عدنا إلى "بيتنا"، لامتْني أمي قائلة: "كان جميلاً ذلك الفستان ويليق ببنت في مثل عمرك، لماذا لم تحبيه؟". فصارحتُها قائلة: "أحببتُه، لكنّ سعره غالٍ ولا أريد تحميل أبي مصاريف زائدة وغير ضرورية في ظروفنا هذه"!

اغرورقتْ عينا أمي بالدموع وعرفتْ أن تربيتها لم تذهب هباء؛ فهذا الفستان كان في نظري من "الكماليات" وليس من الأمور الهامة أو "الأهم"!

في ذاك العام أيضاً، دعانا الفنان فريد الأطرش إلى بيته في منطقة اليرزة اللبنانية، وقدّم عرضاً خاصاً، شاهدناه مع أصدقائه، لفيلمه الجميل "الحب الكبير"، مع سيدة الشاشة العربية فاتن حمامة وعميد المسرح العربي يوسف بك وهبة. أذكر من الحضور معنا في مشاهدة الفيلم، عازف الكمان المبدع عبود عبد العال.

بعد الانتهاء من عرض الفيلم، وقد صُوِّرت مشاهد منه في بيت فريد الأطرش، أخذنا أنا وثائر وعرّفنا إلى بيته الجميل، وأشار إلى المكان الذي اختبأت فيه فاتن حمامة تحت الطاولة الكبيرة، في أثناء الحفلة في الفيلم، كي تتفادى رؤية أبيها لها (يوسف وهبة) وهو المصوِّر الذي دُعي لتصوير هذه الحفلة!

كان فريد في غاية اللطف معنا ... وقد التقينا به مرة أخرى على مائدة الغداء في مقصف نبع الصفا، وهو المكان ذاته الذي غنّى فيه في هذا الفيلم أغنية " تأمر على الراس وعلى العين". أذكر أنه طلب للجميع طبق الضفادع المقليّة، إذ كان هو الداعي... وحين لم آكل حصتي من هذه الوجبة لعدم رغبتي في أكل اللحم أياً كان نوعه، قال لي: "ريم، ألا تريدين هذه الضفادع؟" قلتُ "لا، لا أحبها" ... فقال "أحسن، أنا أحبها"؛ واستولى على صحني بعد أن

فرغ من تناول وجبته، وشاركتْهُ ربطة عنقه في هذه الوجبة فتزيّنت ببقع الزيت. كان لطيفاً وممازحاً ويهتم بالأطفال!

لقد امتنعتُ عن أكل اللحم منذ طفولتي المبكرة إلى أن بلغتُ سنّ الحادية عشرة، فأصبت بفقر الدم، كما سبق وذكرت... لم أكن أقتنع بأننا يجب أن نذبح الحيوان لأكله... كنتُ وما زلتُ أشعر أن طاقتي الروحية أكبر بكثير من تحمّل جسدي لها!

في سن التاسعة من عمري، أصرّ أبي على تعليمي الصيد ببارودتي الـ ٩ ملم، لكني رفضتُ اصطياد العصافير وأكّدتُ له أني أستطيع إصابة الأهداف، وهكذا كان... كنتُ أضع عُلَباً من التَنَك وأصوّب عليها، وبهذا أجدتُ اصطياد الأهداف دون أن أؤذي العصافير.

وعلى ذكر العصافير، أذكر مرة وأنا في سنتي الجامعية الثالثة أو الرابعة، أني وجدتُ عصفوراً صغيراً على شرفة بيتنا، تحاول أمه تعليمه الطيران، وهو لا يقوى على ذلك. فلم أعرف ماذا أفعل... وضعتُ له بعض الخبز المبلول بالماء، وكتبتُ رسالة لأبي، كي لا أزعجه في قيلولته، بأن يهتمّ به لأن عليّ الذهاب إلى الجامعة... عدتُ مساء، فوجدتُ أبي قد أطعمه كما تفعل أمه العصفورة، لأنه صغير ولا يقوى على أكل الطعام من الصحن الصغير، لكنه استطاع الأكل من فم أبي... كنتُ فرحة أشدّ الفرح لأن أبي استطاع إنقاذ هذا العصفور الصغير... في اليوم التالي، عادت أمه مرة ثانية وأخذت تدرّبه على الطيران لساعات، إلى أن اشتدّ عوده وطار معها في السماء الرحبة. أما رسالتي تلك، فوجدتُها بين أوراق أبي بعد رحيله، وقد كتبتُ له قائلة:

"بابا الغالي: هناك عصفور صغير... صغير على البلكون... لقد فتّتُ له خبزاً مع ماء... أرجو لو استطعت أن تهتم به ولو بطعام قليل لأنني سأذهب

إلى الجامعة. وهو صغير لدرجة لا يستطيع معها الطيران، كما أرجو ألا يموت... ملاحظة: أمه تحاول أن تراه، فأرجو ألا تفزعها، وشكراً. ريم".

الزمن الجميل في بيروت

بعد عودة أبي إلى دمشق، عدنا عدة مرات إلى بيروت وكنا نستطيع الخروج والدخول من الحدود السورية وإليها بشكل "شبه" طبيعي، مع تأخير مقصود فيها! قضينا مرةً حفل رأس السنة هناك مع أصدقاء أبي. أهل بيروت منفتحون، يعبّرون عن فرحهم "علناً" في الشوارع والساحات. الزينة في كلّ مكان والأضواء متلألئة في الشوارع، والناس جميعهم يحيّون بعضهم بعضاً ويفرحون بقدوم العام الجديد، وأظنه كان العام ١٩٧٠.

مَنْ يعرف بيروت في تلك الأيام يتوجّس شراً مما سوف يحدث، فتعبير الناس عن فرحهم المبالَغ فيه يوحي بأنه خوف من فقدانه أكثر منه سكينة المطمئنّ... لقد توقّع أبي حرباً طاحنة لا تُبقي ولا تذر بين هؤلاء الناس في يوم قريب... وفعلاً، وللأسف، جاء ذلك اليوم في ربيع العام ١٩٧٥.

بعد الذي جرى ويجري اليوم في بلادي، يبدو أننا، في لبنان وسورية، شعب يُبطِن أكثر بكثير مما يُظهِر!

لا بدّ أن نعترف جميعاً بأن آثامنا طغتْ على كلّ جمال بلادنا ... وعلينا تنقية أنفسنا من كل ما علق بها من جهل وأمراض اجتماعية وفهم خاطئ للماورائيات في حياتنا!

أذكر أيضاً، في ما أذكر، وفي شهر كانون الثاني / يناير من العام ١٩٧٢، أننا سافرنا إلى بيروت نحن الأربعة، وكنتُ في شارع الحمرا مع أبي نتمشّى سوياً... فجأة، توقّف للسلام على صديقه الشاعر الفلسطيني الشهيد، في ما بعد، كمال ناصر... طبعاً، حييته بكل تهذيب. ما لفتني في ذاك الوقت أنه قال لأبي، بما معناه "سوف يغتالوني يا أبا ثائر، أنا معرَّض هنا للقتل في أي لحظة"!

وبالفعل، تمّ اغتيال الشهيد كمال ناصر في ليلة ظلماء من العام ١٩٧٣، وأظنها ليلة ٩ نيسان / أبريل...

كان مستيقظاً حينها، يكتب قصيدة شعر، فدافع عن نفسه وأطلق الرصاص من مسدسه، غير أن الإسرائيليين الذين تسلّلوا إلى بيروت استطاعوا اغتياله، ولم يكتفوا بهذا، بل صلبوه على أرضية شقته.

حزنّا جميعاً لرحيله... لقد كان شاعراً رقيقاً ومناضلاً عنيداً، مؤمناً بقضيته وبالعروبة الحقّة وبتاريخها وببعثها... رحمه الله!

قرأتُ في العام ٢٠١٠ ديوانه الذي ضمّ معظم أعماله الشعرية، لكني ما زلتُ أذكر مطلع قصيدة له في منتصف الستينيات من القرن العشرين، لم أجدها في الديوان، يصف فيها ما حدث في انقلاب ٢٣ شباط / فبراير ١٩٦٦!

كمال ناصر، شاعر رقيق وصلب في آنٍ معاً، لكنه لم يأخذ حقه في الدراسة النقدية الأدبية وفي تدريس أشعاره الوطنية والغزلية الرقيقة...

❖❖❖

قد يكون من المفيد هنا، في نهاية هذا الفصل، أن أذكّر بمواقف أبي السياسية في أثناء وجوده في بيروت، وبالتحديد في العام ١٩٦٨، علّ الذكرى تنفع!

اختلف أبي مع الأستاذ ميشيل عفلق على أمور كثيرة، غير أنه حافظ على علاقته الشخصية الحسنة معه رغم الخلاف. آخر موقف سجّله على الأستاذ، وهو موقف يدينه برأي أبي الشخصي، هو إصدار الأستاذ ميشيل للبيان الذي يتهم فيه القيادة القومية بعد انقلاب ٢٣ شباط / فبراير من العام ١٩٦٦ بأنها لم تتحمّل مسؤولياتها ولم تكن على مستوى تلك المسؤوليات؛ كانت القيادة القومية، وأبي منها، في السجن آنذاك... بهذا

البيان شعر أبي بطعنة غادرة لأن الأستاذ ميشيل كان كمَنْ يعطي حجة كاملة لصلاح جديد ولجماعة ٢٣ شباط / فبراير بأنها حسناً فعلتْ أنْ أودعت القيادة القومية في السجن.

في الحقيقة، إن رأي الأستاذ ميشيل عفلق بأن القيادة القومية لم تتحمّل مسؤولياتها كان هو السبب الذي جعلها ترضخ لقرارات لم تكن على قناعة كاملة بها، وهذا ما دفع بالقيادة القطرية لحزب البعث إلى الانقلاب على القيادة القومية للحزب في ٢٣ شباط / فبراير... لقد قال الأستاذ ميشيل ذلك لأنه كان يريد من القيادة القومية الاستجابة لكل الشروط التي وضعها قبيل ٢٣ شباط / فبراير لمعاقبة القيادة القطرية. فعندما تمّ حلّ القيادة القطرية، ولم تكن القيادة القومية على قناعة بهذا العمل، كان ذلك استجابة لإلحاح الأستاذ ميشيل عفلق والأستاذ صلاح البيطار، وكان إلحاحاً في غير محلّه؛ وبرأي أبي كان هذا الموقف خاطئاً.

ثم في العام ١٩٦٨، بعد انقلاب العراق، اقترح أبي على الأستاذ ميشيل في بيروت إقامة فيدرالية حزبية كي يعود حزب البعث إلى وحدته مع الإقرار بحق القيادة القومية – جناح العراق – بإعادة الاعتبار إليها وإعطائها السلطة. اقترح أبي آنذاك إقامة جبهة وطنية من أجل مجابهة حكم ٢٣ شباط / فبراير في سورية، إلا أن الأستاذ ميشيل رحل ولم يأتِ منه الجواب على اقتراحات أبي، وفي ذلك جواب بليغ على تلك المرحلة من عمر الحزب التي تلت ٢٣ شباط / فبراير وعلى العلاقة بين الأستاذ ميشيل وحزب البعث في العراق وبين أبي ومَن يمثّلهم في تلك الآونة.

لكل تلك الأسباب كان موقف أبي والأستاذ صلاح البيطار موقفاً معروفاً ومعلناً آنذاك، ويتلخّص بما يلي:

هما ضد الانقلاب العسكري للبعث في دمشق، الذي جرى في ٢٣ شباط / فبراير ١٩٦٦ وألغى شرعية الحزب؛ فكيف يمكن لهما أن يكونا مع انقلاب من النوع ذاته في بغداد في العام ١٩٦٨؟!

لذلك، قررا عدم الذهاب إلى بغداد، ونصحا رفاقهما في الحزب من الصف الثاني، لا بل أمَراهم، بالذهاب إلى القاهرة في حال اضطرّوا إلى ترك بيروت، وفي هذا تكذيب لكل ما نُشِر عكس ذلك، في بعض الكتب، من بعض الموتورين الذين لم يكتبوا حقيقة ما جرى بل لجأوا إلى الكذب في هذا الموضوع...

قد يكون أُمْلِيَ عليهم أو قد يتعلّق الأمر بمصالح شخصية لم يستطيعوا التسلّق إليها على أكتاف أبي، ولم يحققوا ما كانوا يصبون إليه من سلطة... لقد كان ذلك كلّه بقصد أذيّته ولا شك، عن سابق إصرار، وأبي كان يعي ذلك تماماً؛ لكنهم عادوا في ما بعد لنقض افترائهم ذاك في كتاب آخر!

لقد أكّد أبي، وهو معروف بصدق قوله وفعله، على هذا الموقف في سيرته الذاتية (الجيل المُدان، بيروت، دار رياض الريّس، ٢٠٠٨) في الصفحة ٤٣١ ، إذ تطرّق للأسباب التي دعته ورفاقه لعدم الذهاب إلى بغداد آنذاك.

٦- جدتي سميّة

بدأتُ بتوزيع بطاقات حفل عرس أخي، بناء على طلبه، قبل خمسة أيام فقط من زواجه، وأول بطاقة اخترتُها أن تكون لجدتي سميّة. دخلتُ عليها فوجدتُها مستلقية... أعطيتُها البطاقة وقبّلتُ يدها طالبةً منها أن تصلّي وتدعو له بالتوفيق. دعتْ له ولي من كل قلبها. كانت متعبة جداً...

هي من مواليد بداية القرن العشرين. رحلتْ عن دنيانا في ٢٨ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٤، بعد أسبوع واحد فقط على انقضاء العرس. لقد كانت مرهفة الحس شديدة اللطف والشفافية... استسلمت لقَدَرها في هذا التوقيت كي لا تنغّص الفرحة على أحد...

لم أشعر بحنان الجدّة إلا معها. هي جدتي لأمي... اسمها سميّة فرح... جميلة، ممشوقة القوام، صبورة وحنونة.

بعد زواج أمي وأبي، لم تستكنْ، فعلاقتها بابنتها هند علاقة خاصة، فيها الكثير من المحبة والعطف والاحترام والتعاطف والأسرار.

كانت جدتي تصف ابنتها قائلة: "هند، الله خالقها أكابر".

حين كانت تعاني من بيت الحمى أو من الزوج والأولاد، كانت لا تشتكي إلا لابنتها "هنّود".

قلتُ إنها لم تستكنْ بعد أن تزوجت ابنتها ولم ترغب، في الوقت عينه، بكسر "فرمان" زوجها القاضي بالقطيعة التامة لمنصور وهند، فلجأت إلى

صديقة ابنتها هيام مردم التي تسكن بالقرب من بيت هند وطلبت منها دعوتها إلى بيتها. وهكذا، جاءت أمي لترى جدتي في بيت صديقتها. السؤال الأول الذي طرحته جدتي على أمي هو:

"لماذا أخفيتِ عني هذا الأمر؟ وهل ستقدرين علَى تحمّل عناء هذا الخيار؟" فأجابتها أمي بالإيجاب. احتضنتها وقبّلتها بحنان الأم ودعتْ لها قائلة: "ليكن اللّه معك يا ابنتي فحياتك الاجتماعية لن تكون سهلة على الإطلاق. سوف تعانين من الجهتين: من عائلتك ومن أهل زوجك!"...

وقد صدق توقّعها!

جدتي سميّة: الحنان مجسّداً

بقيت جدتي "تناضل" في بيتها إلى أن سمح لها جدي بعد عشر سنوات بزيارة هند في بيتها، أي بعد أن دخل منصور السجن السياسي. أما قبل ذلك، فقد كانت تغتنم فرص وجود هند عند صديقاتها أو أختها الكبرى لتراها وتطمئن عليها وعلينا، نحن حفيديها.

بقيت أمي على علاقة طيبة وخاصة بجدتي، وبقيت على عهدها بتخصيص جزء من راتبها لها كي تكون حرّة اقتصادياً. أما جدتي فكانت دوماً تتحفنا بهداياها الجميلة: أحلى الألبسة وأطيب الشوكولا والملبّس والسكاكر بطعم النعناع، وكانت تسميها "المطعّم". أجمل الفساتين

والبيجامات وقمصان النوم التي ارتديتُها، وأطيب السكاكر والمهلبيّة[٨]، وكانت تسميها "الألماسيّة" و"الخبيصة[٩]" والبخوت أو الفطائر المقلية بالخبيصة" التي أكلتُها في حياتي كانت من يديّ جدتي سميّة.

هند وأمها: أعشق حنانهما

بعد زجّ أبي في السجن وخلال فترة المنفى، بدأت جدتي تزورنا في البيت بعد أن أُسقط عنها "فرمان" القطيعة الشهير. كانت تهتم بنا أنا وثائر اهتماماً خاصاً وتَحاول أن تحضّر لنا شطائر طيبة ومختلفة عمّا تعودناه من طعام: مثل شطيرة اللبنة والزيتون والمربّى أو الجبن والمربّى. لم أكن أستسيغ كثيراً هذه الخلطات الغريبة، لأن شهيتي للطعام في تلك السن كانت

---

[٨] نوع من الحلوى الشامية قوامها من الحليب والسكر والنشاء وماء الزهر وتوضع حبّات اللوز المقشور عليها وتؤكل باردة.

[٩] نوع من الحلوى الشامية قوامها من دبس العنب أو دبس الزبيب والنشاء وتوضع حبّات الجوز عليها وتصنَع في عيد الغطاس أي في ٦ كانون الثاني / يناير من كل عام.

ضعيفة، فكنتُ أعترض رافضة وأقول "ما"... فتجيبني آسفة: "غريب... كلمة "ما" على رأس لسانها"! وتستطرد فتقول: "الكلمة يللي ما بتنسمع، يا ذلّ قايلها"!

أما أخي فكان يحب مثل هذه الشطائر "العجيبة"، وكانت جدتي تُسَرّ منه أيّما سرور.

تحمّلتِ جدتي الكثير من الصعاب في حياتها وكانت راضية دوماً ومحبّة للآخر مهما آذاها... وقد تحمّلتِ أموراً صعبة جداً من أقرب الناس إليها، ومن بعض فلذات كبدها... رحمها الله.

حين سافرتُ إلى يوغوسلافيا، مرّتِ وأنا هناك، في شهر تشرين الثاني / نوفمبر من العام ١٩٨٤، الذكرى الأولى لرحيل جدي حبيب ، فأرسلتُ لجدتي سميّة بطاقة جميلة بثثتُها مشاعري الصادقة والمُحبّة.

كنتُ وما زلتُ أشعر أن لطف هذه السيدة وجمالها وصدقها في محبتنا يفوق الوصف! شعرتُ دوماً أنها عوّضتني عن أمور كثيرة فقدتُها في أثناء أعوام القطيعة القاسية الأربعة عشر التي فرضها جدي على الجميع؛ وكأنّ هذه السنوات قد قابلتِ عدد سنوات الحب الأربع عشرة... أتساءل، أهي المصادفة البحتة أم أنه قرار مقصود ونابع من " إجراءات الفرمان" إياه؟!

أحسستُ طيلة فترة حياتها بحبها العميق واهتمامها المتواصل بكل التفاصيل التي تتعلّق بي، بمنتهى البساطة واللطف والحنان... حين اخترتُ دراسة الأدب الفرنسي، كانت تحدثني بالفرنسية التي " تعلّمتْها" وهي صغيرة، وجهاً لوجه أو على الهاتف، حين كنتُ أطمئنّ عليها وعلى صحتها.

في أواخر أيام حياتها، أصبحت أمي شديدة الشَبَه بأمها... كنتُ أقول لها: "لقد أخذتِ الطيبة والسماحة والتسامح من جدتي في كل حياتك، وها أنت تشبهينها الآن في الشكل أيضاً... كم أنا محظوظة لأنك أمي ولأنها جدتي"!

٧- جدّي سلطان

رحل جدي، سلطان الأطرش صباح يوم الجمعة الواقع في ٢٦ آذار / مارس ١٩٨٢ ، وكان تشييعه الذي شارك فيه أكثر من نصف مليون إنسان، يوم الأحد في ٢٨ آذار / مارس في الملعب البلدي في السويداء. جاء المشيِّعون من بلاد الشام: من سورية والجولان المحتلّ وفلسطين المحتلّة ولبنان والأردن والعراق... ومن بين الحاضرين كان الراحل أبو عمّار، ياسر عرفات...

في ذلك اليوم، حمل الجيش العربي السوري النعش على الأكتاف، عازفاً نشيد الشهيد ووداعه، ودقّت أجراس الكنائس في أرجاء القريّا، وهو الذي كان له السبق في طلب بنائها وتوسيعها وتزويدها بالأجراس!

حُمل النعش في طوّافة عسكرية سورية حلّقت فوق كل مواقع معارك الثورة السورية الكبرى. رافق النعش في الطوافة العم اليان الشويري الشقيق الأصغر لجدي لأمي، وعمي ناصر أيضاً. أما أنا، فرافقتُ أبي إلى الملعب البلدي... حين دخلنا تزاحم الناس للسلام على أبي وتعزيته. شعرتُ في تلك اللحظة أن جدي هو جدّ هؤلاء الناس جميعاً...لهم فيه مثلما لي تماماً... أما في البيت حين كنتُ بجانب نعشه، فقد أحسستُ أنه يخصني دوناً عن الآخرين...

رغم هذا الازدحام الذي لم تشهد البلاد مثله في تاريخها، مضى التشييع بسلام: وُضِع النعش على عربة مدفع وقد لفّه العَلَم السوري، إلا أن الناس أرادوا رفعه على الأكتاف، مما اضطرّ أفراد الشرطة العسكرية إلى الوقوف على العربة ورفع النعش عالياً على أكتافهم طيلة فترة التشييع التي دامت ساعات وساعات... وقد شاركتْ شخصيات رسمية من سورية ولبنان وفلسطين؛ إضافة إلى أن اليوم السابق للتشييع قد شهد زيارة رئيس الجمهورية العربية السورية وأعضاء الحكومة لتعزيتنا في بيت جدّي في القريّا.

قرأ أبي في الملعب البلدي بعد انتهاء كل الكلمات الرسمية، كلمة آل الفقيد، فانهمر الرصاص، حماسةً، انهمار المطر، لكن أبي لم يرفّ له جفن... تابع الكلمة ثم قرأ الوصية السياسية التي أملاها جدي عليه، وهو الثائر الوحيد في سورية الذي ترك وصية سياسية.

كل هذا وغيره من الصور والمقالات والتسجيلات الصوتية لسلطان باشا الأطرش إضافة إلى خريطة لمعارك الثورة السورية الكبرى، قمتُ بإنجازه وتوثيقه ونشره على موقع على شبكة الإنترنت أعددتُه خصيصاً باسم القائد العام للثورة السورية الكبرى، وعنوانه:

www.sultanalattrache.org

لم أتعرّف إلى جدي إلا وأنا في عمر التاسعة أو العاشرة، نتيجة زواج أهلي والظروف الاجتماعية التي أحاطت بهذا الزواج؛ وسوف أطلعكم على تفاصيل ذلك في الفصل الأخير من كتابي هذا. غير أني شعرتُ من معاملته بمحبته واحتضانه لي وإعجابه بتفوّقي في دراستي.

من ذكرياتي معه في طفولتي، أني كنتُ أنصتُ إلى وقع خطاه متكئاً على عصاه بوَجَل واحترام! حين أصيبت إحدى فقِرات ظهره بفتق في النواة

اللبيّة، أو ما يسمى بالديسك، جاء للعلاج في دمشق وبقي في بيتنا هناك وكان جباراً في تحمّل الآلام، إذ إنني لم أسمعه يشتكي مطلقاً رغم صعوبة وضعه، إلى أن قُرِّر له العمل الجراحي في مشفى الجامعة الأميركية في بيروت.

علّق جرّاح المشفى حينها قائلاً: " إن بنية عظامه تناسب شاباً في الخامسة والثلاثين من العمر ويفاجَأ المرء حين يعرف أن هذا العمود الفقري هو لرجل في مثل سنه (كان عمره في ذلك الوقت ثلاثاً وثمانين سنة)!

بعد إتمام العملية الجراحية، ذهب، بناء على نصيحة الطبيب، إلى منطقة فالوغا اللبنانية للنقاهة. فسافرنا إلى هناك لرؤيته والاطمئنان عليه وعلى أبي الذي كان يلازمه طيلة مدة الاستشفاء والنقاهة، وذلك في صيف العام ١٩٧١ . في البيت في فالوغا، كان جدي يُجلِسني بجانبه على الأرجوحة الموجودة على الشرفة ويضع يدي الصغيرة بين يديه، فترتاح فيهما ... كنتُ في الواقع أشعر بقساوتهما وعطفهما في آنٍ واحد. كان يقول لأبي: " انظر إلى أصابع يديها، إنها أصابع الصقر"!

لذلك، حين كبرتُ، وضعتُ في غرفتي صورة لجدي حاملاً صقره على يده دون قفاز يحميها ... فصقره لم يؤذه ولم يخدشه مطلقاً.

حين شببتُ ودخلتُ الجامعة، حصلتُ على منحة دراسية في جامعة السوربون في باريس في صيف السنة الثالثة للدراسة لمدة شهر ونصف الشهر. كنتُ متأثرة من كوني أدرس في الجامعة ذاتها التي درس فيها أبي في أواخر الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين، وها أنا ذي أسير في الأماكن ذاتها التي ارتادها أبي ولكن بعد ثلاثين عاماً، أي في العام ١٩٨١ . لقد شعرتُ بطيفه وبأنفاسه في ممرات الجامعة ومدرّجاتها ...

سلطان باشا الأطرش يحمل صقره على يده. القريا، الخمسينيات من القرن العشرين.

مع جدي في فالوغا: كان يقول لي "أصابعك مثل أصابع الصقر" ١٩٧١

مع جدنا في فالوغا ١٩٧١

أرسلتُ بطاقات جميلة إلى الجميع: إلى أمي وأبي وأخي وأصدقائي وإلى جدتي سميّة... كان يُلِحّ عليّ شعور قوي كي أرسل بطاقة لجدي سلطان... احترتُ في أمري... أيّ بطاقة أختار لهذا الرجل العظيم؟... أخيراً، وفي أثناء زيارتي لقصر فيرساي، عقدتُ العزم على اختيار بطاقة تحمل صورة الملك لويس الرابع عشر، إذ كان يعتلي صهوة جواده، وهذا التمثال موجود في الباحة الرئيسية للقصر.

كتبتُ لجدي بما معناه: صحيح أنني أدرس اللغة الفرنسية في فرنسا وأنهل من ثقافتها، لكني لن أنسى ما فعله حكامها وما فعلتْه سياستها في بلادنا من أذى، وأكّدتُ له على رفضي التام للصيغة الاستعمارية التي نادتْ بها فرنسا... أرسلتُ البطاقة إلى أبي كي يوصلها لجدي؛ وحين قرأها، قال له:

"منصور، ابنتك تدرس الأدب، هذا صحيح، ولكنها تكتب فلسفة!"...

أبي وجدي في فالوغا ١٩٧١

بعد رحيله، التقيتُ بأستاذي الفرنسي في الجامعة جان – إيف لوبيتال في مكتبة الأسد الوطنية حيث كنتُ أعمل وروى لي كيف زار القريّا بصحبة طلاب كلية الآداب في أواخر السبعينيات من القرن العشرين، وكيف دعاه جدي وأجلسه إلى جانبه في المضافة معبِّراً له عن احترامه للثقافة الفرنسية والأساتذة الفرنسيين الذين يعلّمون اللغة والثقافة الفرنسيتين لأبنائنا السوريين. وكيف أنه ما ثار ورفاقه إلا ضد الاحتلال الفرنسي والجنود المحتلين لأرض سورية والساعين لتقسيمها... والفارق شاسع بين الحالتين. كان الأستاذ لوبيتال يروي لي هذه الحادثة والدموع في عينيه: دموع الإعجاب والاحترام لهذا الرجل الذي يحترم الثقافة بكل أشكالها ويكره الظلم والاستعمار بكل أشكاله أيضاً...

في العام ٢٠٠٧ عدنا والتقينا أنا والأستاذ لوبيتال وقد أصبح المدير العام في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى الذي أدرّس فيه، فعاد وقصّ هذه الحادثة على زملائي في المعهد وهو يعبّر بالطريقة ذاتها عن إعجابه بجدي وإكباره لهذا الرجل الوطني والمنفتح.

في أحد أيام عيد الأضحى من العام ١٩٨١ ، كنا نجتمع في بيت القريّا مع أولاد عمتي، جالسين في "البيت الغربي" أي الغرفة الغربية من البيت والتي كانت غرفة استقبال في ذلك الوقت. كنا نتحدث ونلهو ونستمع للموسيقى... وفجأة غلَبتْنا الحماسة فبدأنا بالدبكة الجبلية معاً. سمع أبي وجدي، وكانا جالسين في "البيت الكبير" وهي الغرفة الكبيرة التي كان يقضي فيها جدي كل أوقاته، في الصحو والنوم، في أواخر أيام حياته... جاء أبي إلينا رسولاً من جدي ليطلب منا الذهاب إليه ورقص الدبكة أمامه. قلتُ لأبي: "لا أستطيع... أنا أخجل"

مع نسيب ومروان في القريا ١٩٨١

فأجابني: "هذه رغبة جدك ولا جدال فيها.. هيا معي"! فعلاً، ذهبنا جميعاً إليه ورقصنا الدبكة الجبلية معاً، فأُعجِب جدي برقصي قائلاً: "ست الكل رشيقة في رقص الدبكة".

كانت تلك السهرة من أحلى ما استمتعتُ به من سهرات في صباي وما زلت أذكر تلك اللحظات بحنان ودفء.

حين تعرّض أخي لحادث سيارة في العام ١٩٧٥ وكُسِرتْ عظم فخذه وهو يقود سيارة الجيب الزراعية التي يملكها جدي على طريق القريّا – السويداء، غضب على هذه السيارة التي تسببت بحادث لحفيده وأراد إحراقها في الساحة أمام البيت للتخلّص منها.

كان يطمئن على ثائر في المشفى هاتفياً... ثم حين تعافى، أخذ يستعين بعصا لتساعده على المشي خلال فترة النقاهة، إلى أن تعافى تماماً... فطلب منه جدي أن يمشي أمامه ليطمئن أن لا أثر للحادثة على مشيته... كان حنوناً وقلقاً على شيخ الشباب، ثائر، والحمد لله أن الحادث قد انقضى بسلام رغم كل عذابات الاستشفاء!

من المواقف التي لا تُنسى لسلطان باشا الأطرش وتصلح عظة وعبرة، خاصة في أيامنا هذه التي تمرّ فيها سورية بأزمة رهيبة ومحنة لا سابق لها، إذ إن حرباً كونيّة تُشَنّ ضدها من الغرب والكيان الصهيوني ومَنْ لفّ لفّهم من العرب وغيرهم، ثمة موقف اتخذه جدي خلال حملة الديكتاتور أديب الشيشكلي العسكرية على جبل العرب، والتي راح ضحيتها أكثر من مئة شهيد مدني أعزل، في زمن كان فيه عدد سكان محافظة السويداء لا يتعدّى الخمسين ألف نسمة، وذلك في شتاء العام ١٩٥٤. لقد أراد الشيشكلي التخلّص من سلطان الأطرش المناهض للديكتاتورية، فحاصر بلدته القريّا من أجل تحقيق هذا الهدف.

في القريا، ثائر بعد تعافيه مع جديه والعم زيد والعم محمد وذوقان

كان ابنه منصور في السجن آنذاك لخوضه النضال السياسي من خلال حزب البعث ضد الديكتاتورية.

رفض سلطان باشا الأطرش رفع السلاح في وجه الجيش السوري، رغم أنه أفنى مع ٤٠٠ من الثوار في الجبل حملة الجنرال الفرنسي ميشو التي كان تعدادها ١٣٠٠٠ جندي وضابط فرنسي، وذلك في معركة المزرعة الشهيرة في أوائل آب / أغسطس ١٩٢٥ !

اختار المنفى من جديد، فذهب إلى الأردن سيراً على الأقدام، وقد خرج معه ابنه ناصر وبعض الأخوة من السويداء في ظروف مناخية قاسية لتفويت الفرصة على الطاغية، الذي كان يخطّط لتدمير الجبل وإشعال نار الفتنة وتقويض الوحدة الوطنية وتعريض الوطن للتمزيق من الداخل.

روى لي الدكتور كمال عامر أنه شاهد بأم عينه شباباً من الجبل وقد أسروا ثلاثة جنود من الجيش السوري وأتوا بهم إلى الباشا سلطان، فأمر

الشباب بفكّ قيودهم وإطعامهم وتكريمهم ثم إعادتهم إلى قطعتهم العسكرية قائلاً لهم: " هؤلاء أولادي... أنا أرفض محاربة الجيش السوري".

إنه خيار وطني خالص!

خرج إلى الأردن في أواخر شهر كانون الثاني / يناير ١٩٥٤ وعاد في ٧ آذار / مارس من العام ذاته بعد سقوط الشيشكلي في أواخر شباط / فبراير.

دخل بعض الجنود السوريين إلى بيت سلطان باشا الأطرش بعد خروجه إلى الأردن وعاثوا فيه فساداً وتخريباً، فدمّروا بيت المؤونة ومكتبة ابنه منصور وسرقوا وأحرقوا وثائق هامة، وفجّروا قنبلة في مضافة داره.

أبي أمام مكتبته المدمّرة في القريا ١٩٥٤

حين علم سلطان الأطرش بمقتل الشيشكلي في البرازيل، أكد على أن هذا التصرف فردي وهو لا يؤيّد الثأر...

إذ إن شخصاً مغترباً في البرازيل وأصله من السويداء ثأر لعائلته التي راحت ضحية تلك الحملة العسكرية التي جرّدها الشيشكلي على السويداء، بإطلاق النار عليه مواجهةً، ثم قام بتسليم نفسه وقضى فترة سجنه التي دامت خمس عشرة سنة في البرازيل.

في أثناء الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ – ١٩٢٧)، وفي أواخر شهر آب / أغسطس من العام ١٩٢٦ ، في خربة الصوخر الواقعة بين بكّا وأم الرمّان، في المنطقة الجنوبية من محافظة السويداء، أو ما يُسَمّى بالمقرن الجنوبي، وقعت معركة ضارية بين ثوار الثورة السورية الكبرى بقيادة سلطان باشا الأطرش وبين الجنود الفرنسيين.

دامت المعركة أكثر من ساعتين، خسر فيها الفرنسيون خمسة عشر قتيلاً وعدداً كبيراً من الجرحى، ولم تزدْ خسائر الثوار عن خمسة شهداء؛ إلا أن جواد سلطان قُتِل وسط المعمعة، فاضطرّ الثوار إلى أن يقوموا بهجمة صاعقة على خيّالة المستعمِر الفرنسي لإبعادهم عنه، وفي الوقت نفسه، سارع أحدهم إليه بجواد آخر فامتطاه واستأنف القتال مع الثوار إلى أن تمكّنوا من هزيمة الفرنسيين في تلك المعركة والاستيلاء على خيولهم وبغالهم المحمّلة بالمؤن والذخيرة.

في هذه المعركة، فجّر الفرنسيون قنابل وقذائف عديدة، أودتْ إحدى شظاياها بحصان سلطان الأطرش في رقبته، وثقّبَتْ عباءته هو بثقوب عديدة من أثر الشظايا الكثيرة، لكنه لم يُخدَش!

حين انقشع غبار هذه المعركة، انتبه الثوار إلى ما جرى وإلى أن قائدهم نجا بأعجوبة، فطلب الثائر صبحي الخضرة، وهو فلسطيني، من جدي سلطان إعطاءه هذه العباءة المثقّبة كي يضعها في متحف المسجد الأقصى في القدس... وهكذا كان...

أكّدت لي صديقتان إسبانيتان وجود هذه العباءة في متحف المسجد الأقصى وقد شاهدتاها بأم العين في العام ١٩٩٦ حين تطوعتا للعمل مع الصليب الأحمر هناك. منذ ذلك التاريخ، وأنا أحاول الحصول على صورة لهذه العباءة وأوصي طلابي الأجانب الذين يزورون القدس بتصويرها وإرسالها لي بالبريد الإلكتروني... لكن، يبدو أن المتحف كان يخضع للترميم حسب ما قاله لي بعضهم... وأنا إلى اليوم لم أفقد الأمل في الحصول على صورة لهذه العباءة... لذلك أقول دوماً: " أنا شخصياً لي حق في القدس، فعباءة جدي فيها"! إضافة إلى إيماني بحقي العربي السوري في أن تكون فلسطين والقدس عربيتين! أتمنى يوماً زيارة فلسطين العربية من النهر إلى البحر.

أحب أن أوضّح للقارئ أن سلطان باشا الأطرش كان له رأي في السياسة في بلده بعد الاستقلال... لقد كان متعاطفاً مع فكر حزب البعث الذي أعطى الأمل للكثيرين بولادة " جيل عربي جديد" مؤمن بالوحدة والعروبة وتحرير فلسطين.

في العام ١٩٤٦، أرسل سلطان الأطرش برقية إلى الحكومة السورية اعترض فيها على المرسوم رقم ٥٠ الذي منح الحكومة سلطة استبدادية تتجاوز بها السلطة التشريعية في سورية، إضافة إلى مطالبته بإخلاء سبيل الأستاذ فهمي المحايري الذي اعتُقِل تعسّفاً بسبب موقفه المعارِض يومذاك. فأُخلي سبيل الموقوف وأُلغي هذا المرسوم. كل ذلك أدى إلى جفاء بين سلطان باشا الأطرش والحكومة في دمشق، فلم تقم هذه الأخيرة بدعوة جدي لحضور أول احتفال لعيد الجلاء، وأخذت تفتعل الحوادث المؤسفة لإذكاء نار الفتنة في جبل العرب، فنجحت في ذلك وحصل صدام في الجبل بين أبنائه في العام ١٩٤٧، سمّي آنذاك بحركة الشعبيين والطرشان.

غير أن العقلاء استطاعوا لملمة الأمور وتداركها، وعُقِد الصلح بين الأطراف في ما بعد ولعب الزمن دوره في عودة المياه إلى مجاريها في الجبل.

كان سلطان الأطرش يتوجّس دوماً من المؤامرات الاستعمارية ضد سورية، لأنه كان يدرك أهمية موقعها الجيو- سياسي وغناها بالثروات، لذلك أوصى الرئيس حافظ الأسد حين زاره في مشفى تشرين في دمشق في العام ١٩٨١ ، وكان قد خضع لعمل جراحي بسيط في عينيه، جواباً على السيد الرئيس الذي أراد أن ينفّذ له أي شيء يطلبه، قائلاً: "جيلنا عمل ما استطاع كي يحصل هذا البلد على استقلاله، والمطلوب منكم الحفاظ على هذا الاستقلال وعدم التفريط به؛ هذا كل ما أريده"!

عرضت الحكومة الوطنية السورية، بعد الاستقلال، منصب وزير الدفاع أو أي منصب سياسي آخر على سلطان باشا الأطرش، كما أنها قدّمتْ له مبلغاً كبيراً من المال يُعتَبَر ثروة في ذاك الوقت، غير أنه رفض العرضين بحزم قائلاً آنذاك: "أنا فلاح ولا أريد أي منصب سياسي... أنا أوصيكم فقط بالحفاظ على استقلال البلاد الذي بذلنا دماءنا في سبيله"!

لقد قال كلمته الشهيرة حين استشهد وزير الحربية السوري يوسف العظمة في ميسلون في ٢٤ تموز / يوليو ١٩٢٠، إذ جمع سلطان خيّالة الجبل ليصلوا معاً إلى شمال محافظة السويداء، لنجدته في ميسلون، فجاءه خبر استشهاده هناك: " خسارة معركة لا تعني خسارة الحرب". وكان على حق!

قررت دولة الجمهورية العربية السورية إقامة صرح ومتحف قبالة بيت سلطان باشا الأطرش في القريّا، تخليداً لشهداء الثورة السورية الكبرى. يضمّ هذا الصرح ضريح القائد العام للثورة سلطان باشا الأطرش ومقتنياته الشخصية وأسلحته وغنائم الثوار من المستعمِر الفرنسي.

تمّ وضع حجر الأساس في العام ١٩٨٩ وتمّ تدشينه في ١٧ نيسان / أبريل ٢٠١٠ !

أما رفاته فقد نُقل إلى الصرح في احتفال مهيب، رسمي وشعبي، إذ حُمِل على عربة مدفع ملفوفاً بالعَلَم السوري، تكريماً لنضاله...

رافقت نقل الرفات يمامات طارت معه مرفرفة إلى أن وصل إلى الصرح... حطّت قليلاً، ثم عادت من حيث أتت!

عمل مكتب المهندس فريد دوماني، وهو من أقارب أمي، على تصميم مشروع هذا الصرح، وأشرف أخي على تنفيذه، تبرّعاً، كونه مهندساً إنشائياً، وقد ساهم أيضاً في تصميمه، وكان التنفيذ للإنشاءات العسكرية السورية.

أما الفنانون السوريون إدوار شهدا ونبيل السمّان وغسان نعنع، فقد قاموا بتصميم لوحة جدارية بانورامية فسيفسائية، مساحتها مئة وثلاثون متراً مربعاً، تحكي قصة النضال السوري من الثورة العربية الكبرى في العام ١٩١٦ ، مروراً بالثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ – ١٩٢٧) ثم مرحلة المقاومة والمنفى (١٩٢٧ – ١٩٣٧) والنضال من أجل الاستقلال، وصولاً إلى الجلاء في ١٧ نيسان / أبريل ١٩٤٦ .

هي لوحة دائرية رائعة في قبّة الصرح الداخلية، ساهمتُ أنا في تزويد الفنانين الثلاثة بالمراجع والكتب المفيدة لهم في قراءاتهم عن تاريخ الثورة السورية الكبرى، كما ساهمتُ مع ثائر في إعطاء رأي في اللوحات المرسومة قبل تنفيذها على الجدارية بأحجار الفسيفساء الصغيرة... كان ذلك الرأي مفيداً في تعديل بعض التفاصيل في تلك اللوحات. لقد كُتب عن هذا الصرح في الإنترنت ومن أشمل ما كُتِب مقالة ومقابلات في موقع اكتشف سورية. وهذا هو الرابط:

http://www.discover-syria.com/news/6665

كما أن صور الصرح موجودة على موقع سلطان باشا الأطرش في الإنترنت.

لقد كتبتُ مقالة باللغة الإنكليزية في العام ٢٠١٠، نُشِرت في مجلة أميركية عنوانها (Our Heritage)، تراثنا، تصدر عن الجالية المسلمة لطائفة الموحّدين، وذلك بناء على طلب من إحدى المسؤولات عن هذه المجلة، تحدثتُ فيها عن هذا الصرح وأهميته ووصفه وعن اللوحة البانورامية تلك؛ وشجّعتُ أعضاء تلك الجالية للمجيء إلى سورية وزيارته، من أجل ترسيخ روح الانتماء للمقاومة الوطنية ضد المحتلّ عند الجيل الجديد منهم. كما أنني زوّدتُ المقالة بصور التقطتُها بنفسي للصرح.

في ١٧ نيسان / أبريل من العام ٢٠٠٤، خاطبتُه في رسالة نشرتُها في الصحافة السورية وعلى موقعي على الإنترنت، وأرسلتُها بالفاكس إلى أبي في القريّا، فقرأها، دامعاً، على مسامع المجتمعين في مضافة سلطان الأطرش. تلك هي، فلنقرأها سوياً:

صرح شهداء الثورة السورية الكبرى في القريا ويضم ضريح القائد العام للثورة

جدي الحبيب،

زمانك كان مختلفاً . اجتمعت الإرادة التي تؤمن بالأمة العربية وبالوطن الحر، وكان شعار ثوار العام ١٩٢٥ ضد الانتداب الفرنسي "الدين لله والوطن للجميع" . صحيح أن هذا كان نهجك منذ العام ١٩١٦ في الثورة العربية الكبرى، إلاّ أن الوعي الذي تحلّت به قيادة ثورة ١٩٢٥ وثوارها كان استثنائياً .

أنا أعرف تمام المعرفة بأنه لم يتسنَ لك العلم كما أتيح لأجيال اليوم، إلا أن فطرتكم جميعاً كانت البوصلة الصحيحة التي تقود إلى المواقف الوطنية الصحيحة.

اليوم يا جدي، ونحن في ذكرى استقلال سورية الثامنة والخمسين، أرى سورية بجناحيها النازفين، فلسطين والعراق، قد بدت حزينة ، شاحبة. لقد قررت العُرب التخلّي عن صنوَي سورية، ولسان حالها يقول"فاذهب أنت وربّك فقاتلا، إنّا ها هنا قاعدون"!

بغداد سقطت منذ عام وفي كل يوم يسقط عشرات العراقيين والفلسطينيين، يقتلهم طاغية واحد بوجهين، أحدهما أشنع من الآخر في الأصولية والتعصب والإجرام والظلم والقتل والتدمير ومصّ الدماء الطاهرة.

الفلوجة دامية ولا من مغيث؛ تُرك العراق وحيداً وتُركت فلسطين قبله وحيدةً، و"العربان" يتسابقون لنيل رضى سيد البيت الأبيض،"سوّد الله وجهه ووجوههم" ، ليكونوا حلفاء استراتيجيين له. والطّامة الكبرى هي اقتناع معظم الناس، من المحيط إلى الخليج، بأننا لن نستطيع الوقوف في وجه دولة عظمى، فليس هناك توازن في القوى.

قل لي، بالله عليك، كيف قاومتم فرنسا، وكانت في العشرينات من القرن الماضي دولة عظمى وكيف أسقطتم طائراتها ببنادقكم البسيطة؟!

هذا ما يفعله شعب العراق وشعب فلسطين رغم كل الأسلحة الفتاكة التي قيل إنها تصهر الحديد الصلب وتبخّره بمن عليه وتفحّم الشهداء.

إلا أنني اليوم أخجل من نفسي ومن عروبتي حين أجدنا مستمرّين في حياتنا اليومية و"العربان" من حولنا على ما هم عليه من التخاذل والمهانة والاستسلام لقَدَر بوش وشارون!

فهل زمانكم كان أفضل من زماننا؟ أم أن الأمر كما عبّر عنه الإمام الشافعي، رضي الله عنه، حين قال:

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيب سوانا

ونهجو ذا الزمان بغير ذنب ولو نطق الزمان لنا هجانا

أقبّل يديك وخدّك وجبينك يا جدي وأدعو لك ولإخوانك بالرحمة، وأعتذر منكم جميعاً نيابةً عن كل العُرب و"العربان" .

د. ريم منصور الأطرش

أطلقتُ يوم التدشين موقعاً باسم جدي على الإنترنت، كنت قد أوردتُ عنوانه في بداية هذا الفصل، وأدعوكم جميعاً لزيارته لما فيه من تسجيلات بصوت الباشا سلطان وصور متنوعة ولوحات فنية ومقالات وقصائد شعرية قيلَت في الثورة، ومنها (سلطان باشا الأطرش والتَنْك[١٠]) للشاعر المهجري رشيد سليم الخوري، الملقّب بالشاعر القروي، وقد التقى بجدي للمرة الأولى في العام ١٩٨١ في القريّا، إضافة إلى وصية سلطان الأطرش السياسية.

[١٠] التَنك، كلمة من الفرنسية تعني الدبّابة.

تصدّر الصفحة الرئيسية للموقع شعار الثورة السورية الكبرى، الدين لله والوطن للجميع، فسلطان باشا الأطرش، القائد العام لهذه الثورة، قد آمَنَ قولاً وفعلاً به.

إن أول قانون أوروبي لفصل الدين عن الدولة هو قانون العَلمانية الذي صدر في العام ١٩٠٥ في فرنسا.

ولكنّ فرنسا، حين احتلّت بلادَنا بالانتداب الفرنسي في العام ١٩٢٠ لم تطبِّق العَلمانية وإنما قسّمتنا على أساس مذهبي إلى دويلات. بينما كان لهذه الثورة شرفُ رفعِ شعارِها العَلماني هذا، الذي مثّل الرد الطبيعي الرافض لتقسيمِ البلادَ على أَساسٍ طائفي ومذهبي. كما أن هدف الثورة الأول كان توحيدَ سورية ثم الاستقلال عن فرنسا الغاصبة.

حدثني السيد سركيس صاحب محلّ " جوزيف للنظارات الطبية"، الكائن مقابل مبنى البرلمان السوري في شارع الصالحية (شارع المجلس النيابي) قائلاً – وهو يعرف بالضبط مَنْ هو جدّي – : "أنا أرمني، وقد أتى أهلي إلى سورية هرباً من المذبحة التي قام بها الأتراك في أوائل القرن العشرين. لم يخطر في بال أهلي إلا التوجّه إلى جبل العرب لما سمعناه عن سلطان باشا من إغاثة للملهوف! باختصار، جدك حمانا يا ابنتي!"

شعرتُ بمحبة هذا الرجل لجدي وبصدقه، كما أحسستُ بالفخر والاعتزاز لهذا التراث التاريخي الذي أعيش في كنفه!

بعد الاستقلال، بقي سلطان باشا الأطرش ثابتاً على إيمانه بهذا الشعار بالفعل...

في أواخر الخمسينيات من القرن العشرين، لبّى جدّي طلباً لمطران الروم الأرثوذكس في جبل العرب فساعده في قضاء أمر ملحّ له. أراد المطران سماحة تكريم جدّي بهدية شخصية، فقال له سلطان باشا: " نحن

نريد أكثر من ذلك بكثير"! استغرب سيادة المطران الأمر؛ فعاجله جدي قائلاً: " نحن نريد أن نبني كنيسة في القريّا تتسع للمؤمنين من أبنائها، ويجب أن يكون موقعها على الشارع العام".

فعلاً، تمّ بناء تلك الكنيسة. لم يوافق جدي على سعتها، فأقنع أصحاب الأرض الملاصقة للكنيسة بإعطائها لصالح توسيعها. ثم، حين اكتمل البناء أهدى جدي الكنيسة جرساً كبيراً من أجل دعوة المؤمنين للصلاة.

يوم تشييع سلطان الأطرش في ٢٨ آذار / مارس ١٩٨٢ ، بُحَّت أجراس كنيستَيّ القريّا في وداعه، محبةً وعرفاناً.

كتب سلطان الأطرش، الخواطر التالية في العام ١٩٦١ :

"قالوا إننا قطفنا ثمرة جهادنا، ثمرة تلك الشجرة التي جدلنا ترابها بدمانا. كلا، إنّ هذه الثمرة لم تعقد بعدُ؛ إنّ جهادنا لا يزال في دور الزهرة ولم يصبح بعدُ ثمرة، لأننا لا نريد قطفها ونحن مشتركون كلّنا كعرب[11].

أبناء الثورة وصغار الصحراء، هكذا نذرنا أنفسنا لنكون قرابين تضحّي على مذبح العروبة.

لن تثمر ما دامت أغصانها متلبّسة بالحشرات الفتّاكة... لن تثمر حتى يتعالى صوت فلسطين بالحرية وأنْ يزول شبح المطامع عن العراق ومصر وشرقي الأردن. فبعد ذا، يا حبذا ثمراً ناضجاً شهيّاً، رمزاً لأجيال حملوا مشعل الحضارة، ولن يخبو نوره بعد الآن."

أمام هذا الكلام الجميل والمعبّر، آليتُ على نفسي في كلّ حياتي، أنا حفيدته، ألّا أُقدِم على أمر لا يرضى عنه هذا الإنسان؛ لذلك، فلن أستطيع

---

[11] ليس كلّ العرب يؤمنون بوحدة النضال العربي مثل سلطان الأطرش؛ وهو هنا يأسف لحال هؤلاء.

هنا أن أكون حيادية... فأنا أولاً مع المقاومة ضد الاستعمار بكلّ أشكاله... وأنا مع فلسطين حتى النخاع، وضد المعسكر الذي يقف مع الكيان الصهيوني... فأنا أعشق هذا الإنسان الذي كتب تلك الكلمات وهو في سنه الثالثة والسبعين، ولن أسير إلّا على خطّه ونهجه!

تشييع القائد العام للثورة السورية الكبرى، الملعب البلدي في السويداء، في ٢٨/ ٣/ ١٩٨٢ بحضور نصف مليون شخص من بلاد الشام

هو جدّي لأبي، هذا صحيح، ولكني أيضاً عرفتُه عن قرب وعرفتُ طيب سريرته وصدق نواياه وتسامحه مع الآخر وزهده. ظلّ لآخر يوم في حياته يحمل همّ الوطن وفلسطين والجولان، ساخطاً على العرب، في غالبيتهم، الذين بدا أنهم قد قرروا التفريط في الحقوق العربية المغتصبة... كان أميناً، محبّاً، مفعماً بروح الثورة والمبادرة في التاريخ.

هذا الإنسان الذي أدرك مبكراً مطامع الاستعمار في بلادنا العربية، وساهم بزخم في الثورة العربية الكبرى ١٩١٦ - ١٩١٨ وكان له ولرفاقه من بني معروف شرف دخول دمشق ورفع العَلَم العربي على سراياها قبل

الجيش الفيصلي وجيش ألنبي البريطاني بيومين، رفض بإصرار أيّ منصب سياسي في الحكومة الوطنية؛ كما أنه فعل الشيء ذاته بعد استقلال سورية عن فرنسا في العام ١٩٤٦ فرفض كلّ المناصب السياسية التي عرضها عليه أهل الحكم في دمشق ورفض بالقدر ذاته أيّ مقابل مادي. لم يكنْ يقول للسياسيين إلّا أمراً وحيداً هو: " لا تفرّطوا في استقلال البلاد الذي دفعنا أرواحنا ثمناً رخيصاً له"، إذ إنه كان دائم التوجّس من المطامع الاستعمارية التي تأخذ ألف لبوس ولبوس. ووصيته السياسية تشهد على ذلك.

ضريح القائد العام للثورة السورية الكبرى سلطان باشا الأطرش

٨- بيت الميدان وبيت القريّا

بيت الميدان هو بيت يوسف الشويري جد أمي في منطقة الميدان إلى الجنوب من مدينة دمشق، وهي منطقة تقع خارج سور المدينة، قرب ساحة باب مصلّى ومشفى دمشق أو المجتهد.

وبيت القريّا هو بيت جدي سلطان...

بيتان أثّرا فيَّ تأثيراً جميلاً وكانت لهما مكانة خاصة في حياتي.

لم يعد البيتان كما كانا: بيت الميدان هو بيت عربي نظّمت المحافظة منطقته ومحيطه، فبقيت منه قطعة أرض تمّ إنشاء بناء طابقيّ عليها، يسكن في هذا البناء اليوم أقارب أمي ويدعى بناء الشويري.

أما بيت القريّا، فقد تغيّرت معالمه بعد أن قام أبي وأخي بترميمه وإصلاحه، فأصبح ينقسم إلى ثلاثة بيوت بالإضافة إلى المضافة التي ما زالت على حالها ولم يتغيّر فيها شيء.

قضيتُ في بيت الميدان، في أرض الدار والليوان والبيت الكبير لحظات ممتعة، بصحبة أهلي، مع عمّات أمي وأولاد عمومتها. كنا في ليالي الصيف النديّة نجلس في أرض الدار حول البحرة مستظلّين بفسحة سماوية تتلألأ بالنجوم، فتُفرَش مائدة العشاء من الأطايب الشامية...

يبدأ أبي بالحديث عن ذكرياته الجميلة في هذا البيت: كيف كان في شبابه يلاعب أطفاله فيمازحهم، ويتسلّى مع كباره فيناكفهم! أكثر هذه

المناكفات المحبّبة كانت توجَّه إلى العمّة نور، كبرى عمّات أمي؛ يقول لها إن عليها أن تختار: إما أن تضعه في رأس قائمة مَنْ تحبهم أو في ذيلها!

أما هي فتحتار مجيبة: "الباشا سلطان، أبوك، في رأس القائمة وأنت تليه مباشرة"... فيحتجّ عليها محيِّراً إياها:

"أنا لا أقبل! إما أن أكون في رأس القائمة أو في آخرها! وعليك أن تختاري!"

العمّة نور، منذ طفولتها، رغم أنها لم تكن ترى بعينيها من دنياها إلا بصيصاً من النور، غير أنها كانت تدير شؤون البيت بتدبير اقتصادي مدروس لضيق ذات اليد، بمساعدة أخواتها الثلاث جول الشاعرة والمدرّسة، ويسرى الفنانة في الخياطة والتطريز وسميّة الصغرى التي لم يبقَ أحد في العائلة إلا وقامت على راحته وخدمته حين احتاج إليها. تساعدهنّ في ذلك صبيّة اسمها زهرة عاشت في هذا البيت بعد أن تركها أخوها فيه ولم يعد للسؤال عنها طيلة حياتها... فقضت يفاعتها وصباها وشبابها وكهولتها في كنف آل الشويري ورحلت عن الدنيا بعد عمر ناهز الثمانين قضتّه مع هذه العائلة، فرداً منها، فووريت الثرى إلى جانبهم في مقبرة عائلة الشويري ولم يفطن أحد من عائلتها للسؤال عنها!

أمي هي الوحيدة التي حدست أنه بعد رحيل زهرة سوف يأتي مَن يسأل عنها... وهكذا كان...

جاء أولاد أخيها من لبنان وسألوا عنها أخيراً، إلا أنها كانت في ملكوت السماوات... فزاروا المقبرة وبكوا طويلاً حسرة وندماً!

كانت زهرة تعمل بصمت ودأب وجَلَد والابتسامة لا تفارق محيّاها... فتساعد في أعمال المنزل، ثم تذهب للإشراف على الدكان الصغير القريب من البيت والذي كانت العائلة تعتاش من مردوده المادي، فتبيع وتشتري

وتنجز الحسابات الدقيقة دون أي خطأ، مستعينة بذاكرتها فقط، فهي لا تتقن القراءة ولا كتابة الأرقام! حين كنا نزور الدكان أطفالاً، كانت تملأ أيدينا بالسكاكر والقضامة على سكر وقطع السوس اللذيذة.

الجميع في الحارة كان يظن أنها من آل الشويري، ولم يعرفوا الحقيقة إلا حين كُتِب اسمها الكامل في ورقة النعي! رحمها الله.

أعود لمناكفات أبي في شبابه للعمّة نور.

جاء مرّة إلى بيت الميدان برفقة خالي إميل جالباً معه البوظة العربية من دكان بكداش الشهير في سوق الحميدية. "تآمَر" مع كل أهل البيت كي لا يخبر أحدهم العمّة نور بوجود البوظة العربية. فتناول الجميع طعام الغداء ثم أكلوا الفاكهة اللذيذة... وحين انتهوا من الطعام والشراب والفواكه، فاجأها أبي قائلاً: "هيا لنأكل البوظة العربية بالقشدة والفستق التي جلبتُها معي من دكان بكداش". ذُهلَت العمّة نور وقالت معاتبة: "لو أخبرتني بوجود البوظة لكنتُ أجّلتُ الفواكه للغد... الله يسامحك... واللهِ، لن آكل معكم".

لم يهتم أحد لأمرها، كي يكتمل "سيناريو التآمُر" الذي أعدّه أبي؛ وبدؤوا جميعاً بأكل البوظة والتلذذ بها دون الالتفات إليها... استنكرت الوضع وقالت لأختها الصغرى: "طيب، أنا حلفت بالله ولن أتراجع، لكن اعزموني أنتم على أكل البوظة كي أنزل عند رغبتكم... يا لكم من جاحدين!"...

فضحك الجميع... وقام أبي فقدّم لها صحن البوظة الذي حضّره مسبقاً من أجلها وعمل على استرضائها.

كل هذه القصص والمناكفات المحبَّبة كان أبي وعمّات أمي يروونها لنا خلال إحدى السهرات الحميمة في أرض الدار، حول البحرة الدافقة، بين الياسمين المتهاطل من نسمة جميلة تهزّه، وفي عبق الياسمين العراتلي وأريج

الليمون والنارنج والكبّاد وشتى أصناف النبات العطري وأزهار البنفسج و"آه يا أنا".[12]

في الشتاء، كانت أصوات "طقطقة" الكستناء تجمعنا حول مدفأة الحَطَب في البيت الكبير، وهي غرفة كبيرة للجلوس واستقبال الأقارب. تدور أحاديث الذكريات... إذ كان سلطان باشا حين ينتهي من التشاور مع أعضاء الحكومة السورية في أمور الوطن الهامة، بعد الاستقلال وبدعوة من رئيس الجمهورية، يأتي إليه سليم أوالياس الشويري، وهما ولدا المجاهد يوسف الشويري، ليصطحباه إلى بيت الميدان مع كل مَنْ معه لينزلوا ضيوفاً مكرَّمين أعزاء في بيت الميدان ذاته الذي كنا نجلس فيه بصحبة حديث الذكريات، إذ إنه "كرمى لعين، تكرم مرج عيون".

روت لي أمي أنها التقت بأسمهان ونجاة علي في أربعينيات القرن العشرين في هذا البيت، وتمتعت بحديثهما اللطيف.

روى لي أبي كيف اهتز هذا البيت تأثُّراً بسبب محاولتَيْ اغتيال لشخصيتين وطنيتين هما سلطان باشا الأطرش وصديقه على درب الثورة الدكتور عبد الرحمن شهبندر في العام ١٩٤٠ : الأولى فشلت والثانية نجحت. لقد هدّد جدي سلطان بعد محاولة اغتياله الفاشلة بقدرته على إعادة تنظيم صفوف الثوار في الجبل للانتفاض من جديد ضد الانتداب الفرنسي وأعوانه؛ كما أنه قال صراحة لشكري بك القوتلي بأن أفراداً من الكتلة الوطنية لم يكونوا بعيدين عن الفعلة التي نجحت!

بين جدران هذا البيت الجميل وفي كنف فسحته السماوية الرائعة، عشتُ لحظات حلوة وممتعة. كنت أفرح حين نذهب إليه فندخل من باب متواضع في دهليز معتم ورطب إلى فسحة أرض الدار الواسعة التي

---

[12] نوع من الأزهار المشوقة ذات البتلات الواسعة، بيضاء أو زهرية أو بنفسجية.

تتوسطها بحرة كبيرة أُنشئت مكان مضخةٍ للماء، حين دخل نظام توزيع المياه إلى مدينة دمشق في ثلاثينيات القرنً العشرين على ما تذكره أمي؛ فأصبح الماء يسيل من الصنابير ولم يعد أهل البيت بحاجة إلى بذل الجهد من أجل ضخ الماء.

العائلتان الصديقتان أمام باب بيت الميدان

فرحت العمّة نور بهذه البحرة وطلبت من أخيها حبيب، جدي لأمي، أن يرميها فيها لتستمتع بدفق المياه... وهذا ما فعله حقاً لتلبية طلبها.

يحيط بأرض الدار غرف النوم والصالون والسفرة والليوان والبيت الكبير؛ ثم هناك السطح وعليه غرفة صغيرة كانت تدعى "الفرنكة"، غالباً ما كانت تخصَّص للغسيل وأعماله أو للدراسة حين كبر شباب العائلة. أما في الدهليز، فثمة المطبخ وبيت المؤونة والحمّام، و"بايكة" للخيل.

كانت عمّات أمي ماهرات في تطريز المحارم والخياطة وحياكة الصوف. وقد ارتدت أمي يوم تخرّجها من الجامعة ثوباً كحلي اللون ذا خطوط بسيطة بيضاء من الجوخ الممتاز، كان في الأصل طقماً قديماً لأبيها، فأخذته عمتها يسرى وقلبتْ قماشه، وخاطته ثوباً نسائياً أنيقاً... فالحياة في ذاك الوقت صعبة و"الاحتيال" عليها مطلوب للتخفيف من أعبائها!

هند ومنصور وإميل وعايدة والعمة سمية

حكت لي أمي أنها لم تلبس في صباها إلا من يدي عمتها يسرى، التي حاكت الكنزات الصوفية لأبي أيضاً مع إضافة أول حرفين من اسمه وكنيته؛ كما أنها ارتدت أجمل الأثواب من يدي سيدة أخرى قريبة للعائلة تدعى مهجة عفلق. ومهجة هذه حكاية... لقد كانت تذهب بصحبة أمها لزيارة بيت جدي حبيب في الصوفانية، فتتأخر في الطريق لأن سيدات حي

القصاع وباب توما يسلّمن عليها ويتحدثن معها، فهنّ زبونات عندها وهي تقوم بخياطة فساتينهن... تصل أمها وتزور أقاربها وتنهي الزيارة ومهجة لمّا تصل بعدُ!

تذكر أمي أن جدتها لأبيها، أم ابراهيم، كانت، حين تنصتُ إلى صوت الآذان من الجامع القريب من البيت فجراً، ترسم إشارة الصليب على وجهها وتدخل لتصلّي أمام أيقونة السيدة العذراء والسيد المسيح في غرفتها. وكان جدّها يوسف يصوم الصيام المسيحي الكبير، لمدة خمسين يوماً، دون طعام أو شراب من الفجر وحتى الغروب ثم يتناول الطعام المصنوع بزيت الزيتون، من الخضار أو الحبوب دون أي لحوم أو مواد بروتينية... قلتُ لها يوماً: "لقد نجح جدّك بالجمع بين صيامَيِّ المسيحية والإسلام، بزيادة عشرين يوماً ودون سحور! أليس جباراً؟!"

هذا غيض من فيض رواه لي أبي وأمي عن هذا البيت العريق الذي شهد تاريخ التطورات السياسية والوطنية في سورية وفي دمشق بالذات. فحين حدث إضراب الستين يوماً ضد الانتداب الفرنسي في دمشق في العام ١٩٣٦، كان عمّ أمي اليان من قادته، وهو الذي كان يرتدي الطربوش لكنْ بعد نزع الطرّة السوداء عنه، إذ إنها ترمز إلى تقليد عثماني قديم!

حين كنا نزور أهل هذا البيت، كانت أجيال ثلاثة تجتمع فيه: الجيل الكبير وجيل الأولاد ثم جيل الأحفاد...

وهكذا، لم يحتج الكبير حين مرض لغريب يعتني به، فالأولاد ونساؤهم هنا... كذلك لم يحتج الأطفال لروضة من أجل رعايتهم قبل سن المدرسة، فالأجداد هنا أيضاً...

يا لها من دورة حياة متكاملة لا ينضب فيها الحب ولا تنتهي منها الرعاية!

أما بيت القريّا، وهو بيت جدي سلطان، فكنتُ حين أزوره أشعر بعبق التاريخ فيه وبالعنفوان.

كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام، متصلة في الوظيفة، منفصلة في المكان: الليوان وغرفة الجلوس والمطبخ في مكان، والصالون في مكان آخر وغرف النوم في مكان ثالث. أضحت هذه الأقسام اليوم بعد الترميم ثلاثة بيوت مستقلة ومتكاملة للعائلة.

لا زلتُ إلى اليوم أستمع في ذاكرتي لإيقاع عصا جدي وهي تضرب الأرض بثقة وحزم، إذ إنه كان يستيقظ باكراً، قبلنا جميعاً، ويذهب ليطعم الدجاجات والطاووسين بيده.

حدثني أبي أنه في شبابه كان يسمع أباه، جدي، في الفجر وهو ينادي على سليمان عواد كي يذهبا معاً إلى الحقل للعمل فيه. كان جدي يناديه من داره، فيرد ذاك من داره: "نعم يا باشا، أنا قادم..." ويأتي راكضاً وهو ما زال يُكمل تسوية هندامه المخصص للعمل في الأرض... فيعاجله جدي قائلاً: "تأخرنا... غابت الشمس!"

غير أن الشمس، في الواقع، لمّا تشرق بعدُ! كان جدي، رحمه الله، يقدّس العمل في الأرض، وما يريد تحقيقه

"اليوم" يجب أن يكون قد أُنجِزَ "البارحة"!

كنا نجتمع في البيت أكثر من ثلاثين شخصاً من أولاد جدي سلطان وأحفاده. كنا في تلك الآونة نقضي سهرات طويلة يحكي فيها لنا جدي والعم زيد، أخوه، ذكريات مرّة وحلوة عن الثورة...

كان العم زيد يلقي علينا من شعره العامي المرهف أبياتاً اجترحها من واقعه المُعاش... من ذلك على سبيل المثال أبيات الشعر التي نظمها على مشارف مرحلة اللجوء إلى وادي السرحان في صحراء السعودية ثم إلى

الكرك في الأردن، بعد أن رفض سلطان باشا الأطرش إلقاء السلاح وقرّر استمرار المقاومة باللجوء إلى خارج الديار مع بعض رفاق السلاح وعائلاتهم؛ لكنّ النضال السياسي في تلك المرحلة لم يتوقّف، بل كان له الأثر الكبير في اتخاذ القرارات النضالية الهامة التي حدّدت مصير سورية السياسي في ما بعد، وأدّت إلى الاستقلال. ذلك اللجوء استمر عشر سنوات، من العام ١٩٢٧ وحتى العام ١٩٣٧. لذلك فإن القائد العام كان يعتبر أن الثورة قد امتدت اثني عشر عاماً، أي من العام ١٩٢٥ وحتى العام ١٩٣٧.

هذه الأبيات الشعرية غنّتها أسمهان بألحان فريد الأطرش... وهي:

يا ديرتي ما لِك علينا لومْ	لا تعتبي، لومك على مَنْ خانْ
حِنّا روينا سيوفنا من القومْ	ما نرخصك، مثل العدو، بأثمان
لا بدّ ما تذهبْ ليالي الشومْ	وتعتزّ صربة[١٣] قادها سلطانْ
وإن ما تعدّل حقّنا المهضومْ	يا ديرتي ما حِنّا لكْ سُكّانْ

حدّثنا مرّة العم زيد الأطرش عن أن الحكومة السورية لم تدعُ أخاه سلطان لحضور الاحتفال بأول عيد للجلاء في دمشق! "والسبب؟" سألناه، ابتسم ولم يُجبْ... فقال لنا أبي: "فهمكم كفاية"!

حين كبرتُ، استوعبتُ تعليق أبي: فمَنْ لم يطلب السلطة بعد كل ما قدّم من تضحيات، تخشَ منه السلطة لأنه سوف يسرق منها الأضواء!

بعد رحيل جدي سلطان عن عالمنا هذا، كنتُ أزور بيت القريّا لأجلس مع أبي، دون أن أستطيع محادثته إلا قبل أن ينام لكثرة مشاغله هناك: مع الناس ومن أجلهم، أو في الفلاحة والزراعة والحصاد.

---

[١٣] مجموعة.

حياة جدي سلطان بعد عودته من المنفى كانت شبيهة بما رأيتُه وعايشتُه مع أبي.

ثمة حادثة رواها لي أبي عن أخته الكبرى غازية، التي رحلتْ في العام ١٩٦٦، وهي كانت المسؤولة في البيت عن كل شاردة وواردة، صغيرة كانت أم كبيرة.

كانت تُعدّ المناسف لضيوف جاؤوا إلى القريّا، وقد أخذ جدي يستعجلها ويقول لها: "النار ليست قوية تحت حلّة الطبخ... الجمر ينطفئ"، إذ كان الطبخ يتم على الحطب؛ فأجابته قائلة: "الجمر جيد والطبخ بدأ ينضج".

لكنه أصرّ على رأيه؛ فما كان منها إلا أن حملت الجمر بيديها العاريتين لتُريه جودته واشتعاله وصلاحيته لنضج الطبخ. لقد أحرقت يديها كي تُرضيه ولم تعلن عن ألمها من اشتعال الجمر... أليستْ جبّارة؟!

كنّا نتحلّق خاصة حول أبي ليروي لنا ما سمعه من جدي عن أحداث الثورة... كما أننا كنّا نحاول فهم الوضع السياسي في الوطن العربي وبشكل خاص في سورية ولبنان وفلسطين من خلال أحاديثه التحليلية، المنطقية والجذّابة في آنٍ معاً.

أما جدي سلطان فحين كان يتحدث عن زمن الثورة لم يكن يلفظ ولا لمرة واحدة ضمير المتكلّم "أنا" بل كان يردد دوماً قائلاً "نحن فعلنا كذا".... وقد أطلق على الثوار اسم "مرقّعي العُبي".[١٤]

عيد الجلاء هو عيد الأعياد في بيت القريّا... يتجَمهَر الناس هناك بالآلاف ويتغنّى الشعراء ببطولات الثورة ويشْدُون للجولان وفلسطين، فهما في قلب سورية وفي قلب كل سوري أصيل.

---

[١٤] لشدة فقرهم، كانت عباءاتهم مرقّعة، لكنهم لبّوا نداء الوطن بمبادرة من سلطان باشا الأطرش وبقيادته فثاروا على ظلم الاستعمار وأعوانه.

مع جدي سلطان في القريا

كنّا نجلس سوياً أحياناً على شرفة البيت لنقضي لحظات طيبة في احتساء القهوة أو المتّة غارقين في أحاديث الذكريات الجميلة.

بعد ترميم البيت، تغيّرت معالمه، أصبح أوسع، لكننا افتقدنا أحباءنا الذين زيّنوا حياتنا ولوّنوها بألوان الفخار والعزة والصمود!

لم أكن أُكثِر من الذهاب إلى بيت القريّا، لكن لم يكن يمرّ أسبوع واحد دون أن أتصلَ فيه للاطمئنان على جدي وجدتي. وحين مرِض جدي سلطان قبل رحيله بستة أشهر تقريباً، ذهبنا عدة مرات أنا وأمي وأخي، لنراه ونطمئن عليه؛ وقد كان أبي يلازمه في ذلك الوقت.

سمعه مرة يتلعثم غاضباً، فسأله "ما الخطب؟ هل ثمة مَن قصّر في خدمتك؟" أجابه جدي: "لا. أنا أفكر بصوت عالٍ بهؤلاء العرب الذين يبدو أنهم نسوا فلسطين والجولان رغم كل هذه القوة والأموال التي يمتلكونها"!

رجل مثله في الرابعة والتسعين من العمر وما زالت فلسطين في قلبه والجولان في عينيه... ألا يُعشَق؟!

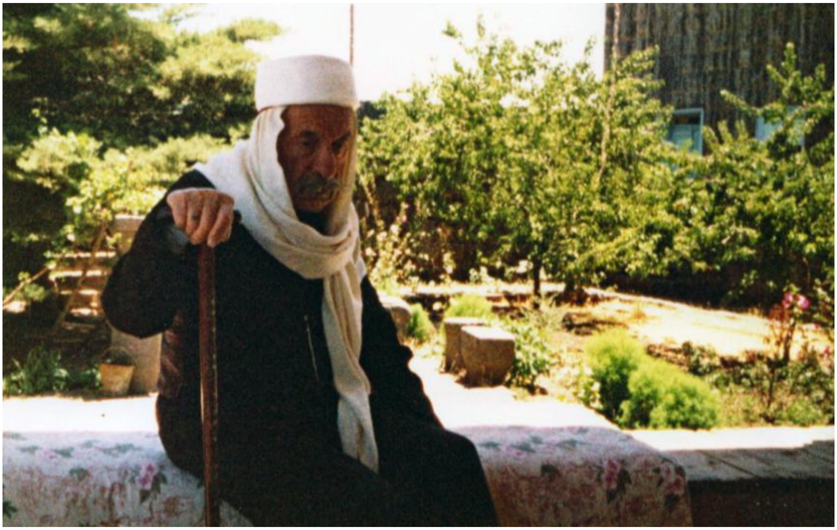

سلطان باشا الأطرش في بيته في القريا

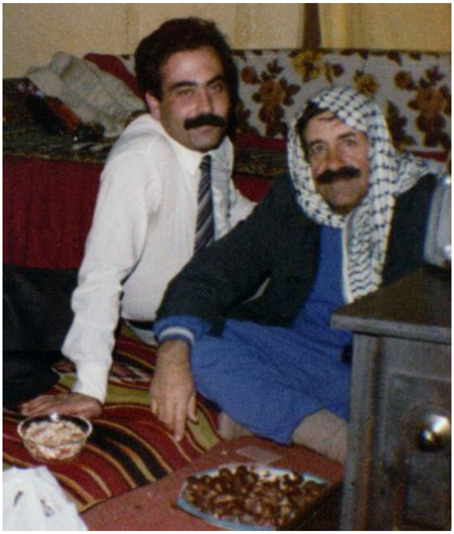

أبي وابن عمتي ناصر في القريا في ثمانينيات القرن العشرين

٩- أصدقائي: رامة وأليسار وناصر

كنتُ وما زلتُ أفخر بصداقاتي التي عملتُ على الحفاظ عليها منذ صغري وحتى الآن... أوّلها وأقدمها هي رامة...

قلتُ في ما سبق إنها استقبلتني في الصف التحضيري وخفّفت من وحشتي وساعدتني في شرب الماء بيديها وأنا التي كنتُ لا أستطيع التطاول للوصول إلى صنبور الماء في حوض باحة المدرسة.

بقيت صداقتنا راسخة وعميقة وانتقلت لتشمل عائلتها الصغيرة التي كوّنتها: زوجها وأولادها الثلاثة. يوم زواجها، كنتُ في منحة دراسية في إسبانيا في تموز / يوليو من العام ١٩٨٧. كان الجميع من أهلها وأقاربها وأصدقائها يهنئونها، ثم يطرحون عليها السؤال الوحيد والمتكرّر "أين ريم؟" وتضطرّ لتشرح للجميع سبب تغيّبي عن حضور هذا الحدث المهم في حياتها وفي حياتي أنا أيضاً.

حين عدتُ في منتصف شهر آب / أغسطس من العام ذاته من إسبانيا، ذهبتُ من فوري لأبارك لها زواجها وحياتها الجديدة التي اختارتها... شاهدتُ فيديو عرسها فدمعتْ عيناي لفرط تأثّري! لم أتصوّر أنني سأتغيّب عن حضور عرس أقرب صديقة إلى قلبي و روحي.

والد رامة صديق لأبي. أخوها صديق أخي. بقي علينا أن نعرّف أمها إلى أمي... وهذا ما حدث.

كوليت، أم رامة، فرنسية وأمي سورية وتتقن اللغة الفرنسية. شعرنا بتقارب حالتَيّ عائلتَيْنا: فأبوها الطبيب محمود سعدة من دير عطية اختص في فرنسا "صدرية" وأحبّ كوليت وتزوّجا في أواخر العام ١٩٥٥.

انسلخت كوليت عن بيئتها وأهلها ومحيطها الفرنسي وعاشت في سورية لأنها أحبت محمود وعانت الكثير اجتماعياً، غير أنها استطاعت التغلّب على هذه المعاناة في سبيل هناء عائلتها. رحل العم محمود مبكراً في العام ١٩٧٢ بسبب حادث في ماليزيا وكان وزيراً للصحة السورية آنذاك. مازن ورامة كانا قاصريْن، فاضطرت كوليت إلى إشهار إسلامها لتحصل على حضانة ولديها! يا لهذا القانون! ومَنْ أكثر حناناً من الأم على ولديها حتى لو كانت غير مسلمة؟!

حتى تعيل أسرتها، خاضت غمار الحياة العملية إلى أن أوصلتهما إلى بر الأمان. بعد زواج ولديها، عادت لتعيش بالقرب من ابنها في فرنسا، لكنها وقبل شهر من رحيلها، زارت ابنتها في سورية، في حلب، وأوصتها إن رحلت عن هذه الدنيا في سورية، فلترقد إلى جانب توأم روحها محمود. وهكذا كان.

شعرتُ بتقارب ملفت بين رحيل أم رامة ورحيل أمي، فكلا الوالدتين تبعتا نداء قلبيهما ورقدتا في المكان ذاته الذي كان يرقد فيه "حبيب العمر"!

لا أنسى ما بذلته كوليت من مجهود استثنائي كي تحضر مناقشة أطروحتي لنيل درجة الدكتوراه في الترجمة، في جامعة النور في مدينة ليون الفرنسية، المدينة التي احتضنت حبها لمحمود. حضرتْ هي ورامة وساعدتاني في عرض وسائل الإيضاح التي حضّرتُها للمناقشة، وفي اختيار الأفضل من الطعام والشراب للاحتفال ما بعد المناقشة. شجعتني كوليت، وأثنتْ على لغتي الفرنسية وتقديمي لملخّص أطروحتي والدفاع عنها.

قالت لي: "لقد استمتِّ في الدفاع عن أطروحتك بلكنة فرنسية صرفة ولغة سليمة ولم تتنازلي أو تتراجعي أمام نقد اللجنة... وهذا جيد جداً". سررتُ بتعليقها وأحسستُ بالقوة من خلاله. حين جاءت النتيجة بتقدير "مشرِّف جداً بإجماع اللجنة"، فرحتْ كوليت بقدر ما فرحتُ أنا ورامة وأكثر!

تعلّمتُ من كوليت أن أهتم بتفاصيل قراءاتي ومشاهداتي الثقافية، فأكتب في دفتر خاص نقداً أدبياً وثقافياً لكلّ كتاب أقرأه، وهذا يرسّخ لديّ بشكل كبير قراءاتي الثقافية والتاريخية والسياسية والأدبية... إلخ.

رامة متفانية في صداقتها وتهتم بالتفاصيل الدقيقة في حياتي وتتذكّر في كثير من الأحيان دقائق أمور صغيرة جداً، لكن تلك الأمور تصنع فرقاً كبيراً في ترسيخ أواصر صداقتنا التي اقترب عمرها من نصف قرن!

نظراً للتباعد الجغرافي بيننا، وخاصة في الظروف الصعبة من الحرب الكونية المفروضة على سورية، رامة في الشمال السوري وأنا في جنوبه، فإننا، مع ذلك، لا نحتاج إلى الكلمات كي نتفاهم: رأيُنا واحد وشعورنا واحد وقلبنا في مكان واحد...

ثمة بعض التصرّفات الطفولية التي رافقتنا حتى في شبابنا، إذ كنا نتهاتف، وحين تنتهي المكالمة في ما بيننا، لم تكن واحدتنا تحب إقفال الخط... فاتفقنا على أن نعدّ: واحد، اثنان، ثلاثة ثم نضع سمّاعة الهاتف في اللحظة ذاتها!

كانت لدينا ذكريات لطيفة، منها رسائل متبادلة في مرحلتَيِ الطفولة والشباب... كنا نتبادل أيضاً محرمة على سبيل التذكار سنوياً في ١٨ نيسان / أبريل، بعد يوم واحد من عيد الجلاء.

كانت رامة تسافر في كل صيف إلى فرنسا وتخوض تجربة المخيّمات الصيفية *Les colonies de vacances*. حين وصلنا إلى صف البكالوريا، بدأنا نعمل أنا وهي جليستَيِ أطفال فنكون بذلك قد ساهمنا في تأمين مصروفنا.

تمرّ أشهر أحياناً دون أن نلتقي، لكننا في لحظة تلاقينا نلخّص بنظرة أو عبارة أو همسة كل ما مرّ بنا، الواحدة في غياب الأخرى!

أنا ورامة وعمل التبولة ، ١٩٧٧ ، في بيتنا بدمشق

أحب هنا أن أشكر رامة لأنها أعطتني فرصة نادرة لحضور عرس زميلتها في كلية الصيدلة، إذ إنها دعيت لحضوره مع باقي الزميلات، لكن الباقي لم يشأ الحضور. اتصلت رامة بي وقالت: "أنا مدعوّة لحضور عرس زميلتي في كلية الصيدلة، أتذهبين معي؟" أجبتُها : "لكنْ، كيف أذهب وأنا غير مدعوّة ولا أعرف العروس؟ لماذا لا تذهبين مع زميلاتك؟" فقالتْ: "لا أحد يريد تلبية الدعوة!"

استغربتُ هذا الموقف، وقبل أن أسألها، عاجلتني قائلة: "العرس في كنيس في حي الأمين" فقلتُ ببردة فعل واضحة: "أنا أذهب معك... هذه عروس سورية ودمشقية ويحق لها أن تفرح بهذا اليوم!"

وفعلاً، حضّرنا هدية مناسبة وذهبنا سوياً لحضور هذا العرس والجميع اهتمّ بنا وكانتِ العروس ممنونة لحضورنا! كانت تجربة جديدة

بالنسبة لي شعرتُ فيها أني أحترم مواطن بلدي بحق. هذه العائلة، حين فُتحت لها أبواب الهجرة، هاجرت إلى أوروبا وبقيت فيها.

أنا ورامة في مدينة ليون ٢٠٠٣

أنا ورامة آمنّا بالمواطنة الخالصة، وبأن علينا إعادة حقوقنا المغتصبة في فلسطين من الصهاينة، وثمة فرق بين الصهيوني واليهودي: هذا غزو وذاك يعتقد بدين سماوي، اعترفت به جميع الكتب المقدسة والأنبياء؛ وبالنسبة لنا فإننا نؤمن أن الدين لله والوطن للجميع!

هذا الإيمان هو ما دعانا، حين حضرنا قداس الوداع الأخير لوالدة صديقتنا رغدا في كنيسة يوحنا الدمشقي في دمشق، أن نقترب من نعشها ونقرأ، أنا ورامة سوياً، سورة الفاتحة... هذا بيت الله، وتلك الراقدة أمة الله، ونحن على صورته ومثاله وإيمان كلّ منا سيصل في النهاية إلى المنبع ذاته وإلى المصبّ ذاته! تلك هي التربية التي زرعها أهلنا في قلبَيْنا...

بكلمة واحدة: خُلِقنا أنا ورامة لنكون صديقتيْن!

أنا ورامة وزوجها ٢٠٠٨

صديقتي التي أعتزّ بها وبصداقتها والتي اخترتُها عن وعي كامل هي أليسار. التقينا في ١٢ آذار / مارس من العام ١٩٨٤ في الدورة المخصصة لتأهيلنا من أجل تأسيس مكتبة الأسد الوطنية في دمشق. لم أستغرق وقتاً طويلاً كي يحدد لي حدسي وفراستي مدى تقارب روحينا، وهي تكبرني بست سنوات.

أليسار بطبعها هادئة ظاهرياً، إلا أنها شخص " يغلي" من داخله. فائقة الحيوية، سوريّة حتى النخاع، بكل ما في هذه الكلمة من المعاني السياسية والتاريخية والفكرية والروحية. يعود إليها الفضل في أنها جعلتني أقرأ الأعمال الكاملة للشهيد أنطون سعادة، فتعرّفتُ إلى فكره النضر والواقعي والمتنوّر. وقد أُعجبتُ بجملته الشهيرة التي وردتْ على ما أعتقد في كتابه المُعَنْوَن "الإسلام في رسالتيه المسيحية والمحمدية"، إذ قال:

"كلّنا مسلمون لله، فمنّا مَن أسلَم بالإنجيل ومنّا مَن أسلَم بالقرآن ومنّا مَن أسلَم بالحكمة". هذا الكلام يتطابق تماماً مع إيماني بشعار الثورة السورية الكبرى "الدين لله والوطن للجميع".

تعرّفتُ من خلال أليسار أيضاً إلى الأديب اللبناني سعيد تقي الدين ودرّستُ بعض نصوصه الأدبية لطلابي الأجانب.

آمنّا معاً بالعمل الجاد في تأسيس المكتبة الوطنية وبخدمة القرّاء ودافعنا بكل شراسة عن الحق في حماية حقوق الموظفين وناضلنا من أجل الصالح العام، فاصطدمنا بعقلية الإدارة البيروقراطية المتسلّقة التي تعرف دوماً من أين تؤكل الكتف!

تعاهدنا على خدمة الناس في مجتمعنا بكل ما أوتينا من علم ومعرفة، فقررنا تطوير دراساتنا بالتخصص العالي... فذهبت هي إلى الولايات المتحدة الأميركية وعانت الأمرّين من أجل تحضير الماجستير في اختصاص علم المكتبات وأكملت مشوارها في العمل في الأمم المتحدة في نيويورك. أما أنا، فأكملتُ تحضير الدكتوراه في الترجمة في فرنسا وعدتُ للتدريس في دمشق. لم تتمسّك بنا إدارة المكتبة لأنها لم تكن تسعى للتطوير الحقيقي والعميق.

في العام ١٩٨٦ عملتُ أنا وأليسار في المكتبة على تصنيف وفهرسة وثائق الخارجية الفرنسية والبريطانية إبان الانتدابين الفرنسي والبريطاني على مشرقنا، فلفتتْ نظري إلى وثيقة مرسَلة من القنصل البريطاني إلى وزارة خارجيته يقول فيها:

"إن سلطان الأطرش عنيد جداً ولا يمكن شراؤه بالمال مطلقاً وقد حاولنا دون جدوى". وهذا ردّ واضح على كل مَن قال وما زال يقول إن بريطانيا قد دعمتْ الثورة السورية الكبرى: إنه محض افتراء أشاعته فرنسا الاستعمارية من أجل زعزعة الثقة بالثورة السورية الكبرى... لكنْ، هيهات!

ما زالت صداقتي لأليسار راسخة رسوخ قاسيون وما زالتْ طريقنا واحدة رغم البعد الجغرافي... فالصداقة كنز ثمين لا يقوم مقامه شيء آخر.

آمنّا معاً بعَلمانية الفكر وبأن على بلادنا أن تحافظ على تنوّعها الفكري والديني الذي يزيدها غنىً ورونقاً، وأن مشرقنا السوري جميل بإسلامه العربي المنفتح، وهو أجمل بعَرَبه المسيحيين الذين فتحوا أبواب مدنهم وقلوبهم للآخر القادم من الجنوب، فساعدوه بكلّ ما أوتوا من علم ومعرفة وفن: ألا نرى جمال فسيفساء الجامع الأموي الكبير في دمشق الذي شغلته أنامل الفنان العربي المسيحي في بلادي؟ لذلك آمنّا معاً بأن قانون الأحوال الشخصية في سورية يجب أن يراعي كلّ هذا التنوّع خاصة في الزواج المختلط كي لا يُمحى أحد الطرفين أمام الآخر، وكي لا يبقى الآخر لغزاً غير مفهوم، من أجل بناء وطن معافى يشعر فيه "الواحد أنه للكلّ وأن الكلّ للواحد"!

ما زالتِ صداقتنا غالية على قلبينا...

وما زالتِ منذ أكثر من عشرين عاماً وإلى اليوم، تدعوني لزيارتها في نيويورك، وما زلتُ أُجيبها، أني لن أقطع "بحر الظلمات"، المحيط الأطلسي، الذي توقف العرب على أعتابه!

خلال ظروف سورية الصعبة التي تمرّ بنا الآن، كانت أليسار تطمئنّ عليّ هاتفياً، يومياً، كما تطمئن على أهلها.

فوجئتُ بأمر مؤخراً وهو أنها خلال حياتها في بيروت، في سن الفيل، كانت تسكن في شارع مار الياس وتصلّي هناك مع عائلتها في كنيسة مار الياس للروم الأرثوذكس، وهي الكنيسة ذاتها التي تزوّجت فيها أمي. فعلّقتُ قائلة لها عبر الهاتف: "الآن فقط عرفتُ السبب في أننا تعرفنا إلى بعضنا وأصبحنا صديقتين مقرّبتين إلى هذا الحدّ"! أليست الحياة تفاجئنا بإشارات جميلة وحلوة ومرتّبة في كل الأوقات؟!

مع أليسار وهيام في دمشق القديمة

أليسار في لندن ١٩٩٥

أنا وأليسار نموذج لديمقراطية الفكر وتنوّع مشاربه واحترام الآخر. لنا صديق مشترك: هو ابن عمتي ناصر.

صديقي الذي أعتزّ به وبصداقته، يصف نفسه قائلاً: "أنا لبناني الجنسية، عربي الأصل، سوريّ الهوى".

إنه ابن عمتي ناصر الذي يكبرني بتسع سنوات.

ذاكرتي تعيدني إلى العام ١٩٦٨ حين التقيتُ به لأول مرّة في زيارتنا لقرية حَلْوَة ولبيت عمتي هناك، في لبنان بالقرب من منطقة راشيا. كان استقباله لنا رائعاً وكذلك إخوته. لم أشعر ولو للحظة بغربة عن ناصر، مثلما شعرتُ بغربة عن كثيرين غيره، رغم أن طريقتَيْ حياتنا في طفولتنا ثم شبابنا كانتا مختلفتين!

كبرنا ونضجت العلاقة بيننا... جمعتنا الصداقة دوماً والحظ العاثر الذي لاحَقَنا في أحايين كثيرة، كلٌّ على طريقته، بأوسع وأعمق من رباط القُربى.

كان أبي يثق به وبرجاحة عقله. وهو يحب خاله ويعتبر نفسه من مريديه ومن الذين تشرّبوا فكره القومي العربي، ويعتبرني كذلك أيضاً.

كانت نقاشاتي مع ناصر وما زالت ذات معانٍ وتحليلات معمّقة.

بعد رحيل أبي لم يتركني للحظة واحدة... هو نِعمَ الصديق والداعم لمشاريعي الثقافية التي أثمرت محاضرات وكتباً هامة، مثل "الجيل المُدان" وغيره من الكتب. كان يصرّ على المجيء من لبنان ليحضر محاضرة لي في محافظة السويداء، وأنا أعتبر رأيه مهماً دوماً، وآخذ بملاحظاته القيّمة.

حين بدأت الأزمة في سورية في منتصف آذار / مارس ٢٠١١، استشعرتُ الخطر الجسيم المُحدِق بسورية والذي لم يستشعره أحد من أصدقائي، عدا أليسار وناصر!

لقد كان لرأيه وقع في نفسي وتوجيه صائب: هو حلّل الوضع بشكل ثبتت واقعيته؛ فلم يتوقّع شيئاً طوال سنتين إلا وحدث، كأنه كان يقرأ الأمور بتفاصيلها في كتاب مفتوح!

سلطان باشا الأطرش وزوجته وحفيده ناصر الداوود في حلوة - لبنان ١٩٧١

حتى ما حدث في مصر، كان له رأيه الخاص: نبّهني قائلاً: "هل شاهدت أحداً من ثوار مصر يرفع عَلَم فلسطين في ميدان التحرير"؟ فأجبتُ بالنفي! أكّد لي حينها، في كانون الثاني / يناير ٢٠١١، أنّه ما مِنْ ثورة حقيقية ضد الطغيان إلّا وعليها أن ترفع عَلَم فلسطين كي تكون صادقة، في نيّتها في التغيير والتحرير! وهذا ما تداركه المصريون في ٣٠ حزيران / يونيو ٢٠١٣.

أكّد لي منذ بداية الأحداث في بلدي أن الهدف منها هو إلغاء دور سورية الدولة والوطن في المقاومة وفي الفعل الإقليمي والدولي، ولا شك أن

الهدف الأول والأخير هو تصفية القضية الفلسطينية... أليس هذا ما نعيشه الآن؟

ناصر كان وما زال ملجئي في الضيق لما أصابني وأصاب الوطن...

١٠- كُتُبي

يُقال "مصائب قوم عند قوم فوائد"!... وهنا، كنتُ "القوم" في الحالتين!

اعتقدت الإدارة في مكتبة الأسد الوطنية أنها حين تضعني لأعمل خلال الدوام المسائي فإنها تعاقبني... إذ إنه كان معروفاً عني أني أحب العمل المتواصل، والمكان الذي اختارته لي لا عملَ كثيراً فيه، وذلك بهدف الانتقام مني لأني جهرتُ بالحق عند "سلطان جائر"! لكنّ ذلك حفّزني كي أبدأ مرحلة ثقافية وفكرية جديدة في حياتي، وهي الترجمة. الفضل في تشجيعي على هذا يعود، بعد أبي وأمي، إلى الأستاذ أنطون مقدسي، مدير التأليف والترجمة في وزارة الثقافة السورية... رحمه الله.

ذهبتُ إليه في أوائل التسعينيات من القرن العشرين وعبّرتُ له عن رغبتي في ممارسة الترجمة من الفرنسية إلى العربية. فأعطاني مقالة نقدية في الأدب كي أترجمها. قمتُ بذلك وعدتُ بها إليه مترجمة. سُرَّ كثيراً بمستوى الترجمة الذي قدمتُه. أهم ملاحظة قالها لي حينها، لا زلتُ أذكرها إلى اليوم، هي أن القارئ لا يشعر بأن النص مترجَم، بل يقرأ تعريباً جيداً له. فرحتُ كثيراً بملاحظة الأستاذ مقدسي.

أردف قائلاً: "في العادة، نعطي المترجمين المبتدئين قصصاً للأطفال لترجمتها، لكني سوف أعتبرك مترجمة محترفة وسوف أعطيك كتاباً أدبياً لترجمته". وهكذا كان...

تكررت تجارب الترجمة في حياتي وتطوّرت؛ من أهمها كانت أعمال الأديبة الفرنسية ناتالي ساروّت، التي رحلت في العام ١٩٩٨ على ما أذكر، وهي تُعتَبَر من الرواد في الموجة الجديدة في الأدب الفرنسي.

ترجمتُ لها قصصاً قصيرة جداً بعنوان "انتحاءات" Tropismes: كرّمني الأستاذ مقدسي بكلمة له على الغلاف الخارجي لهذا الكتاب فأثنى على ترجمتي بشكل ملفت! ثم ترجمتُ لها أيضاً أعمالها المسرحية كاملةً. كنتُ أهدف إلى ترجمة أعمالها الكاملة، غير أن الأستاذ مقدسي الداعم لهذا المشروع الذي لم يكتمل، أُجبِر على ترك عمله في أوائل الألفية الثالثة، فاختلفت الأجواء تماماً في الوزارة... يا للأسف!

ثمة كتابان هامّان قمتُ بترجمتهما أيضاً: الأول فلسفي، عن الفرنسية للفيلسوف الفرنسي هنري بينا ـ رويث، بعنوان "ما هي العَلمانية؟"، وقد نشر في دار الأهالي في دمشق في العام ٢٠٠٥، وكان جزءاً من مشروع تطوير الفكر العربي الذي ترأسه الدكتور نصر حامد أبو زيد. في هذا الكتاب تمّ تعريف العَلمانية بشكل موضوعي كونها ليست ضد الدين مطلقاً، إنما تعطي حرية التديّن للناس ضمن حيّزهم الخاص؛ أما جو تطبيقها فهو الحرية والديمقراطية المتمَثّلة بالتعدّدية السياسية الحقيقية. وقد طالب الكاتب المصري علاء الأسواني، في العام ٢٠٠٧، باعتبار هذا الكتاب المترجَم الكتاب الأول المنصوح بقراءته في الوطن العربي.

والثاني سياسي، عن الإنكليزية وهو بعنوان "١١ أيلول / سبتمبر" للكاتب الأميركي نعوم تشومسكي، وقد نشر في دار الفكر في دمشق في العام ٢٠٠٣، يفضح فيه إرهاب الدولة في الولايات المتحدة الأميركية والكيان الصهيوني. وقد وضع الأستاذ تشومسكي مقدمة خاصة بهذه النسخة المعرّبة.

كما أنني ترجمتُ عن الإسبانية قصة قصيرة للكاتب الإسباني ميغيل دي أونا مونو في العام ١٩٩٥، نُشِرَت في مجلة الآداب الأجنبية في العدد ٨٤ بعنوان "نشيد المياه الخالدة". إضافة إلى ترجمتي لقصص إسبانية لليافعين بعنوان "ضيف الثلوج وحكاية مثيرة لثلاثة طيور" لرافائيل سانتشيث فيرلوثيو وميغيل ديليبيس، نشرت في وزارة الثقافة في العام ١٩٩٤.

ثمة أيضاً كتب أدبية أخرى ترجمتُها مثل الرواية التعليمية الذكية "دجين، الجنّية" Djinn للكاتب الفرنسي الإشكالي آلان روب ـ غرييه، ونشرتّه الهيئة العامة السورية للكتاب في العام ٢٠١٠ .

تقدمتُ بهذه الرواية المترجَمة إلى مسابقة في الترجمة أقامتها الهيئة في العام ٢٠١٠ ونالت درجة ٨٥ من ١٠٠؛ إلا أن "مثقفاً"، كان أحد أعضاء اللجنة المقيِّمة للأعمال، وهو، ظاهرياً، من أشد المدافعين عن الحرية والديمقراطية وتكافؤ الفرص، عمل على "إخفاء" نتيجتي تلك فخرجت الرواية من المنافسة. ومن محاسن الصُدف أني وجدتُ ورقة التقييم وبخط يده داخل نص الرواية المتَرْجَمة حين أُعيدَتْ إليّ!

ولأنني متأكدة من أن هذا التصرف الفردي لم يكن إلا نوعاً من الإقصاء اللاديمقراطي، لجأتُ إلى رئيس اللجنة والأستاذ عبد الواحد مدير الهيئة آنذاك؛ فأعادت الهيئة قراءة النص ونشرته ضمن منشوراتها لكن دون إعادة لتقييم نتائج المسابقة، إذ إنها كانت قد ظهرت وتمّت المصادقة عليها من الوزير حينها.

ونتيجة لإدراك المسؤول عن مديرية الترجمة في الهيئة للمستوى الجيد للغتي العربية وترجمتي، فقد اعتمدتني إدارة الهيئة منذ ذلك التاريخ لأكون من بين قرّائها لتقييم الترجمات من أجل نشرها ضمن منشوراتها.

بعد رحيل أبي، اهتممتُ بتنظيم أوراقه وتحقيقها بناء على وصيته لي، فأنجزتُ تحقيق سيرته الذاتية بعنوان "الجيل المُدان" وقد نُشِرت في دار رياض الريس في بيروت في العام ٢٠٠٨.

ثم بعد عامين، نشرت له مجموعة مقالات بعنوان "في سبيل العراق"، في بيروت أيضاً في دار الفرات؛

ألم يقل الأقدمون: مصر تكتب وبيروت تنشر والعراق يقرأ؟!

ما زلتُ أتابع تحقيق أوراقه من أجل إخراجها إلى النور وسوف يكون الكتاب الثالث، بإذن الله، عن سورية وعن آرائه السياسية في قضايا كثيرة... في هذه الأوراق ما يدلّ على استشرافه للمستقبل وعلى بصيرته النافذة لما نعيشه الآن... أتمنى أن أستطيع نشره قريباً "حين تبدأ العقول بإعمال التفكير لتتوقف الغرائز عن تقدمها إلى صدارة المشهد!" هل يأتي هذا اليوم يا تُرى؟! أتمناه قريباً...

في العام ١٩٨٨ أنجزتُ بحثاً في إسبانيا، في المعهد الإسباني العربي، في اللسانيات التطبيقية: يتعلّق البحث بالأمثال الشعبية المقارنة، في اللغتين الإسبانية والعربية، مع دراسة نقدية لها. كان هذا البحث منحة مقدّمة من المركز الثقافي الإسباني في دمشق، إذ كنتُ متفوقة فيه في دراستي للغة الإسبانية.

ثمة بحث أنجزتُه ونشرتْه وزارة الثقافة السورية في العام ١٩٩٦ وهو بعنوان "الحرير في سورية: لواء اسكندرون، سورية ولبنان". كما أنجزتُ كتاباً مصوّراً للناشئة بعنوان "طريق الحرير" نُشِر في دمشق في الهيئة العامة السورية للكتاب في العام ٢٠١٠.

أما بحث "الحرير في سورية" فهو منحة قدمتها منظمة اليونسكو في أواخر العام ١٩٩١ لشباب يعملون في وزارة الثقافة. تقدمنا حوالى سبعة

شباب باحثين بمشاريع أبحاث مختلفة لها علاقة بطريق الحرير. كنتُ قد اخترتُ "الحرير في سورية" لأهمية الحرير في بلادنا وتراجع إنتاجه وبالتالي أهمية توثيقه. اختارت المنظمة مشروع بحثي وأعطتني المنحة من أجل إنجازه. وقد فتح لي آفاقاً لم أكن أتوقّعها، منها أنه تمّ اختياري خبيرة دولية ووطنية لطريق الحرير في مشروع "مدينة MEDINA" للسياحة الثقافية في حوض المتوسط، وهو مشروع على الإنترنت أُنجِز بالتعاون مع الاتحاد الأوروبي ووزارة السياحة السورية في العام ٢٠٠٤ وحتى العام ٢٠٠٦: www.medinaportal.net

كما أنني قدّمتُ بحثاً بعنوان "الحرير والحمّام وما الرابط بينهما؟" خلال احتفالية "دمشق عاصمة للثقافة العربية" في العام ٢٠٠٨ بالتعاون مع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى والأويكودروم في فيينا، النمسا. كذلك قدمتُ عدة محاضرات في موضوع الحرير في سورية، في المركز الثقافي الإسباني مع معرض للحرير والبروكار في الأعوام ٢٠٠٠ و٢٠٠١ و ٢٠٠٤؛ وفي المركز الثقافي في السويداء في العام ٢٠٠٥ وضمن ندوة الثلاثاء الاقتصادية في العام ٢٠٠٨ والنادي الأدبي النسائي في العام ٢٠٠٩؛ إضافة إلى سفري للصين لتقديمه هناك، وسوف أفرد له فصلاً خاصاً به.

في نهاية هذا الفصل أحب أن أذكر رسالتي بالإسبانية التي كتبتُها في العام ٢٠٠٤ إلى رئيس الوزراء الإسباني ثاباتيرو، أهنئه فيها على قراره الشجاع بسحب القوات العسكرية الإسبانية من العراق، لأن دخول هذا البلد بالأساس استند إلى كذبة كبيرة، كان الهدف منها تدمير بلاد الرافدين... تلقّيتُ جواباً مهذّباً من رئيس الوزراء الإسباني آنذاك يشكر لي إرسال تلك الرسالة ويعبّر عن سروره بها وبأن ما اتخذه من قرار قد نال رضاي، مواطنة عربية من سورية.

نشرتُ الرسالتين في موقعي الخاص على شبكة الإنترنت:

www.rimalattrache.com

Damasco, el 23 de Abril, 2004

Excelentísimo Señor Primer Ministro de España, José-Luis Rodríguez Zapatero,

Como ciudadana siria, que hablo el español, que he visitado España y especialmente la Andalucía, teniendo amigos y amigas espanoles, le felicito, a usted y a su gobierno, de haber ganado las elecciones españolas, también la confienza del Parlamento español, y del nombramiento de las ministras que representan la mitad de su gobierno: ésto es un hecho que ocurre en la primera vez en todo el mundo.

Quiero, en esta carta, expresar mi gran admiración por usted, por tan aceptada decisión del retiro de los soldados españoles del Iraq. Esta acción será el primer paso para la ruptura de la coalición, que es, de verdad, una colonización injusta y brutal del Iraq.

!Qué noble es ésta decisión!

Usted cree en principios nobles y los aplica cuando tiene el poder de hacerlo.

Esa es la España que nosotros los Árabes, conocemos muy bien, y con la cual hemos construido una civilización demonstrando hasta hoy, la elevación de nuestros pueblos.

Esperando acepte, Excelentisimo Señor Primer Ministro, todo mi respeto y mis mejores deseos.

Dr. Rim M. AL-ATTRACH

Profesora de árabe en el I.E.P.O.

E-Mail: rim@rimalattrache.com

EL PRESIDENTE DEL GOBIERNO

Madrid, 7 de junio de 2004

Dra. Rim M. Al-Attrach
Profesora de Árabe
Bezen,21
DAMASCO (SIRIA)

Estimada amiga:

Tengo mucho gusto en ponerle estas líneas para dar respuesta a su carta y agradecer su testimonio de felicitación y apoyo, con motivo del triunfo electoral del Partido Socialista en las Elecciones Generales celebradas recientemente en España.

Gracias también por su satisfacción con ocasión de la retirada de las tropas españolas destinadas en Irak.

Reciba, con los mejores deseos, un saludo muy cordial.

J. Zapatero

José Luis Rodríguez Zapatero

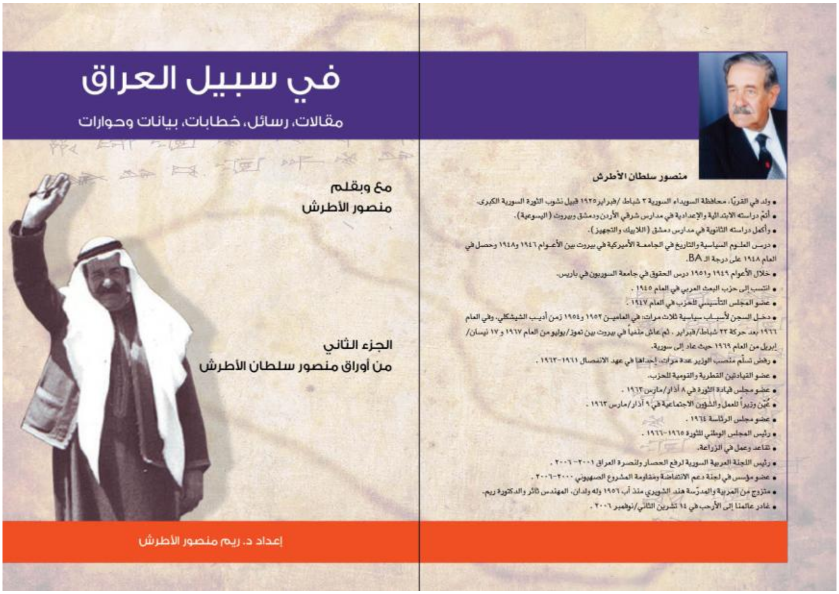

غلافا كتاب أبي، "الجيل المدان" ٢٠٠٨، و"في سبيل العراق" ٢٠١٠

١١- الحرير في سورية

أول ما أفكر فيه حين أتناول هذا الموضوع الغالي على قلبي، هو ما قالتْه لي ثمينة، ابنة السيد جبران الخوري في بلدة عيون الوادي، وهو كان يملك ورشة لحلّ الحرير الطبيعي[١٥]. أذكر أنها قالت لي حين زرتُهم في بلدتهم من أجل البحث الذي كنتُ أحضّره: "أنا لا أحب العطور، ولكنّ، أجملها على الإطلاق بالنسبة لي هي رائحة الشرانق"! عجبتُ جداً آنذاك لأن رائحة الشرانق غريبة، نافذة وواخزة في آنٍ معاً، إلا أني قدّرتُ لها هذا التعبير.

من الحرير أتى اسم "طريق الحرير" وهو طريق حوار الثقافات الذي انطلق من أقصى شرق الصين، من مدينة "تشي آن" إلى أوروبا مروراً ببلادنا العربية وخاصة سورية، قلب هذه البلاد وقلب العالم.

ثمة طرق برية وبحرية على "طريق الحرير". أما أهميته فتنبع من ربط العالم ثقافياً واقتصادياً. من أهم المدن السورية على طريق الحرير هي تدمر وحلب وأنطاكيا واسكندرونة ودمشق التي هي المنفذ الرئيسي إلى بلاد الحجاز ومصر؛ كذلك دورا أوروبوس أو الصالحية على الفرات ومدينة حلَبية.

يبلغ عمر هذه الطريق بين مشارق آسيا ومغاربها أكثر من ألفَيّ سنة وقد دامت ناشطة حتى القرن الثالث عشر للميلاد. كانت لفائف الحرير تُستَخدَم كالنقد في التبادل الرسمي مع القصور في الصين.

---

[١٥] خنق شرانق دودة القز وتحويلها إلى خيوط من الحرير الطبيعي.

إيماناً من سورية بأن هذه الطريق قد رسّخت الحوار الحضاري بين الثقافات المختلفة من أجل العيش بسلام بين شعوب الأرض قاطبة، أقامتْ مهرجاناً سنوياً لطريق الحرير في المدن السورية الرئيسية، احتفاء بطريق الحوار هذه وإحياء لها. وقد ساهمتُ في تنظيم فعاليات أحد هذه المهرجانات الذي أقيم في العام ٢٠٠٤.

لقد تميّزتْ بلادي بصناعة النسيج بشكل عام والحرير بشكل خاص. فالبروكار والدامسكو هما من دمشق ومن تراث حِرَفها، ودور التراث عظيم في الحفاظ على شخصية الشعوب وتثبيت هويتها. للأسف، ما حزّ في نفسي خلال إنجاز بحثي عن تاريخ صناعة الحرير في سورية هو أن ثمة فئة من الناس يظنّون أنهم "متميّزون" في الأصل أو العرق حاولوا التحدث عن البروكار وكأنه من اختراع "عِرقهم"! وهذا طبعاً غير صحيح على الإطلاق، فمَن أدخل صناعة البروكار إلى سورية هم سوريون ولا معنى لأيّ من تنويعات الشعب السوري أن يدّعي ذلك... كلنا سوريون وكفى!

لقد جَلَب الحرير إلى سورية، وحين أقول سورية فأنا أقصد سورية الطبيعية، فوائد عدّة، إلا أنه جَلَب عليها مصائب كثيرة أيضاً. إذ إن الحرير في القرون الماضية، أي من القرن السادس للميلاد وحتى منتصف القرن التاسع عشر، شكّل نعمة وثروة تشابه النفط والغاز حالياً. لكن، في منتصف القرن التاسع عشر، أصيبت دودة القز التي نستخرج منها خيوط الحرير بأمراض قضت عليها في أنحاء العالم، فوقع في أزمة اقتصادية، عدا "دودتنا" التي بقيت سليمة معافاة في سورية، ما فتح أعين الغرب، وفرنسا بالذات، كي تسعى من أجل الاستيلاء على نتاجنا السوري من الشرانق بأبخس الأثمان في سبيل تصنيع الحرير في الغرب وبيعه مرة أخرى لبلادنا بأعلى الأثمان. كيف السبيل إلى ذلك؟! كان لا بدّ من ترهيب السوريين

الذين يعملون في حلّ الحرير وحياكته وتجارته وجعلهم يتخلّون عن هذه الحِرفة ويفرّون من سورية! فكانت "طوشة" العام ١٨٦٠ .

طريق الحرير

ما هي هذه "الطوشة"؟ لقد تآمر الغرب مع السلطة العثمانية من أجل افتعال المذابح ضد مسيحيي سورية لتهجيرهم، وهم الذين كانوا ممسكين بصناعة الحرير وتجارته في أغلبيتها. تمّ جلب غرباء من داخل دمشق وخارجها ودُفِع لهم ما شاؤوا من أموال وطُلِب منهم، باسم "الدين"، ذبح دمشقيي القيمرية التي كانت تدعى "الهند الصغرى" لِما فيها من حرير متنوّع قد لا يجد له المرء مثيلاً، وكله من الصناعة السورية الفاخرة.

في أثناء السيطرة المملوكية ثم العثمانية ، كانت دمشق تشتهر بإنتاج الحرير وكان يحاك منه أكثر من أربعين صنفاً.

ذكر الإدريسي (وقد عاش بين عامَيّ ١١٠٠ و ١١٦٦ للميلاد) أن:

"دمشق كانت في عصره جامعة لصنوف من المحاسن وضروب من الصناعات وأنواع من الأقمشة الحريرية كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة والعديم المثال، والذي يُحمَل منها إلى كل بلد".

في أواخر العهد الأيوبي وخلال العهد المملوكي الأول نجد إنتاج الحرير قد كَثُرَ وخاصة الحرير المقصَّب. أما في "قاموس الجغرافية القديمة والحديثة" المنشور في فرنسا في العام ١٨٥٤ ، أي في القرن التاسع عشر، فتُعرِّف "دمشق" بالعبارة التالية:

إنها المدينة الأكثر أهمية والأكثر تصنيعاً في المشرق. لقد أعطت اسمها للمنسوجات الحريرية التي يتسابق الغربيون على شرائها. كما أن هذه المدينة تعمل في تجارة السيوف الفولاذية ذات النصال القاطعة بامتياز والمنسوجات الحريرية الجميلة والأصداف وماء الزهر. تمرّ فيها القوافل التجارية باتجاه حلب وبغداد وتتجمّع فيها قوافل الحج".

وهكذا كان... استُبيحَت القيمرية استباحة رهيبة: تدمير كامل للبنى التحتية وإحراق لورشات صناعة الحرير... ذبح للحرفيين وللتجار العاملين في صناعة الحرير، وسرقة لأموالهم وسبي لنسائهم وتفكيك لورشاتهم من أجل سرقتها ومن ثم إحلال الغرباء مكانهم!

ألا يذكّركم هذا الأمر بشيء مشابه يحدث اليوم أيها السوريون؟! لماذا لا نستفيد من التاريخ وعِبَره؟! أنا لا أدري... ويا ليتني أدري!

مَن بقي حيّاً من صنّاع الحرير وتجّاره من المسيحيين، جُمعوا في قلعة دمشق بحماية الأمير عبد القادر الجزائري آنذاك ثم هُجِّروا إلى لبنان ومصر، فشكّلوا جالية "الشَّوام" في مصر التي عملت، وما زال أحفادها يعملون هناك في صناعة النسيج القطني المصري.

حي القيمرية مدمّرا، ١٨٦٤

أما في منطقة الميدان في دمشق، فلم يُمَسَّ مسيحيّوها لأنهم كانوا تجار حبوب ولا علاقة لهم بالحرير لا من قريب ولا من بعيد.

كانت ثمة أيضاً ورشات لحلّ خيوط الحرير في سورية ولبنان لم يمسسها أي سوء وبقيت تعمل كالمعتاد، إذ إنها ملك لسادة فرنسيين! لقد تمّ ضرب صناعة الحرير السورية وكذلك اللبنانية التي كان يمكن لها السيطرة على السوق الغربي بأكمله، أي تمّ تخريب الاقتصاد السوري وقتل خير الصناعيين وتهجيرهم وجعل الاقتصاد مستهلكاً بعد أن كان منتِجاً، وفتح السوق السورية على مصراعيها أمام البضائع الأجنبية. تمّ القَضاء على المنافِس الحقيقي للاقتصاد الغربي والاستحواذ على المادة الأولية الهامة وهي الحرير السوري.

ماذا نفعل بالشرانق إذن؟ نبيعها طبعاً بأبخس الأثمان إلى التجار الفرنسيين وغيرهم ليتم تصنيعها في معامل فرنسا الاستعمارية ليُعاد

تصديرها إلينا فنشتريها بأغلى الأثمان، وأصول تلك الأثواب الحريرية من شرانقنا التي صنعتها بدأب "دودة قزّنا" السورية!

أخيراً، وبعد تحقيق الأهداف من هذه المذبحة، أمر الباب العالي في السلطة العثمانية بإعدام والي دمشق دون محاكمة لأنه "أعطى الأوامر" بالقتل... فدُفِنَت الحقيقة مع العبد المأمور ذاك!

قبل "طوشة" العام ١٨٦٠ ، كان صوت أنوال الحرير يُسمَع في أرجاء دمشق؛ أما بعدها، فلم يبقَ مَن يعمل على هذه الأنوال إلا كل "طويل عمر" وبعض العمال الغرباء عنها...

ألا ترون معي أن هذه القصة تتكرّر في كل قرن؟!

ففي العام ١٩١٥، أرسلت كلٌّ من غرفة تجارة ليون وغرفة تجارة مرسيليا رسالة إلى وزارة الخارجية الفرنسية تشجّعانها فيها على احتلال سورية ولبنان من أجل إلحاق سوق الحرير فيهما بسوق الحرير في ليون... وهذا ما حصل بالفعل. جثم الانتداب الفرنسي على صدورنا فسرق شرانق الحرير بأبخس الأثمان وأعاد تصنيعها في ليون ليبيعها لنا بأغلى الأثمان، كما أنه ساهم في ضرب مواسم الحرير السوري بإدخال الحرير الصناعي الأرخص ثمناً إلى سورية ولبنان، فتراجعت صناعة الحرير في سورية. إضافة إلى سرقة الانتداب للذهب السوري...

دخل الحرير إلى بلادي في القرن السادس للميلاد، وازدهرت صناعته في القرن السابع في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان، الذي أنشأ معملاً لنسج الحرير في قصره في دمشق في العام ٦٦٥ للميلاد، عُرِفَتْ منسوجاته بالطراز؛ أما مكانه فيُقال إنه بالقرب من قصر العظم في سوق البزورية حالياً.

تابع العباسيون هذا النشاط في كلٍّ من حلب وصور وكانت الأنسجة الحريرية تُباع في الأسواق الأوروبية.

حين أنهيتُ البحث حول الحرير في سورية باللغتين العربية والفرنسية، حاولتُ نشره في المعهد الفرنسي للدراسات العربية IFEAD. جاءت من مدينة ليون خبيرة فرنسية في هذا الموضوع، تدعى إيزابيل كورنو، بناء على رغبة مدير المعهد من أجل تقييم هذا البحث، فأُعجِبَتْ به أيّما إعجاب، لكنها طلبت مني طلباً غريباً جداً:

لقد أصرّت عليّ أن أحذف المقدمة والخاتمة من البحث.

أما أنا، فقلتُ لها: إن الإبقاء عليه دون مقدمة أو خاتمة يعني أنه بحث معلّق هكذا في الهواء وكأنه تحقيق صحافي بلا أي تاريخ!

كنتُ قد أوردتُ بعض هذه المعلومات التي قرأتموها آنفاً لكن ليس بكل هذه التفاصيل لأني حينها، أي في العام ١٩٩٤ لم أكن قد اغتنيتُ بها، إلا أن لمحات منها كانت موجودة بشكل خاص في المقدمة. رفضتُ طبعاً وقلتُ لها: "هذه المقدمة وتلك الخاتمة تحويان على تاريخ هام لا أستطيع حذفه. هل رأيتِ بحثاً دون مقدمة تاريخية؟!"

أصرّت على موقفها كما أصرّ عليه وأيّدها السيد لانغاد مدير المعهد في تلك الفترة...

سحبتُ البحث من المعهد، وعرضتُه على الأستاذ أنطون مقدسي في وزارة الثقافة، فطلب مني كتابة تقرير أشرح فيه لوزيرة الثقافة آنذاك السيدة الدكتورة نجاح العطار أهمية هذا البحث... فوافقت الوزيرة على النشر وتمّ ذلك في العام ١٩٩٦؛ وقد تضمّن الكتاب نصين بالعربية والفرنسية والصور التي التقطتُها بنفسي وقاموساً باللغتين الفرنسية والعربية يضم المصطلحات الهامة في صناعة الحرير.

تراجع إنتاج الحرير في سورية لأسباب سياسية واقتصادية وبشرية، فقدّمتُ اقتراحاً إلى الوزارات المعنيّة، وهي السياحة والثقافة والصناعة

والزراعة، في العام ٢٠٠٤ لإنشاء وحدة متكاملة تبدأ بتربية دودة القز ثم تستمر بحلّ الحرير وتنتهي بتصنيع النسيج الحريري بجودة عالية، وذلك في منطقة نهر العاصي. تُصَمَّم هذه الوحدة بحيث تصبح قرية سياحية للحرير وتُدرَج زيارتها في البرامج السياحية لمجموعات السيّاح التي تؤمّ سورية. لم تتجاوب الوزارات للأسف، فأرسلتُ هذا الاقتراح إلى السيدة الأولى بناء على نصيحة الدكتور اسكندر لوقا خلال محاضرتي التي قدّمتُها عن الحرير في سورية في النادي الأدبي النسائي في الشهر العاشر من العام ٢٠٠٩.

لقد عشقتُ دودة القز صانعة الحرير الماهرة، فملمسها كالحرير حين وضعتُها على راحة يدي، وطعامها طبيعي من ورق التوت، أما فضلاتها فسماد طبيعي للأرض... دودة معطاءة بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لا ترجو من الحياة، بعد أن تصبح فراشة لا تطير، إلا التزاوج وإيداع البيوض خلال ثلاثة أيام، لتُسلِّم الروح إلى خالقها.

قال لي العم جبران الخوري: "هي دودة تختار قبرها الحريري لتنسجه بنفسها وتعطينا هذه الخيوط الرائعة والمتينة"! قبل مرحلة الشرنقة، قبرها الحريري، تصوم عن الطعام وتكتفي بما أخذته من الدنيا. أليست قنوعة ومعطاءة؟

ما لفت نظري هو أن مَن ينسج خيوط الحرير على الأنوال لا يلبسه، فهم فقراء أما المقتدرون فيستمتعون بارتدائه! والحرير السوري أكثر متانة من الحرير الصيني... فقطعة من البروكار الدمشقي قد تعيش أكثر من نصف قرن.

ارتبطتْ أسماء العائلات في بلادي بهذه الحرفة الراقية: فآل الكبّابة والفتّال والمسدّي والصبّاغ والحايك والنويلاتي والنوّال والربّاط والدراقلي

والمزيّك والملقي والمكوكجي والحريري والقزّي... كلها أسماء تدلّ على مراحل هذه الحرفة وعلى ارتباط وثيق بينها وبين الناس.

كما ارتبطت الأمثال الشعبية بها وكانت مستوحاة من الحرير؛ فمنها على سبيل المثال:

"إذا دقّيت دقّ باب كبير، وإذا ضربت اضرب أمير وإذا سرقت اسرق حرير، حتى إذا عيّروك يحرز التعيير".

غلاف كتاب الحرير في سورية ١٩٩٦

كان للدين المسيحي والدين الإسلامي، رأي في ارتداء الحرير: فكلاهما حرّمه، خاصة على الرهبان المسيحيين وعلى الرجال المسلمين فقط، من أجل ترسيخ ثقافة التقشف في الحياة الدنيا؛ غير أن الكنيسة عادت وسمحت بارتدائه في القرن الخامس للميلاد، فنجد الرهبان والمطارنة والبطاركة يرتدون البروكار الدمشقي الجميل والناعم المحاك خصيصاً لهم في أثناء إقامة القداديس. أما الرجال المسلمون فلا يرتدونه خالصاً بل ممزوجاً بالقطن مثل قنابيز الصايا، تطبيقاً لما جاء في بعض الأحاديث النبوية الشريفة:

"عن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه؛ رأيتُ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم أخذ حريراً فجعله في يمينه وذهباً فجعله في شماله ثم قال: هذان حرام على ذكور أمتي".

غير أن الرسول العربي الكريم "المنفتح" قد "رخص للزبير وعبد الرحمن بن عوف لبس الحرير لحكّة بهما".

بروكار الفراشة

ميزر حمّام

في سبيل إنجاز بحث الحرير هذا سافرتُ من جنوب سورية إلى وسطها وشمالها ومن غربها إلى شرقها طيلة عام كامل، من آذار / مارس من العام ١٩٩٢ إلى نيسان /أبريل من العام ١٩٩٣؛ وذهبتُ أيضاً إلى أنطاكيا واسكندرونة.

تزامَنت زيارتي لتلك المدينتين السوريتين مع زيارة بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق إلى رعيّته بعد مرور حوالى مئة عام كانت فيها الحكومة التركية المحتلّة للواء اسكندرون تمنع مثل تلك الزيارات، فأتيحت لي فرصة مرافقة البطريرك في زياراته إلى القرى المسيحية التابعة لمدينة أنطاكيا والسويدية، إضافة إلى زيارة أول كنيسة في العالم وهي كنيسة القديسين بطرس وبولس على جبل مطلّ على مدينة أنطاكيا، وفيه "كرسي" أنطاكيا وسائر المشرق منحوتاً من الرخام.

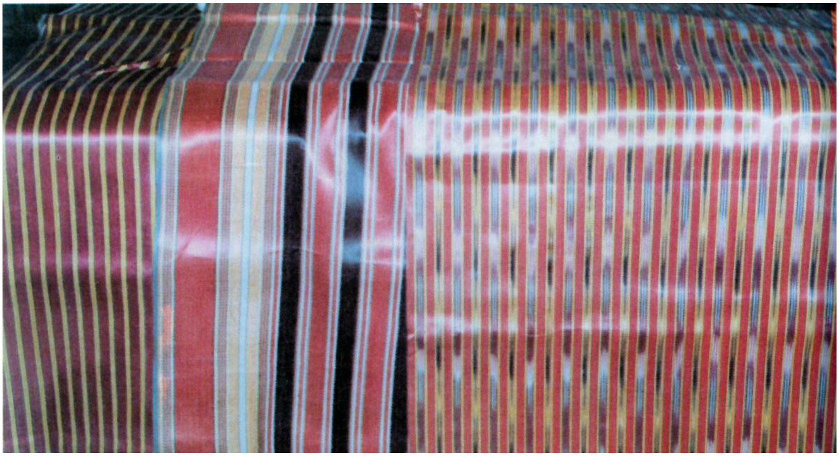

صايا

ثم زرتُ أيضاً بيروت والشوف ومعاصر بيت الدين لتسجيل حال الحرير في لبنان، وكان ذلك في العام ١٩٩٥ .

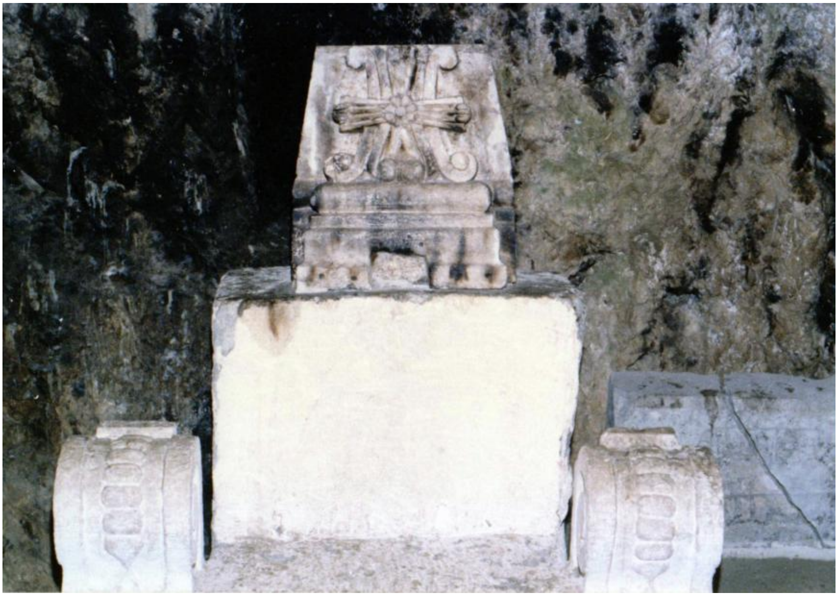

كرسي أنطاكيا في كنيسة القديسين بولس وبطرس في أنطاكيا ١٩٩٢

يرقة دودة القزّ: ملمسها على كفيّ حريري...

تضمّنت رحلاتي تلك مغامرات غريبة وجميلة في آنٍ واحد، لكنّ ما ترسّخ في وجداني هو أن هذا السفر في سورية كلها جعلني أعرف بلدي عن قرب ليزداد حبي لها وتعلّقي بها. لقد شعرتُ خلال هذا الترحال الذي دام عاماً كاملاً بعلاقتي الوطيدة بالأرض والناس، ورأيتُ بعين "المُحِبّ" أماكن لم يكن يخطر في بالي أن تكون بمثل هذه البساطة والجمال والوداعة. منها مثلاً حمص القديمة وبيوتاتها...

وحلب الجميلة بأصالتها وبمدينتها، أي سوقها القديمة، والتي تضررت اليوم بشكل مريع...

حماة وحاراتها وحدائقها المنسّقة...

دريكيش وخضرتها الرائعة وهدوء حياتها...

عيون الوادي ولطف أهلها وجمال عيونهم، صبايا وشباناً... ودّعتهم وأنا ألقي التحية على كل مَن أراه في دربي لأن الجميع عاملني كابنة من بناتهم...

الرقة ورقة أهلها ووداعتهم وشاعريتهم وجمال الفرات فيها...

وأنطاكيا وسوريّتها الواضحة وترحيب الناس بي حين علموا أنني من سورية، وطنهم الأم...

في كل تلك الأسفار كنتُ أتصل بأمي وأبي ليطمئنّا عليّ وأتلقّى تشجيعهما المستمر وإيمانهما وثقتهما بي وبما أفعله.

لقد حرصتُ، في كل مدينة أو بلدة أدخلها، على زيارة جامعها وكنيستها، وكان شعوري في المكانين المقدّسين واحداً: فأنا أومن بأنّ كل الدروب تؤدي إلى المحبة طالما نحن نرتقي بإنسانيتنا التي خلقها اللّه على صورته ومثاله، وبأن اللّه محبة وسلام.

١٢- دراستي العليا وعملي ورحلاتي

قلتُ في ما سبق، إنني، ورغم علاماتي العالية "نسبياً" آنذاك في الشهادة الثانوية العامة، الفرع العلمي، التي كانت تخوّلني لدراسة كافة الفروع العلمية عدا الطب البشري والهندسة المدنية، فقد اخترتُ العلوم الإنسانية، قسم اللغة والأدب الفرنسيَيّن... ولو كان ثمة قسم للغة الإسبانية في ذاك الوقت، لاخترتُ الدراسة فيه لأني عشقتُ اللغة الإسبانية!

سأل أستاذ اللغة الإسبانية في المركز الثقافي الإسباني، ثيرفانتيس، الطلاب مرّة عن السبب الذي دعاهم إلى دراسة الإسبانية... حين جاء دوري في الإجابة، قلتُ: "لقد أحببتُ جرس هذه اللغة كثيراً... أنا لم أشعر أني أتحدث بها، بل أغنّيها"... أُعجِب الأستاذ حينها بهذا الوصف الذي صدر عني، إذ إنه لم يكن يعي، على ما يبدو، مدى تأثّري وحبي لهذه اللغة!

خلال دراستي الجامعية، كنتُ دوماً الأولى على الدفعة، وتخرّجتُ من الكليّة في المرتبة الثانية بمعدل ٧٩،٧ ٪ أما المرتبة الأولى، فقد كانت من نصيب صديقي الأب جورج، إذ تخرّج بمعدل ٨٠،١ ٪ ، وأكمل دراسة اللاهوت في إيطاليا... وبقيتُ أنا أحرز المرتبة الأولى في دبلومَيّ الترجمة واللسانيات.

كان لقبي في الجامعة "صديقة الفقراء"، وكنتُ أساعد زملائي في شرح ما يُستعصى عليهم فهمه، مستمتعة بهذه المهمة التدريسية. إضافة إلى ذلك، كنتُ سريعة جداً في كتابة الأفكار الرئيسية والهامة عن الأستاذ في الصف، لذلك كان الجميع تقريباً يستعير مني أوراقي لتصويرها، وأحياناً لا أسترجعها إلا قبل الامتحان النهائي بأسبوع واحد فقط! قيل لي وقتها بأنها المرّة الأولى التي يرى فيها الطلاب أن الأولى عليهم تساعدهم في الدراسة دون أنانية! استغربتُ هذا، فأنا لم أتعوّد الاحتفاظ بمعلوماتي لذاتي فقط، بل كنتُ وما زلتُ أحب تعميم الفائدة إنْ استطعتُ إلى ذلك سبيلاً.

لقد درّستُ زملاء لي لم يكونوا يستطيعون النجاح في مواد اللغة اللاتينية واللسانيات واللغة العربية، وبعد شرحي هذه المواد لهم، كانوا ينجحون فيها بعلامات ممتازة. كما أني درّستُ في الصيف صديقتي ثريا التي كانت تدرس الفنون الجميلة في باريس والأدب الفرنسي في دمشق؛ وقد نجحتْ في المجالَيْن. غير أنها كانت تشكو دوماً من الدراسة المتواصلة لمدة عام كامل، وخاصة دراسة اللغة اللاتينية وحالاتها الإعرابية، فتقول لي: "ريم، مللْتُ"!

على ذكر اللغة اللاتينية، أحب هنا أن أسجّل للتاريخ أني قد "أعدتُها للحياة" بعد أن صنّفها الجميع على أنها لغة ميتة... كيف؟! بالتحدث بها في البيت مع أبي الذي كان يتقنها... كنا نتسلّى على مائدة الغداء بالحديث باللغة اللاتينية، فتحار أمي بيننا!

في الجامعة، اختلطتُ بالجميع دون استثناء، إلا في ما ندر... كنتُ باختياري للاتجاه الأدبي قد انسلختُ عن أقرب صديقة إلى قلبي، وهي رامة، التي اختارت دراسة علم الصيدلة.

تعلّمتُ الكثير في الجامعة، وأصبحتُ أكثر خبرةً بالنَفْس البشرية...

في مدرسة اللاييك كنا ضمن محيط متوازن ومعروف، أما في الجامعة، فعرفتُ أناساً من كلّ حدب وصوب ومن كل المشارب. كنتُ دوماً أذهب سيراً على الأقدام، وأحياناً كان أبي يوصلني بسيارته الفارهة (بويك بيضاء طراز العام ١٩٦٤)، فكنتُ أطلب منه أن أنزل بعيداً عن مدخل الجامعة مراعاةً مني لكلّ مَنْ ليس لديه "تلك الرفاهية"! فيلبّي أبي طلبي برحابة صدر لأنه يعلم جيداً ويقدّر كيفية حكم الناس على المظاهر! كنتُ أريد ألّا ينفر مني أي شخص وألا أجرح مشاعر أحد!

في الجامعة أيضاً اشتركتُ في النشاط الثقافي والترفيهي فقدّمتُ "اسكتشات" اجتماعية ناقدة باللغة الفرنسية، مليئة بالجناس واللعب على معاني الكلمات، فتفاعل معها جمهور الكليّة بشكل كبير... شاركتُ أيضاً بالتمثيل في مسرحيات باللغة الفرنسية، كما في الغناء... وكتبتُ نقداً لاذعاً في نشرة أخبار الجامعة، وذلك في السنتين الثالثة والرابعة، على مسرح الحمراء في دمشق.

نشرة أخبار الجامعة ١٩٨٢

ما زلتُ أحتفظ بذكريات طيبة وبصداقات حقيقية من أيام الجامعة. من أصدقائي أيضاً، وإلى اليوم، شاب سنغالي اسمه عبد الله ديم وهو شديد التهذيب واللطف... كنتُ من الطلاب القلائل في الجامعة الذين يتحدثون معه، فشعبنا شديد العنصرية، وهذا ما اكتشفتُه في الشارع حين كنتُ أعود إلى البيت سيراً على الأقدام، وكان عبد الله يرافقني أحياناً، فنسمع كلاماً "عنصرياً" مؤذياً للإنسانية عامةً... عرّفتُه بعائلتي كلها وبأصدقائي من خارج الكليّة.

ما زال عبد الله ديم صديقاً وفياً رغم البعد الجغرافي، وقد أرسل لي بالبريد الإلكتروني صور أولاده... وهو يتصل بي من وقت لآخر للاطمئنان عني وعن سورية في هذه المحنة العصيبة التي تعاني منها ... كان في كثير من الأحيان يشكو لي همّه لما يعانيه من عنصرية في سورية!

حفلة كلية الآداب، قسم اللغة الفرنسية، ١٩٨٢

الاسكيتش على مسرح الحمراء ١٩٨٢

نعم، لم أكن أعرف أننا في غالبيتنا عنصريون، للأسف!

بعد أن أصبحنا أصدقاء، خطر في بالي سؤال يتعلّق به... اعتذرتُ منه قبل طرح السؤال، لكني، ومن باب المعرفة ليس إلا، سألتُه: "كيف يظهر الخجل على محيّاك؟ فنحن تحمرّ خدودنا"... ضحك طويلاً وقال:

"هذا سؤال ظريف... أما نحن، فحين نخجل تصغر استدارة عيوننا".

تلك معلومة أصبحتُ أعرفها جيداً... حين سافرتُ إلى باريس في صيف السنة الجامعية الثالثة وحصلتُ على منحة دراسية لتقوية اللغة الفرنسية لشهر ونصف الشهر، كان معنا في المدينة الجامعية أناس كثر من القارة السمراء، وكنتُ أيضاً الوحيدة التي أشاركهم نشاطاتهم وأفراحهم ومأكلهم ومشربهم... حتى إن أحدهم، وهو من كينيا، قال للبنات السوريات في غيابي: "ريم أفضل منكنّ جميعاً: إنها تعاملنا معاملة إنسانية، أما أنتنّ فلا ترغبنَ حتى بالحديث إلينا"! كان هذا الشخص أكبر منا جميعاً، إذ إنه كان يحضّر الدكتوراه، ويبدو أنه كان يعاني سياسياً في بلاده، لذلك فقد لجأ إلى فرنسا.

مع زملاء الجامعة وعبدالله ديم ١٩٨٢

في حفلة التعارف التي أقامها مدير المدينة الجامعية، قمتُ بإعداد وجبة الكبّة بالصينيّة وكذلك شراب القهوة المرّة العربية والبنات الأخريات أعددنَ طبق التبولة. وجدتُ صعوبة، بادئ الأمر، في شراء "البرغل". بناء على نصيحة أحد الطلاب التونسيين، ذهبتُ إلى شارع " موفتار" في باريس، وهناك اشتريتُ ثلاثة كيلوغرامات من اللحم. دُهِش اللحّام قائلاً: "لن أعطيك طلبك حتى تقولي لي ماذا ستفعلين بكل هذهِ الكمية، فهذه أول مرة في حياتي، وأنا قد تجاوزتُ سن الستين، أقابل زبونة تريد شراء هذه الكمية من اللحم"! شرحتُ له طويلاً عن أكلة الكبّة وعن الأعداد الكبيرة لطلاب المدينة الجامعية الذين سوف يشاركون في التهام هذا الطبق السوري اللذيذ. ابتسم وأعطاني ما طلبتُه منه. بقي عليّ شراء البرغل... دخلتُ إلى دكاكين عدّة أشرح لأصحابها بالفرنسية ما هو البرغل: "قمح مكسَّر ناعم،

لونه من لون القمح... إلى آخره". لم يعرف أحد عماذا أتحدث، إلى أن فطن صاحب دكّان من تلك الكاكين وقال لي بالفرنسية: "Ah, j'ai compris…, Vous voulez du bourghol"، أي (آه، فهمت، تريدين "البورغول")!

عبد اللّه وأنا في بيت أهلي في دمشق

أخيراً، وصلتُ إلى مبتغايَ؛ فأجبتُه: "نعم، أريد البرغل"... لم أكن أعرف أن كلمة "البرغل" قد تحوّلتْ إلى "بورغول" بالفرنسية! لا بأس... فالفرنسيون يشوّهون كل الأسماء حين يلفظونها، حتى أجمل الأسماء في لغتنا العربية... تخيّلوا اسم "ورد"، إنه يعني الأسد أو الورود... وحين يلفظ الفرنسيون حرف الراء، يحوّلونه إلى حرف "غين"... فيصبح لفظ هذا الاسم "وغد"! فهم ينطبق عليهم المَثَل العامي القائل "عطوا الدب، حرير يكبّ... قال مبيِّن على إيديه هالطرايا!" [16]

بعد تلك الحفلة الناجحة في مكان إقامتنا في باريس، تطوّعتُ مع عدد من الطلاب الأفارقة من أجل إنجاز عملية تنظيف الصحون والأواني والكؤوس، وشاركنا مدير المدينة الجامعية وبقينا حتى ساعات الصباح الأولى ونحن نساهم في حملة التنظيف تلك... كانت أياماً حلوة!

---

[16] مَثَل يسخر من الفظّ الذي يتعامل مع الأمور المرهفة! يكبّ هنا معناها يصنع كبباً من الحرير!

اجتمع هناك طلاب كثر، من العرب، من المحيط إلى الخليج... كنتُ أتحدث معهم بلهجاتهم المختلفة لأني أعشق اللهجات وتنوّعها وجَرسها الجميل. كنتُ الوحيدة تقريباً التي تفهم على المصري والجزائري والمغربي... إلخ، لذلك كان بالأخص المصريون يلجأون إليّ لأترجم لهم اللهجة المغربية إلى اللهجة المصرية، فكان أحدهم يناديني ويقول بلهجته المصرية المحبّبة: "والنبي يا ريم تترجمي لنا المغربي، هوّ بيقول إيه؟!"

بالنسبة لي، من المهم جداً فهم اللهجات العربية واستيعابها، وهي مسألة تعوّد لا أكثر، كي يصبح الاحتكاك بين الناس والتفاهم في ما بينهم سلساً ومريحاً... يحتاج الأمر برأيي إلى قليل من الانفتاح وكثير من المحبة!

في ذلك الصيف، زرتُ مدينة "لونس لو سونييه" في منطقة الجورا حيث تقطن جدة صديقتي رامة، قرب الحدود الفرنسية السويسرية... كما حضرتُ عرساً ريفياً في قرية "شاتو شالون"، وهي مكان وادع وجميل وأخضر... ذهبنا إلى الحلّاقة في لونس لو سونييه أنا ورامة كي نرتّب شعرنا لحضور العرس، فأصرّت الحلّاقة على أنني لستُ فرنسية بسبب كثافة شعري السابل، واعتقدت أني إسبانية، فأخبرتها أني من سورية، واضطررتُ إلى شرح جغرافي طويل كي تعرف أين تقع سورية!

رافقتُ رامة في رحلة ريفيّة على ظهر الخيل وكانت مغامرة جريئة وصعبة في الوقت ذاته!

كنا أنا وهي نرافق جدّتها، المعروفة جداً في المنطقة، لشراء أغراض البيت، فأصبح الناس هناك يلقون عليّ التحية حتى لو كنتُ وحدي... ألستُ ضيفتهم؟! الأكل الفرنسي طيب ولذيذ في تلك المنطقة، كذلك البوظة... ولا أنسى طبق البوظة الكبير الذي التهمناه أنا ورامة وهو بوظة Fruit de la passion أي فاكهة الهوى، وهي فاكهة أفريقية لذيذة في طعمها الحامض.

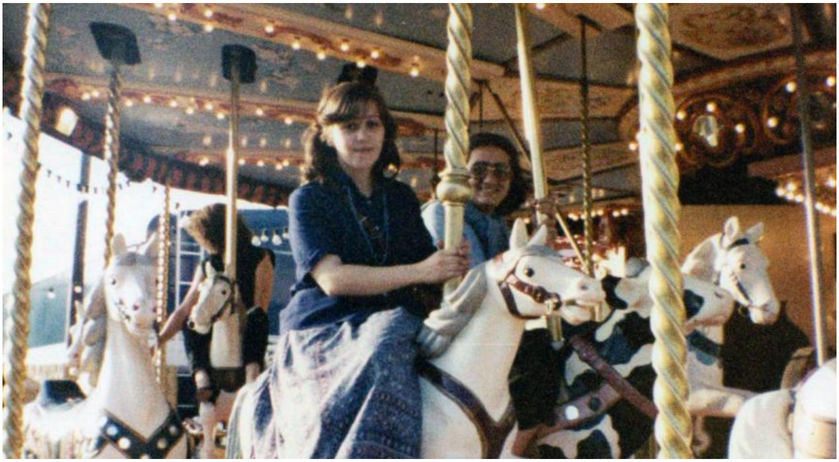
أنا ورامة والعودة إلى الطفولة في باريس ١٩٨١

مغامرتي على صهوة "هيروندل" ١٩٨١

لقد تدلّلتُ هناك دلالاً لن أنساه ما حييت؛ كان أسبوعاً من أحلى الأوقات التي قضيتُها في حياتي! وفي أحد الأيام، بلغ بنا الحنين للطفولة حدّه الأقصى، فذهبنا أنا ورامة إلى مدينة الملاهي وركبنا "الزحليطة" والأحصنة الخشبية مع الموسيقى، ودخلنا غرفة الرعب وركبنا القطار الذي يهبط بسرعة من مسافة عالية، ويدعى La montagne russe أي الجبل الروسي كما أنني لعبتُ لعبة الصيد بالبندقية وأصبتُ الأهداف فربحتُ لعبة للأطفال وهي قطة حلوة! يمكن القول إني لعبتُ في مدينة الملاهي الفرنسية بما لم أفعله في بلادي! كانت لحظات سعيدة ومضحكة!

تابعتُ بعد تخرّجي من الجامعة دراسة دبلوم الترجمة واللسانيات ثم أنهيتُ الماجستير في جامعة دمشق بدرجة امتياز في العام ١٩٩٤، وكانت حول "دور الترجمة، أو العودة إلى اللغة الأم في تعليم اللغات الحيّة" .

في منطقة الجوراه الفرنسية في بيت جدة رامة ١٩٨١

ثم نلتُ درجة الدكتوراه من جامعة النور في مدينة ليون الفرنسية في العام ٢٠٠٣، في "***تحليل الأخطاء في الترجمة باللغتين الفرنسية والعربية عند المتعلّمين الناطقين بهما***" بدرجة مشرِّف جداً بإجماع لجنة التحكيم.

أما الهدف من هذا التحليل فهو معرفة أسباب الأخطاء للاستفادة منها في تجنيب تكرارها من المتعلّمين؛ وبهذا الشكل يمكن رؤية الأخطاء بشكل إيجابي لأنها تفيد المتعلّم كي يفهم سببها وبالتالي لا يكررها.

بالرغم من أنني كنتُ المرَشَّحة الأولى بعد نيل إجازة الأدب الفرنسي في المرتبة الثانية للحصول على المنحة السورية لإكمال دراستي العليا في فرنسا، بسبب أن صاحب المرتبة الأولى قد قرر الاختصاص في إيطاليا في مادة اللاهوت المسيحي، إلا أنه " نُمِيَ" إلى مسامعي ألا أتجشّم عناء التقدّم لمسابقة المُعيدين الجامعيين لأني لَستُ من ضمن "المَرضي عنهم" بسبب تاريخ أبي السياسي!

تابعتُ دراستي العليا في دبلوم الترجمة في العام ١٩٨٣؛ وفي هذا العام بالذات، طرحتْ وزارة الخارجية السورية مسابقة، لحاجتها إلى عشرة موظفين من الشبّان والشابّات كي ينضمّوا إلى السلك الدبلوماسي. تقدّمتُ إلى المسابقة وكان مستواها عالياً: امتحانات في القانون الدولي والصحافة السياسية والترجمة باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية. نجحتُ في المسابقة التحريرية، وبذلك استطعتُ التقدّم إلى المسابقة الشفهية أمام لجنة مؤلَّفة من خمسة أو ستة أساتذة طرحوا عليّ أسئلة سياسية وثقافية واختبرني أحدهم بالترجمة الفورية باللغات الثلاث الآنفة الذكر.

أذكر أنه بعد فترة وجيزة التقيتُ مصادفةً بأحد أعضاء هذه اللجنة في شارع أبي رمانة، وأظنه من آل الحيّاني إن لم تخنّي الذاكرة، فهنّأني على نجاحي وأكّد لي أن ترتيبي هو الثالث بين الناجحين، وقال لي:

"سوف تنضمّين إلينا لتعملي معنا في وزارة الخارجية، وسوف تكونين دبلوماسية ناجحة... ألف مبروك"!

انتظرتُ النتائج الرسمية طويلاً، لكنها لم تظهر... قيل لي في ديوان الوزارة إن الوزير قد ألغاها!

قلتُ لنفسي: "إيه... هذا هو نصيبي"! لكنّ المصادفة جمعتني بزميل سابق لي في الجامعة، وكان قد تقدّم إلى مسابقة وزارة الخارجية معي أيضاً وحصل على المرتبة الحادية عشرة، أي كان الأول في الاحتياط؛ سألني:

"ريم، لماذا لم تلتحقي بالعمل في الخارجية؟" أجبتُه: "لقد قيل لي في ديوان الوزارة إن الوزير ألغى نتائج المسابقة"!

فأردف قائلاً: "هذا صحيح... ظاهرياً فقط... إلا أن الديوان اتصل بنا فرداً فرداً، وانتقى الوزير التسعة الأوائل وأنا الأول في الاحتياط"! دُهِشْتُ ولم أُدْهَشْ لمعرفتي بذاك الوزير... فقلت لزميلي: "لقد اختار الوزير التِسعة الأوائل دون الثالث، أنا، واختارك بديلاً عني... مبروك، أتمنى لك التوفيق في عملك"! لم ينبس زميلي ببنت شفة، إذ إنه لم يعرف ماذا يقول... إنه الآن قد أصبح سفيراً لبلادي في إحدى دول أوروبا الغربية!

لم يخترْني وزير الخارجية السورية آنذاك كي أنضمّ إلى العمل الدبلوماسي للسبب نفسه الذي لم أحصل فيه على منحة المعيدين في جامعة دمشق!

لم أهتم كثيراً... ومجدّداً قلتُ لنفسي، هذا هو نصيبي، وأخذتُ أردّد مع أبي العلاء المعرّي بيت شعره الشهير:

هذا جناهُ أبي عليَّ   وما جنيتُ على أحد

لكنني في واقع الأمر، لم أعتبر أن هذا هو ما "جناه أبي عليّ" بل هو ضيق الأفق الإداري والحقد السياسي الذي يعتمل في صدر هذا الوزير الذي كان "يخدم" في هذا المنصب في تلك الآونة!

لم أكن الوحيدة في البيت في احتمال مثل هذا النصيب، فقد نال أخي ثائر أيضاً قسطاً منه، إذ إن هذا الحقد السياسي طاله حين أُريدَ له أن يأتي فرزه في خدمة الدولة في حقول الرميلان في الجزيرة السورية! ورد ذلك في قرار الفرز وقد اعتُبِر أنه مهندس بترول. غير أن أخي هو مهندس مدني! لقد أعمى هذا الحقدُ مَنْ كتب القرار، وكان هدفه فقط إبعاد أخي إلى أقصى نقطة في هذا الوطن، وهو لا يدري أن وطننا من أدناه إلى أقصاه في قلوبنا جميعاً... فشلتْ هذه المحاولة الرخيصة، وتمّ تعيين أخي في المكان المناسب لمؤهّلاته في دمشق!

تابعتُ مسيرتي في الحياة... وبتشجيع وإلحاح من صديقتي غادة، صديقة طفولتي وصباي وحتى اليوم، تقدّمتُ إلى مسابقة وزارة الثقافة، في العام ذاته، الهادفة إلى اختيار موظّفين لتأسيس المكتبة الوطنية الجديدة، مكتبة الأسد الوطنية.

نجحتُ في المسابقة، وكنتُ الأولى على المتقدِّمين من حاملي الإجازة الجامعية في اللغة الفرنسية وآدابها.

وفي ١٢ آذار / مارس من العام ١٩٨٤ بدأنا العمل في مكتبة الأسد الوطنية، وكان عددنا وقتها خمسة عشر شخصاً، وهم الذين سوف يتنكّبون مهمة تأسيس هذا الصرح الثقافي، بعد الخضوع لدورة تدريبية في علم المكتبات، مدتها ستة أشهر كاملة... وهكذا كان.

تعرّفتُ إلى أصدقاء جدد في هذه الدورة، وبقينا على صداقتنا إلى اليوم: أليسار، وقد حدّثتُكم عنها قليلاً... وعبير، سريعة البديهة وصاحبة

"النكتة الذكية والمهضومة" حتى في أحلك الظروف... وسلافة المُحبّة وهيام الجميلة وآمال الصديقة الصدوقة. اجتمعنا كلّنا في مكتب واحد في قسم التصنيف... كان مكتباً مميَّزاً بشهادة الجميع... وما زالتْ علاقتنا مميَّزة حتى اليوم.

لم أحضر الافتتاح الرسمي للمكتبة لأني كنتُ في منحة دراسية لعلم المكتبات باللغة الفرنسية، مقدَّمة من منظمة اليونسكو إلى مكتبة الأسد الوطنية... وكنتُ الوحيدة بين المؤسسين الخمسة عشر التي تتقن اللغة الفرنسية، فكانت هذه المنحة إلى بلغراد عاصمة يوغوسلافيا من نصيبي. بقيتُ هناك ثلاثة أشهر، تدرّبتُ خلالها على العمل في كافة أقسام المكتبة الوطنية في بلغراد. أُتيحتْ لي، للمرّة الأولى في حياتي، فرصة حضور مسرحيات أوبرالية للفنان الإيطالي العالمي فيردي، إذ حضرتُ أوبرا نابوكو وأوبرا لاترافياتا الجذلة... شكّل ذلك بالنسبة لي دهشة جميلة وفريدة من نوعها آنذاك.

هذا ما جعلني، حين عدتُ إلى دمشق وقدَّمتُ تقريراً مفصَّلاً عن كل ما تعلّمتُه هناك في مكتبة بلغراد الوطنية، أدرّب موظفين جدداً في مكتبة الأسد، في كل الأقسام، ثم أسلّمهم العمل لأنتقل إلى قسم آخر مع متدرِّبين آخرين. أما الأقسام التي أسستُ العمل فيها ودرّبتُ موظفيها، فهي: قسم الفهرسة، قسم الفهارس، قسم الدوريات القديمة، قسم الدوريات الحديثة، قسم المخطوطات، قسم الفنون التشكيلية السورية والأفلام والموسيقى والنقود القديمة السورية... كما أني كنتُ مسؤولة عن التدقيق في أقسام التصنيف والفهرسة والبيبليوغرافيا والتوثيق... إضافة إلى تدريس مادة التصنيف في الدورات العديدة التي نظمتها المكتبة في دمشق من أجل تدريب أمناء المكتبات في المحافظات السورية كافة.

أصدقاء المكتبة: هيام، عبير، سلافة، ريم ١٩٩١

في بلغراد، أو المدينة البيضاء كما يعني اسمها، جمعتني الصدفة البحتة بأحد أقارب أمي وهو زهير خوري، ابن أخت الأستاذ ميشيل عفلق. لقد خمّن مباشرة، حين علم من زوجة صديقه، التي تعمل في المكتبة الوطنية، بوجود سوريّة من آل الأطرش في بلغراد من أجل منحة دراسية فيها، أن تلك السوريّة لا بدّ أن تكون ابنة شخص منفتح، تزوّج من قريبته المسيحية... فلم يجد بداً من أن أكون أنا... وقد كان محقّاً في تخمينه.

كان زهير من الأشخاص النادرين الذين يتمتّعون بروح الدعابة والصدق والإخلاص... وقد هوّن وجودُه عليّ كثيراً وحدتي في بلغراد. عرّفني إلى عائلته وأصدقائه وكان يطمئنّ عليّ بين الحين والآخر.

دارت الأيام وعاد زهير إلى دمشق بعد غياب طويل عنها... رأيتُه في بيت أخيه في دمشق في العام ٢٠٠٠ على ما أذكر... روى لي عن كيفية تفكيك يوغوسلافيا، وماذا فعل حلف شمال الأطلسي (الناتو) بقيادة الولايات المتحدة الأميركية من أجل تحقيق هذا الهدف، وعن كيفية

"التضليل الإعلامي الممنهج" الذي كان يدّعي بأن الصرب هم المعتدون، بينما كان ألبان كوسوفو، الذين شكّلوا جيش كوسوفو الحر بمساعدة الناتو، هم المعتدين، والصرب يحاولون طوال الوقت الدفاع عن وجودهم... كما حكى لي عن كيفية تدمير الناتو للبنى التحتية اليوغوسلافية بشكل ممنهج أيضاً من أجل ألا تقوم قائمة لهذه البلد بعد ذلك!

حينها، استغربتُ هذه المقولة، لكني عدتُ ووجدتُها حاضرة في ما يجري اليوم من "ربيع" جهنّمي في بلاد العرب!

في الغوطة: أليسار، سلافة، ريم، عبير وقمصان اليونيسف

في أثناء عملي في مكتبة الأسد الوطنية، بقيتُ دون مكتب من العام ١٩٨٤ وحتى العام ١٩٨٦، أي طوال عامين كاملين، كنتُ أجلس في أثنائهما إلى جانب سلافة، في الجزء الخشبي الصغير المتمّم والمتعامد على مكتبها، وأنجز كل الأعمال المطلوبة مني في المكتبة، وما أكثرها!

أحياناً، كنتُ آخذ معي إلى البيت بطاقات الفهرسة والتصنيف لتدقيقها والانتهاء منها كي لا يتراكم هذا العمل إلى اليوم الذي يليه... وهكذا...

لم يكن يعنيني أمر وجود مكتب خاص بي، المهم هو إنجاز العمل بدقة... إلى أن دخل المدير العام، في أحد الأيام، فوجدني أتشارك مع سلافة في مكتب واحد. استغرب الأمر وسألني: " لماذا لا تجلسين إلى مكتبك الخاص بك؟" فأجبتُه: " لا مكتب خاصاً لديّ"... دُهِش متسائلاً: "أنتِ تعملين في المكتبة منذ سنتين دون مكتب؟"... أجبتُه:

المكتبة الوطنية في بلغراد ١٩٨٤

"نعم... لم يكن ثمة من مكاتب كافية للجميع"!

أمر المدير العام فوراً بإحضار مكتب لي ولام مديري المباشر على هذا "التقصير". أما أنا، فلم أكن أهتم بكل هذه المظاهر طالما أني كنتُ أقوم بواجبي وأنجز المطلوب مني! حينها، قدّرتُ قيمة وصية أبي لي قبل أن أنخرط في العالم الوظيفي، عندما نصحني بالابتعاد عن نفسية الموظف البيروقراطي!

كنتُ أنا وأليسار، وفي ما بعد سلافة، نجاهر بنقدنا البنّاء في الاجتماع العام الذي اقترحتُه على المدير العام لإقامته بشكل سنوي من أجل تقييم عملنا في المكتبة؛ كما اقترحتُ إنشاء صندوق للشكاوى، يضع فيه القرّاء نقدهم وآراءهم. فمَنْ لا يعمل لا يخطئ، وأهمية الخطأ هو في عدم تكراره حين يتم التنبيه إليه، كما أن التقدّم في العمل لا يكون إلا باستمزاج رأي المُستَهدَفين، وهم في حالتنا هذه القرّاء في المكتبة.

للأسف، تحوّل الاجتماع السنوي إلى عرض للإنجازات... وتمّت مراقبة صندوق الشكاوى، "بأمر خفيّ"، كي لا يتجرّأ أحد من القرّاء على وضع شكواه فيه، تحت طائلة عقوبة قد تصل إلى سحب بطاقة اشتراكه وإلغائها!

قبل الاجتماع السنوي، كان الموظفون يأتون إلى مكتبنا لعرض مشاكلهم من أجل أن أنقلها، أنا، علناً إلى الإدارة. كانوا لا يجرؤون على البوح إلا أمامي، لدرجة أن سلافة لامتهم مرة قائلة: " أنتم دوماً تضعون ريم في بوز المدفع، وهذا قد يؤذيها"!

رغم هذه الملاحظة، فقد بقيتُ أعرض مظالم الموظفين علناً وأشير بوضوح إلى الأخطاء التي تحدث في المكتبة، حتى إن المدير العام سألني مرة: "هل وقع عليك أنتِ هذا الظلم؟"؛ فقلتُ: " لا، ولكني أنقل إليك المظالم التي تقع على الآخرين حتى تصل إلى مسامعك، طالما أنهم لا يجرؤون على البوح بها... المهم في الموضوع أنها حدثتْ فعلاً...". وهكذا...

كان إيماني مطلقاً بأن النقد البنّاء هو السبيل الوحيد للتطوير والبناء! غير أن الإدارة لم تتحمّل ذلك، فتمّت معاقبتي بنقلي إلى الدوام المسائي، فتأثيري في العمل وفي الآخرين يصبح في حدوده الدنيا. اعترضتُ خطياً على هذه الخطوة، إذ تمّ وضعي في مكان لا يتناسب ومؤهّلاتي العلمية والوظيفية وأدنى من فئتي الوظيفية، وفي ذلك مخالفة لقانون العمل

وللنظام الداخلي في المكتبة. إلا أن " ديكتاتورية الإدارة" جعلتها لا تنتبه إلى هذه المخالفات القانونية المرتكبة... "قال يا فرعون مَنْ فرعنك؟ قال ما لقيت مَن يردني"!

فقامتْ الإدارة بالتحقيق معي كتابياً كي تعي ماهية هذه المخالفات؛ وحين شرحتُها، أبقتني في الدوام المسائي مع تصحيح في وضعي الوظيفي من حيث الفئة فقط وليس من حيث المقدرة والإمكانيات! أي أنها ألغتْ المخالفات من الناحية القانونية، أما الناحية الإنسانية والاستفادة من كفاءاتي، فهذا أمر " ثانوي" بالنسبة لها! كما أن رقابة مشدّدة تمّ وضعها على تحرّكاتي لصالح الإدارة، كانت من مهام... خمّنوا مَنْ... من مهام المسؤول "النقابي"، ظنّاً منها أني سوف أتراجع عن القيام بواجبي، كما فعل آخرون كثر غيري وقعت عليهم ظلماً مثل هذه العقوبة!

خاب ظنّ الإدارة، إذ إني بقيتُ مواظبة على عملي كما كنتُ في الماضي... أصبحتُ المسؤولة المسائية عن قسم الدوريات الحديثة، فنظّمتُ "الكارديكس"[17] بالعربية واللغات الأجنبية المتعددة، حتى الروسية منها بمساعدة زميل لي درس هناك، اسمه وائل. احترمتُ القرّاء وعقلهم، فكنتُ أجيبهم على أسئلتهم بشكل شامل بحيث لا يحتاجون إلى تكرار السؤال! كما أنني كنتُ أراعي وضعهم في أثناء انقطاع التيار الكهربائي صيفاً، فأضع بتصرّفهم مراوح يدوية تخفّف عنهم وطأة الحرّ. إضافة إلى ذلك، وبتكليف من مديري المباشر، أنهيتُ خلال أربعة أشهر، توثيق عشرين عاماً من المواضيع السياسية في الجرائد السورية، من خلال توثيق خطابات رئيس الجمهورية العربية السورية، من العام ١٩٧٠ إلى العام ١٩٩٠!

---

[17] بطاقات طويلة مرتَّبة أبجدياً يُكتَب عليها الوصف الخاص بالدوريات من عنوان ورقم الدورية ورقم مجلّدها وتاريخها ... إلخ.

رغم هذا فقد شعرتُ أن طاقتي أكبر من كل تلك الأعمال، فبدأتُ بالاهتمام بالترجمة ونشر الكتب الخاصة بي.

مرّتْ ثلاث سنوات وأنا على هذه الحال... شعرتُ أن العمل في المكتبة قد فَقَد وهجه بالنسبة لي، إذ حرمتني الإدارة من بذل طاقة كبيرة أمتلكها لصالح تطوير العمل... ورغبةً مني في ألا أتحوّل إلى طاقة مجمّدة لا يُستَفاد منها، انتقلتُ للعمل مديرة للنشاط الثقافي في المعهد العالي للفنون المسرحية، وكان عميد المعهد آنذاك الدكتور غسان المالح. قمتُ خلال فترة وجيزة بتصنيف مكتبة المعهد وتدريب أمينة المكتبة، رانية، ومساعدتها، غنوة، على هذا العمل وكسبتُ صديقتَيْن جديدتين في حياتي.

أما رانية، فقد عرفتُها من أيام الجامعة، وتوطّدتْ صداقتنا أكثر فأكثر. أما غنوة، فقد تعرّفتُ إليها في المعهد، وكانت وما زالتْ بالنسبة لي نعمَ الصديقة رغم البعد الجغرافي بيننا! كنا أنا وهي نجلس بالساعات معاً لِنحلّل أموراً كثيرة تواجهنا في حياتنا العملية والعامة... كانت غنوة وما زالت متميّزة في التحليلات النفسية والفكرية وهي فتاة مثقفة وذات أصل طيب... لكنها أحياناً تكثر من تفاصيل التحليلات وتتشعّب فيها، فكنتُ أغني لها مقطعاً من أغنية جوزيف صقر (عايشة وحدها بلاك): "حاجة تحلّل وحياتك، تسلم لي تحليلاتك..."!

اختلف عميدا المعهد العالي للفنون المسرحية والمعهد العالي للموسيقى، وهما معهدان في بناء واحد، بجانب دار الأوبرا حالياً، ولم يمضِ على انتقالي إلى المعهد المسرحي سوى أربعة أشهر. استطاع عميد معهد الموسيقى إزاحة العميد الآخر، وأصبح هو عميد المعهدين!

وكمعظم المدراء في بلادي، أزاح كلّ مَنْ كان يعمل مع عميد المعهد المسرحي دون الاهتمام بقدراته أو بما أنجز في حياته المهنية... وقام بنقل

هؤلاء إلى الدوام المسائي، وأنا طبعاً منهم، دون أي صفة مهنية، في مكان لا عمل لي فيه!

قَدَري، على ما يبدو أن أقع بين براثن مثل هذه العقليات... اعترضتُ وقلتُ له: "أنا مديرة نشاط ثقافي وقد بدأتُ هذا العمل حديثاً، لكن بنجاح، ونشاطي يشهد على ذلك". فأجابني بكل ثقة: "ما عندنا نشاط ثقافي هنا..."! تساءلتُ مندهشة: "في المعهد العالي للفنون المسرحية والمعهد العالي للموسيقى لا يوجد نشاط ثقافي؟"... فأجاب بالإيجاب وبثقة منقطعة النظير!

قرّرتُ ترك العمل والابتعاد عن هذه الأجواء التي تتحكّم فيها عقليات بيروقراطية...

عدتُ إلى التعليم في الجامعة والمركز الثقافي الفرنسي والمعهد الفرنسي للدراسات العربية، أو ما أصبح يدعى الآن بالمعهد الفرنسي للشرق الأدنى IFPO . واتجهتُ لإكمال دراستي العليا للحصول على الدكتوراه، ونلتُها بعد تسعة عشر عاماً مضتْ على بداية انخراطي في معترك الحياة العملية. حين حصلتُ على هذه الدرجة العلمية، ترسّختْ في وجداني المقولة التالية: "كلّما ازدَدْتُ علماً، ازدَدْتُ جهلاً"... فما زال ثمة الكثير الذي ينقص المرء ليتعلّمه في حياته، مهما علتْ درجة تحصيله العلمي!

وحمدتُ الله أني أكملتُ دراستي العليا بعد نضوج التجربة العملية والمعرفة الدقيقة بكل صعوباتها، وبالتالي، اختيار العودة إلى الوطن وإكمال مسيرة العمل فيه عن وعي ودراية بما ينتظرني فيه. فلقد شهدتُ حالات كثيرة من هجرة الشباب خارج الوطن بعد إتمام الدراسة العليا في أوروبا باكراً والسعي من أجل البقاء فيها...

"وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم".

هكذا، سنحتْ لي الظروف بالتعرّف إلى العقلية الإدارية السورية والفرنسية على حدٍّ سواء: كلاهما تتميّزان بديكتاتورية واضحة، لا تختلف إحداهما عن الأخرى سوى بأن الأولى تمنعكَ من التعبير عن رأيك، أما الثانية فتسمح لك بهذه " الكمالية" غير أنها لا تفعل في النهاية إلا ما تريده هي فقط! إضافة إلى تمييزها العنصري الصارخ، ولكن "بلياقة" الفرنسيين المعهودة! فيا لهذه العقلية الديمقراطية المتطوّرة!

عملتُ أستاذةً للغة الفرنسية، لغةً أجنبية في جامعة دمشق، في كلية اللغات، منذ تأسيس القسم الفرنسي، وأيضاً في كليّة المكتبات منذ تأسيسها... ثم في المركز الثقافي الفرنسي وفي المعهد الفرنسي للدراسات العربية، إذ درّستُ اللغة الفرنسية للسوريين والعامية الشامية واللغة العربية الفصحى للأجانب...

وبعد حصولي على درجة الدكتوراه، قمتُ في المعهد الفرنسي للشرق الأدنى بتدريس الأدب العربي الحديث والصحافة والفكر السياسي والترجمة. إضافة إلى مشاركتي في مؤتمرات علمية دولية في مجال تعليم اللغتَيْن العربية والفرنسية لغير الناطقين بهما، في جامعتَيْ دمشق وحلب وفي جامعة صوفيا في بلغاريا... وقد ساهمتُ أيضاً في تدريب بعض أساتذة هاتين اللغتين على الاستفادة من أخطاء المتعلّمين لديهم من أجل تجنيبهم إياها وتطوير تعلّمهم.

أما رحلاتي، فقد كانت كلها "من عَرَق جبيني"، كما يقال: فإما منحة دراسية أو وظيفية، ونادراً، سياحيّة من كدّي وتعبي... وهذا ما أفخر به.

زرتُ أحد عشر بلداً، إضافة إلى بلدي الحبيبة سورية التي بتُّ أعرفها من أقصاها إلى أقصاها، وهذا ما جعلني أتعلّق بها أكثر...

والبلاد هي: لبنان (عدة مرات) – فرنسا (عدة مرات) – الأردن (عدة مرات) – يوغوسلافيا (مرة واحدة) – إسبانيا (مرتان) – مصر (مرة واحدة) - تركيا (مرة واحدة) – الصين (مرة واحدة)– إيطاليا (مرتان) – إنكلترا (مرة واحدة) - بلغاريا (مرة واحدة).

أما سورية، فقد زرتُها كما قلتُ من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها من أجل تحضير بحث (الحرير في سورية)...

خلال مروري بمدينة الرقّة، زرتُ الأديب والطبيب السوري المعروف، الدكتور عبد السلام العجيلي، الذي أصبح صديقاً لي، وحدّثني عن زياراته لجدي سلطان في القريّا، وأراني الصور التذكارية التي التقطها هناك...

وقد شجّعتُ إحدى طالباتي الفرنسيات على ترجمة إحدى قصصه ورتّبتُ لها موعداً معه في دمشق في العام الجامعي ٢٠٠٣ – ٢٠٠٤ .

مع الدكتور عبد السلام العجيلي في بيته في الرقة، ١٩٩٢

كنتُ أراسله فيردّ دوماً على رسائلي، وكان يكفي أن أضع على المظروف العنوان التالي:

الدكتور عبد السلام العجيلي، الرقة... فليس ثمة من داعٍ لتحديد مكان سكنه، فهو عَلَم على رأسه نار...

هكذا كانت تُرسَل الرسائل إلى جدي سلطان أيضاً: سلطان باشا الأطرش – السويداء – القريّا ...
وكفى...

مع الدكتور عبد السلام العجيلي وشقيقته في الرقة والعم نبيه خوري صديقي النادر والحميم ١٩٩٢

كنتُ أزور اللاذقية، عروس بحرنا السوري أيضاً لأتمتّع بشمسها والسباحة في مياه بحرها الأزرق في عمقه، الواسع في انفتاحه والرهيب أحياناً في موجه. أنزل في مياهه الدافئة فأتخفّف من همومي وقلقي... بحرنا كريم لا يغضب منا حين نرمي أحمالنا على كاهله، ولمَ الغضب، أليس مداه يتسع حدّ الأفق، كي لا أقول السماء؟!

في قرية أم الطيور، تمتّعتُ بأروع منظر طبيعي شاهدتْه عيناي: جبل أخضر شامخ، ينحني شيئاً فشيئاً ليستقبل البحر الأزرق... تسلّيتُ بجمع الحصى الذي حتّتْه عوامل الطبيعة والسنون فجعلتْ ملمسه أنعم من الحرير!

في كَسَب ١٩٨٩

أما كسب وصلنفة، فغابات وأشجار وسماء وقرميد أحمر وأناس أطيب من الطيبة ذاتها ...

أعود إلى مدينة اللاذقية الوادعة بأهلها الطيبين... هناك، على الكورنيش الجنوبي، كنتُ أزور صديقتي سامية، التي تعرفتُ إليها خلال عملي في المكتبة، وهي تكبرني في الحقيقة باثنتي عشرة سنة؛ دامتْ الصداقة بيننا إلى أن ارتقت في أوائل العام ٢٠٠٦ ، بعد معاناة شديدة مع المرض، ومن خلاله، معاناة مع أسئلة وجودية، حاولتُ قدر مستطاعي التخفيف من أثر الاثنين معاً ... هل نجحتُ؟ آمل هذا من كل قلبي...

كانت تصرّ دوماً على دعوتي لزيارتها لتأخذني وتعرّفني إلى قريبَيّها المعروفَين في سورية والوطن العربي في مجال الموسيقى والأبحاث الموسيقية: الأستاذين محمود وزياد عجّان. لن أنسى ما حييت سهراتنا الراقية ونحن نستمع ونستمتع بحديث الأستاذ العبقري محمود عجان، رحمه الله، وعزفه الجميل؛ كما أنني لن أنسى سهرة رائعة في بيت الأستاذ زياد، أطال الله في عمره، حين أخذنا نغني معاً من تراث بحرنا الجميل، أغنية "يا ما أحلى الفسحة... على راس البر، والقمر نوّر... على موج البحر". منذ تلك اللحظة، وأنا أعشق هذه الأغنية وأدندنها دوماً! كانت أياماً حلوة وعذبة... لن تتكرر... رحمك الله يا صديقتي اللطيفة سامية...

ما زلتُ أذكرها وأذكر نقاشاتنا العميقة في إنسانيتها عن الله والإنسان والتسامح والغفران...

عن محبة مصر وسورية وأدبائهما وثقافتهما...

عن السينما وأفلام الأسود والأبيض، "دعاء الكروان"...

عن عبد الوهاب وعبد الحليم... والبحر...

تلك المحبة هي التي جمعتنا... وإلى الأبد...

أما زيارتي إلى الصين في شهر تشرين الثاني / نوفمبر من العام ٢٠٠٢، فكانت بدعوة من منظمة اليونسكو، بعد مُضي عقد كامل على المنحة التي ساعدتني في تحقيق بحث (الحرير في سورية).

لقد اختارت المنظمة أفضل خمسين بحثاً من أصل مئة، قدّمتْ اليونسكو لأصحاب هذه الأبحاث المنَح خلال عشر سنوات. تمّ اختيار بحثي لعرضه، مع الصور، أمام خبراء اليونسكو ومجموع الباحثين الخمسين، الذين فعلوا الشيء ذاته...

قدّمتُه باللغة الإنكليزية، وتمّت المناقشة والأسئلة بهذه اللغة، ولكني أجبتُ عن الأسئلة باللغة الفرنسية، لتمكّني منها بشكل أفضل، وذلك على مدرّج جامعة مدينة "تشي آن"، أول مدينة على طريق الحرير، وهي تقع إلى الشمال الشرقي من العاصمة بكين.

نال بحثي (الحرير في سورية) إعجاب الحاضرين والاختصاصيين، وخاصة سفير النوايا الحسنة لليونسكو، الرسام الياباني السيد هيرايااما، الذي قدّم لنا جميعاً، أي لمئة باحث وباحثة، المِنح من ماله الخاص.

تحدث إلينا السيد هيرايااما شارحاً دواعي كرمه ذاك: كان فتى يافعاً حين قصفت الولايات المتحدة الأميركية مدينته هيروشيما بالقنبلة الذرية...

كان من القلائل الذين نجوا من هذه المجزرة الهمجية، لكنه أصيب بأنواع شتى من مرض سرطان الجِلد .

مَنّ عليه القَدَر بالشفاء... كما يقول المَثَل العربي: "مَنْ له عُمر، لا تهينه شدّة" .

درس الفنون الجميلة وأصبح رساماً مشهوراً وغنيّاً، لكنّ حادثة هيروشيما ظلّت تقضّ مضجعه وتجعله يتساءل عن السبب الذي دعا الولايات المتحدة الأميركية إلى أن تتجرّأ وترمي هذه القنبلة المدمِّرة مرتين!

في مدينة تشي آن الصينية مع الفنان الكريم الياباني هيراياما ٢٠٠٢

إنه، برأيه، نقص الحوار بين الشعوب والثقافات... طيب، ما الذي يحضّ الناس من مختلف الثقافات على العودة إلى الحوار الذي تميّز به الإنسان العاقل على مرّ العصور؟! فكّر مليّاً بهذا السؤال، فلم يجد أفضل من إعادة إحياء طريق الحرير، وهي طريق الحوار بين الثقافات المختلفة الممتدة بين مشارق آسيا ومغاربها، وصولاً إلى أوروبا . وهكذا كان... سخّر أمواله، وهنا أنا أتكلّم عن مئات الآلاف من الدولارات، للباحثين الشباب من

مختلف أنحاء المعمورة، كي يستطيعوا إعادة إحياء "الحوار" بين الشعوب والثقافات. على النقيض، تماماً، مما يسعى إليه الغرب "المتطور" بقيادة الولايات المتحدة، التي أسمّيها ***الويلات المتحدة***، وأوروبا الغربية، برفع شعارها الخطير: "مَنْ ليس معي فهو ضدي"!

أُعجِبْتُ أيّما إعجاب بهذا الإنسان الفنان الذي وهبنا، إضافة إلى المنحة، فرِصة لنراه ونستمع إلى تجربته الجبّارة.

زرتُ أيضاً في الصين (لا تيرّا كوتّا La Terra Cotta) وهي المنطقة القريبة من مدينة تشي آن والتي اكتُشفَتْ فيها تماثيل رائعة وضخمة من الفخار، لجنود صينيين مع أحصنتهم، ما قبل الميلاد. اكتشف هذه المدينة تحت الأرض فلاح صيني كان يضرب أرضه بفأسه، فأحس بشيء تحت الفأس... أبلغ السلطات، فتم الحفر واكتشاف مدينة أثرية ضخمة عمرها أكثر من ألف سنة. تعرّفتُ إلى هذا الفلاح الذي كان يحكي تجربته لزوار المدينة بكل فخر.

أُتيحَتْ لي فرصة زيارة الجوامع الإسلامية في تشي آن، ومسلمو المنطقة منفتحون... حين طلبتُ من المسؤول عن الجامع الكبير غطاء لرأسي، أجابني بتساؤل: "ألستِ مسلمة؟"، فقلتُ: "بلى"؛ فقال بشكل بدهي: "إذن ادخلي، ولا حاجة بك إلى غطاء رأس". لكني مع ذلك وضعتُ على رأسي قبعة معطفي ثم دخلتُ إلى الجامع...

بعد ذلك، قمتُ بزيارة العاصمة بكين ومعالمها الشهيرة: سور الصين العظيم، المدينة المحرّمة لأباطرة الصين، المعبد السماوي، ساحة تيانانمن وغيرها من معالم بكين...

يا لها من حضارة راقية ومختلفة عما عهدناه في حياتنا... إنها بلد جميلة ورائعة وأناسها طيبون...

في جامع تشي آن ٢٠٠٢

لا تيرّا كوتّا *La Terra Cotta* ٢٠٠٢

كنتُ أعاني من مشكلة واحدة وهي أني حين أدخل إلى مطعم وأطلب الطعام، فيتأخّر، أنسى من أي نادل طلبتُه، فالتشابه بين الأشخاص كبير... كانت تلك مواقف مضحكة، أضطرّ فيها لانتظار الفَرَج طويلاً لأني أحتار في أمري، فلمَنْ أتوجّه باللوم على هذا التأخير؟! كلهم متشابهون... غير أني رويداً رويداً بدأتُ ألحظ الفوارق في الشكل، وبدأ الانطباع الأول يتغيّر.

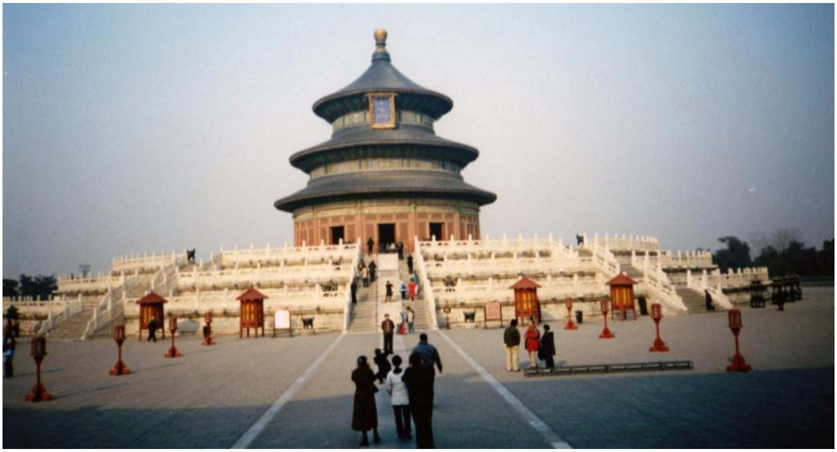

المعبد السماوي في بكين ٢٠٠٢

المدينة المحرّمة في بكين ٢٠٠٢

لم تؤاتِني المدة الزمنية القصيرة للتعرّف أكثر إلى حضارة ذات عراقة، يقف أمامها الإنسان مشدوهاً، إلا أني شعرتُ بفارق كبير جداً بين حضارة الصين العظيمة وثقافة أوروبا التي تدّعي المدنيّة لكنها منغمسة بشكل عام، مع اختلافات طفيفة بين الناس، في فرديتها وعنصريتها ولا إنسانيتها!

على سور الصين العظيم ٢٠٠٢

لقد كانت رحلة من العمر وللعمر...

في السَفَر، كما يقال، فوائد جمّة... فهو يفتح آفاقاً جديدة للإنسان ويوسّع مداركه مكَلِّلاً إياها بالمعرفة والثقافة... وهذا نبع لا ينضب... كما أن السَفَر يعلّم الاعتماد على الذات دون انتظار العون من أحد، ويلقِّن الصبر ويجعل المرء منفتحاً فكرياً وروحياً لتقبّل الآخر، المختلِف بالضرورة...

حلمتُ بزيارة الأندلس العريقة وخاصة قصر الحمراء في غرناطة وبيوت إشبيلية التي وصفها الدكتور العجيلي في مجموعته القصصية "قناديل إشبيلية" والتي تنقلك إلى العالم الجميل لبيوت دمشق العربية القديمة، فترى الورود طاغية على الجدران البيضاء ومن خلالها تفهم عمق

رقص الفلامنكو وتأوهات المغنين الذين يصدحون بهذا النوع من الغناء! الفاتيكان وإيطاليا، المتحف المفتوح في الهواء الطلق؛ واستانبول المحتارة بين الشرق والغرب، ما أعطاها رونقها المميّز؛ والصين العظيمة بناسها وحضارتها... حين زرتُ هذه البلاد شعرتُ بحلمي وقد تحقق! أما الهند وفلسطين فأتمنى زيارتهما في يوم، لعلّه قريب.

الفاتيكان

حلمتُ أيضاً أن أزور مصر، فمنحتّني صديقتي لينا هذه الفرصة حين استضافتني في بيتها مع أهلها في القاهرة؛ وزرتُ أيضاً الأقصر وأسوان... إلا أن حلم مصر ما زال إلى اليوم يراودني، فلهذه البلد سحر خاص لا يضاهيه سحر بلد آخر، وخاصة أسوان على ضفاف النيل الصافي الزرقة، بمراكب شراعية بيضاء تضيف لوناً حيادياً إلى اللوحة الزرقاء، والخضراء بخضرة الأراضي المحاذية لنهر النيل العظيم!

الألوان الجميلة في أسوان **1991**

جنائن العريف في قصر الحمراء في الأندلس ١٩٨٧

هنا وقفتُ حيث وقف أبو عبدالله الصغير متحسّراً على فراق الأندلس ١٩٨٧

الفاتيكان ٢٠٠٣

صورةٌ بناءً على طلب الحارس التركي في قلعة روميلي حصاري في اسطنبول ١٩٩٢

في لواء اسكندرون، وبالأخص في أنطاكيا، اعتملتْ مشاعر متناقضة في نفسي ووجداني: هذه بلادنا، لكنها الآن ليست لنا ... الناس، في معظمهم، منّا وفينا، إلا أن الغرباء موجودون أيضاً. استقبلني الناس بترحاب كبير، أرادوا مني أن أعلّمهم اللغة العربية على أصولها، غير أنهم لا يجرؤون، وهم على رأس عملهم في الدوائر الحكومية، على التحدث بها...

أنطاكيا مدينة جميلة ونظيفة، غير أن المسؤولين الأتراك الذين استولوا عليها غصباً يهملونها، بحجة أن الأوضاع قد تتغير فتعود المدينة إلى أصحابها؛ لذا، يضطرّ الناس إلى تنفيذ مشاريع البلدية على حسابهم الشخصي، رغم أنهم يدفعون الضرائب كاملة، لكنهم لا يحصلون على الخدمات اللازمة لحياتهم... وهذا دليل واضح على اضطهاد الأتراك للعرب هناك.

حديقة أنطاكيا جميلة. كذلك هو متحفها الذي يحوي على أجمل وأكمل اللوحات الفسيفسائية من القرون الميلادية المبكّرة، وهو بذلك يضاهي ويكمّل، في الوقت عينه، متحفَيْ شهبا ومعرّة النعمان الرائعين!

نهر العاصي ما زال شاهداً على لقاء الأحبة: كليوباترا وأنطونيو، وما زال المكان عبِقاً بالحب الصادق... أنطاكيا مهد المسيحية، وأول كنيسة بناها القديس بطرس، "الصخرة"، وهي تحوي الكرسي الأنطاكي، لتنطلق المسيحية إلى العالم كله من سورية، من أنطاكيا...

بعد أن عدتُ من زيارتي إلى أنطاكيا، سألتني صديقتي رنا: (أحقاً زرت أنطاكيا "وسائر المشرق"؟)... فأجبتُها: (نعم... و"سائر المشرق" كانَ هناك)!... فبطريرك أنطاكيا وسائر المشرق، كما سبق وذكرت، أغناطيوس الرابع هزيم كان هناك في الوقت نفسه، وقد عرّفتُه بنفسي، فهو يعرف عائلتي جيداً، وكان مرحِّباً جداً بوجودي...

أما رحلتي إلى بلغاريا في أيار / مايو من العام ٢٠٠٥، فكانت دعوة للمشاركة ببحث في مؤتمر حول اللغة العربية في كليّة اللغات، قسم اللغة

الزيارة التاريخية للبطريرك هزيم إلى انطاكيا صيف ١٩٩٢

البرلمان البريطاني ٢٠٠٤

العربية في جامعة صوفيا، وهي جامعة عريقة لا شك، في بلد ذي تاريخ رائع، إلا أنها الآن أصبحت في ركب الاتحاد الأوروبي الذي سيطر عليها وأدخلها في دوّامته السياسية الضحلة. وجدتُ تشابهاً كبيراً بينها وبين يوغوسلافيا التي زرتُها في العام ١٩٨٤: في العمارة والثقافة والفولكلور إضافة إلى تقارب اللغتين الصربية الكرواتية والبلغارية، فهما من أصل سلافي.

في زيارتي السريعة للندن وجامعة أوكسفورد في العام ٢٠٠٤، شعرتُ بأن العاصمة الإنكليزية تستطيع منافسة عاصمة النور باريس في الجمال. من أكثر المباني التي جذبتني هي مبنى البرلمان، إضافة إلى إعجابي بساحة الطرف الأغرّ وأيضاً ساحة البيكاديلّي، والمتحف البريطاني، الذي يعود الفضل في شهرته إلى المقتنيات "المسروقة" من بلاد الرافدين ومن سورية! كما زرتُ كاتدرائية ويست مينيستر وقصر باكنغهام من الخارج؛ إضافة إلى متحف الفن الحديث، قاطعة مع غنوة جسر الألفية الثالثة (الميلّينيوم).

حين ركبتُ الطائرة في طريق العودة، كان الطقس في لندن غائماً، لكن بعد أن حلّقت الطائرة عالياً سطعت الشمس وأضحت الغيوم تحت الطائرة هي التي تغطي المدينة... تذكرتُ أن بلادي ينقصها المطر، فيصلّي الناس صلاة الاستسقاء... هنا في لندن، قد يكون على الناس أن يصلّوا صلاة

"الاستشماس" حتى تعود الشمس لتغمر البلاد التي كانت لا تغيب عنها الشمس، فتعيد الدفء إلى قلوبهم كي يعيشوا بها من جديد!

صحيح أن الغرب، وخاصة فرنسا، يفتخر دوماً بكونه ديكارتياً، يستخدم عقله ويمعن تفكيره، ولكن، ألم يكن من الأفضل لهم وللآخرين لو أن ديكارت[١٨] قال: "أنا أحب، إذن أنا موجود"؟!

خلال زياراتي تلك، حاولتُ، قدر استطاعتي وتحمّلي، التعرّف إلى مأكولات تلك البلاد أيضاً إلى جانب زيارة أماكنها التاريخية الشهيرة، فمذاق المأكل والمشرب يعرّفك إلى الإنسان الذي صنعها وإلى ذوقه ورهافة حسّه.

جسر الألفية الثالثة في لندن ٢٠٠٤

ومن أروع التجارب التي خضتُها هي تذوّق أنواع الخبز في تلك البلاد: فالخبز الفرنسي بأنواعه العديدة مميّز في كل شيء وخاصة الخبز الريفي

---

[١٨] مقولة الفيلسوف الفرنسي ديكارت هي: " أنا أفكّر، إذن أنا موجود".

وكذلك الخبز المدعو Flute أو خبز الناي، فهو له "نغم" مختلف عن الأنواع الأخرى! تذوّقتُ كذلك خبز الذرة اللذيذ في يوغوسلافيا مع "الكَيِّمَك"، وهو نوع من القشدة، ولا ألذّ! أما خبز الرز في الصين، فهو أبيض، لطيف وخفيف ومرهف مثل صانعي حضارة ذلك البلد العظيم! وخبز أنطاكية الذي نجده أيضاً في دمشق، في مخبز سوق ساروجة التقليدي، تذوّقتُه هناك في منطقة الحربيات وقد باركه البطريرك هزيم، بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق للروم الأرثوذكس: لأول مرة في حياتي أرى قطعة واحدة من الخبز طولها أكثر من متر ونصف، أكل منها أكثر من مئة شخص!

الخبز نتاج رائع للمرأة السورية الأولى في بلادنا التي سعت إلى الاستقرار وبناء البيت الدافئ بممارسة زراعة القمح ثم طحنه وعجنه وخَبزه، كي تعطينا إياه "كفاف يومنا"... فطوبى لها!

أما زيارتي إلى الأردن برفقة أخي وأولاد عمومتنا، فقد كانت في أيلول/ سبتمبر من العام ١٩٨٢ بعد مرور ستة أشهر على رحيل جدي سلطان عن عالمنا. كان هدفنا الأساسي هو زيارة الكرك والبيت الذي أقام فيه جدي هناك بين العامين ١٩٣٢ و١٩٣٧.

سافرنا إلى عمّان حيث تسكن عمتي وعائلتها، فزرنا العاصمة عمّان بمدرّجها الروماني الصغير وسوقها الطويلة؛ وجرش بمدرّجها الشهير ومسرحها الروماني أيضاً؛ وعجلون بخضرتها؛ ومأدبا بفسيفسائها الرائعة؛ والبتراء، مدينة الصخر، وصخر المدينة، ووادي موسى والعقبة حيث البحر الأحمر النظيف بمرجانه الجميل...

ثم زرنا الكرك باحثين عن بيت جدنا... هناك وجدناه كما كان... صوّرتُه وقرأنا الفاتحة على قبر جدتنا شعاع، عمة جدي سلطان وأم زوجته، جدتي.

بيت سلطان باشا الأطرش في الكرك ١٩٨٢

قبر الجدّة شعاع في الكرك ١٩٨٢

التقينا بسيدة من آل الصنّاع كانت تعرف أبي وعمتي حين كانا صغيرين، فسألتْ عنهما وعن أولادهما، فعرّفناها بأنفسنا ...

حين زرنا البيت، شعرتُ بأحاسيس متناقضة: فرحة واعتزاز وفخر، وحزن على ما عاناه جدي مع عائلته في صحراء وادي السرحان أولاً ثم هنا في الكرك، إذ إنه كان ممنوعاً من مغادرتها ...

تاريخ من النضال والمقاومة، ورفض للرضوخ للمستعمر... كل ذلك كان ماثلاً لحظتها أمام ناظرَيّ! وما زال هذا التاريخ يشدّني إلَيه ويصاحب كلّ خطواتي وخياراتي في الحياة...

١٣ - سورية قلب العالم
دمشق قلب سورية

اليوم هو السابع عشر من نيسان / أبريل ٢٠١٣ ... إنه عيد الجلاء، العيد الوحيد، الذي أشعر فيه بأنني أنتمي إليه وينتمي إليّ!

عيد الجلاء هذا العام مرّ مختلفاً جداً، فالسوريون منقسمون أفقياً.

ثمة مَن رفع عَلَماً يظنّ أنه عَلَم الاستقلال وهو ذو نجمات حمراء ثلاث؛ إلا أن هذا العَلَم هو تجسيد للمادة الرابعة من الباب الأول في دستور "دولة سورية" الذي أصدره المفوّض السامي الفرنسي لسورية ولبنان، مسيو هنري بونسو، بقرار يحمل الرقم ٣١١١ في ١٤ أيار / مايو من العام ١٩٣٠. وقد تمّ نشر هذا الدستور في الجريدة الرسمية، العدد ١٢ ملحق، تاريخ ٣٠ شباط / فبراير ١٩٣٢ في الصفحة الأولى، ورُفِع للمرة الأولى في سماء سورية في ١٢ حزيران / يونيو ١٩٣٢.

إذن، هذا العَلَم (الأخضر في الأعلى والأبيض مع نجماته الحمراء الثلاث في الوسط والأسود في الأسفل) هو، تاريخياً، عَلَم فرضه الانتداب الفرنسي، أما نجماته الثلاث الحمراء فتمثيل لثلاث دويلات ترسخ الواقع التقسيمي في سورية؛ غير أنه فشل في ذلك لأن أجدادنا رفضوا هذا التقسيم للدويلات الثلاث السنيّة في الداخل والعلويّة على الساحل والدرزيّة في الجنوب؛ أما المسيحيون، فإما أن يبقوا حيث هم في مرحلة أولية، أو يتم تهجيرهم إلى بيروت، خطوة أولى من أجل تهجيرهم من المشرق! وقد سمع

السوريون مثل هذه الدعوات في بعض التظاهرات الطائفية التي تم تنظيمها في العام ٢٠١١ !

تاريخياً، أخذ مسيو بونسو يناور سياسياً في مفاوضاته مع الكتلة الوطنية ليقنعها بأنه سيحقق الاستقلال للدولة السورية. إلّا أن المفاوضات، في حزيران / يونيو من العام ١٩٣٢، فشلت بين رئيس الوزراء السيد حقي العظم، بعد انتخاب السيد محمد علي العابد أول رئيس للجمهورية السورية، وبين مسيو بونسو لإنهاء فترة الانتداب وعقد معاهدة بين سورية وفرنسا.

نتيجة هذا الفشل، تمّ استبدال مسيو هنري بونسو بالكونت دي مارتيل في منتصف شهر تشرين الأول / أكتوبر من العام ١٩٣٣. فقدّم مشروع معاهدة تحالف وصداقة إلى الحكومة السورية، وطلب منها إحالته إلى المجلس النيابي لإقراره. غير أن أكثرية النوّاب لم توافق عليه في الجلسة المنعقدة في ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر من العام ١٩٣٣. فما كان من المفوض السامي إلا أن أصدر قراراً بتعطيل أعمال المجلس. يا لها من ديمقراطية فرنسية واضحة! ثم تمّت إقالة الحكومة وكُلِّف الشيخ تاج الدين الحسني، وما أدراك مَن هو هذا الشيخ، بتشكيل وزارة جديدة لإرضاء دي مارتيل!

هذا العَلَم ذو النجمات الحمراء الثلاث، لم يرغب الرئيس الراحل شكري بك القوتلي، أول رئيس للجمهورية السورية بعد الاستقلال، بتغييره، وقد يكون ذلك الموقف تنفيذاً لاتفاق مبطّن مع الفرنسيين! غير أن الكثيرين من الوطنيين السوريين طالبوه بتغييره، ومن بينهم صديق أبي الأستاذ ممدوح رحمون، فأكّد له الرئيس القوتلي أنه سوف يغيّر العَلَم في حال تحققت الوحدة العربية. وهكذا كان...

في ٢٢ شباط / فبراير من العام ١٩٥٨ تحققت الوحدة بين سورية ومصر، فأصبح عَلَم الجمهورية العربية المتحدة هو العَلَم الحالي لسورية: اللون الأحمر من الأعلى والأبيض مع نجمتين بلون أخضر، تمثّلان البلدين سورية ومصر، في الوسط، والأسود في الأسفل.

حين انتهت فترة الوحدة بالانفصال في ٢٨ أيلول / سبتمبر ١٩٦١ أُعيد عَلَم مسيو بونسو ليمثّل سورية!

إذن، هذا العَلَم يحمل ذاكرتين سيئتين: الانتداب والانفصال.

والآن، ترفعه المعارضة السورية المنادية بالتدخل العسكري الغربي ضد سورية! أليس هذا سبباً أدعى كي لا نقبل به؟!

إن المعارضة الوطنية هي ركن أساسي في المؤسسة السياسية، فهي الرقيب والعين الساهرة على الشأن العام.

أما الدعوة إلى الحرية والديمقراطية فهي حق لكلّ مواطن متمتّع بحق المواطنة وبحقه في اختيار سلطته عبر صناديق الاقتراع، ولكن هذا لا يوجب الصدام الدامي بل يحتّم علينا أن يكون سلاح الصراع، إن وَجَب، هو الكلمة لا غيرها. كلّ ذلك في سبيل بناء الحياة السياسية القائمة على التعدّدية الحزبية وحرية العمل السياسي من أجل تفعيل قدرة سورية على الصمود والبناء ومواجهة الأخطار والتمسّك باستقلالية القرار لتعزيز الوحدة الوطنية والوصول إلى تحرير الأراضي العربية المغتصبة.

تعلّمتُ في بيتنا أن الحوار هو وسيلة أساسية من وسائل الديمقراطية، وأن على المعارضة أن تكون وليدة حوار وخيار: حوار بين أطراف الجماعات وخيار ضمن هذه الجماعات. الحوار الدياليكتيكي هو السبيل الوحيد لنفي الإرهاب الفكري والجسدي على حدّ سواء. فالحوار الحرّ هو وسيلة الخيار الديمقراطي وهو وسيلة فعّالة لتقريب وجهات النظر بين الفرقاء العاملين

في الشأن العام؛ أما الالتزام بقواعده ونتائجه فهو دليل رسوخ الديمقراطية في الحياة العامة.

لذلك، كنتُ مع الحوار منذ بداية الأزمة في سورية، فلخّصتُ الأفكار التي كان يؤمن بها أبي ليقدمها أخي ثائر ضمن اللقاء التشاوري الذي تمّ عقده في العشر الأول من شهر تموز / يوليو من العام ٢٠١١ .

كلّ ما استطعتُ فعله خلال هذه الأزمة التي تحوّلتْ إلى حرب كونية على أرض سورية من أجل الاستيلاء على ثرواتها المكتَشَفة حديثاً على الساحل السوري من نفط وغاز، هو أنني أرسلتُ، عبر شبكة الإنترنت، أكثر من أربعة آلاف مقالة إلى كل أصدقائي ومعارفي في داخل سورية وخارجها، وما زلتُ أرسل ما تيسّرتْ لي قراءته من مقالات، بهدف جعل الناس تقرأ وتحلّل ما يحدث بعقلانية! ولكنّ... هيهات... قوبلتُ في كثير من الحالات بصدّ رهيب عن إعمال العقل والتفكّر وقبول الرأي الآخر، من السوريين، داخل سورية وخارجها! فمنهم مَنْ ناصبَني العداء والقطيعة، ومنهم مَنْ أغلق سمّاعة الهاتف في وجهي، رغم صداقة بيننا دامتْ على مدى عقود! غير أني سامحتُهم من كل قلبي على فعلتهم هذه! أليس المسامح مُحبّاً وكريماً؟! ومن فوائد هذه الأزمة عليّ، هيَ أني اكتشفتُ في نفسي خصالاً لم أكن أعيها تماماً: حبّ الناس جميعاً، المجرّد عن أي غرض، والتسامح والصبر والحلم و"طول النَفَس"، وخاصة في الحوار مع مَنْ أختلف معه في الرأي... إيه، ربّ ضارّة نافعة!

لقد آليتُ على نفسي أن أتقاسَمَ الأفكار البنّاءة مع الآخرين، فشاركتُ في عدة ندوات ضمن منتديات في دمشق والسويداء من أجل عرض أفكار تحثّ على الحوار والديمقراطية والعَلمانية التي تدعو إلى المواطَنة المتساوية في الحقوق والواجبات؛ كما أني دعوتُ إلى التسامح وإعمال العقل من أجل

أن نصل إلى حلّ مشاكلنا الداخلية بالتسامح المحمود في كافة الأديان والمنظومات الأخلاقية: "أفلا تعقلون"!

لكني أحياناً كنتُ أردّد بشيء من اليأس مقولة البدوي الشهيرة: "إنْ جَنّ رَبْعَك، عقلك ما ينفعك"![19]

وحين طُلبَ مني الحديث في الإعلام، قلتُ بأني سوف أصمتُ، كما صمتتْ السيدَة فيروز خلال خمسة عشر عاماً من الحرب في لبنان... وحين تتوقف قعقعة السلاح ويبدأ "الجنون" بالهدوء ويجنح الناس نحو العقل، حينها سوف أتكلّم، إنْ طُلبَ ذلك مني مرة أخرى! وذلك عملاً بقول جدتي سميّة، رحمها الله: "الكلمةَ التي لا تُسمَع، يا ذلّ قائلها"!

تعلّمتُ من دراسة التاريخ أنني يجب أن أكون ضد المواقف السياسية التي يتخذها الغرب في منطقتنا، فهو الذي فرض علينا اتفاقية سايكس - بيكو ووعد بلفور ولن يتخلّى عن السعي لتقسيمنا إلى دويلات متناحرة، لنعود للعيش إلى ما قبل الدولة، أي إلى الانتماء الديني والطائفي والمذهبي والعشائري كي يرتاح الكيان الصهيوني في ذلك المحيط الملائم لكيانه الديني العنصري...

أما نحن، فعلينا مواجهة تلك الخطط التقسيمية الجهنمية بإعادة رفع شعار الثورة السورية الكبرى "الدين لله والوطن للجميع"، وهو الشعار الذي آمَن به أجدادنا وعملوا من خلاله على إسقاط التقسيم الطائفي الذي أعدّتْه لسورية كلٌّ من فرنسا وبريطانيا في العام ١٩١٦ وصولاً إلى العام ١٩٢٠! وما زالتْ هاتان الدولتان على ديدنهما هذا.

---

[19] طبعاً، أنا لا أقصد هنا ما تريده المقولة وهو التحريض على عدم استعمال العقل في هذه الأحوال، إنما أردتُ توصيف الحالة فقط!

سورية، وطني، ليست مرتبطة بشبكة المصالح الغربية، وهذا ما أدّى بها إلى أن تتحمّل هذا الصراع الدولي المفروض عليها منذ زمن طويل، إلا أنه الآن أصبح واضحاً على أرضها بهدف سيطرة الغرب على المنطقة وثرواتها وبهدف إلغاء دور سورية التاريخي في دعم المقاومة من أجل التحرير الأكبر، والعالم كلّه يشارك في هذا الصراع المؤجَّل منذ مئة عام. وها هو العدو الصهيوني اليوم يحاول تصفية القضية الفلسطينية للوصول إلى اعتراف عالمي وعربي بيهودية كيانه، مستغلّاً ما يحدث في سورية من اقتتال وتدمير!

رفضت سورية مطالب الغرب بالتخلّي عن المقاومة وإبرام اتفاقية مع الكيان الصهيوني؛ لذلك فإن الغرب لن يقبل لدولة ترفض شروطه تلك أن تصبح غنيّة بالغاز والنفط المتوَقَّع استخراجه من المياه الإقليمية السورية.

إنّ الغرب، وخاصة "الويلات" المتحدة الأميركية لن تناصر مطلقاً الضعفاء على الأرض، أصحاب الحق، ولن تقف في وجه الكيان الصهيوني الذي ارتكب المجازر، وما يزال، ضد الشعب الفلسطيني... وكيف لها أن تقف مع الحق وقد قام بتأسيسها الآلاف من قاطعي الطرق والمجرمين الآتين من أوروبا الذين استوطنوا أميركا بالقوة وارتكبوا مجازر رهيبة ضد سكان أميركا الأصليين... إنه منهج غربي بامتياز... ألم يذهب الملايين ضحية للسياسة الأميركية ـ الصهيونية في بلاد الرافدين؟ وفيتنام؟ ألا نذكر ذلك؟!

فلماذا نفاجأ في كل هجمة شرسة توظّف فيها أميركا أبشع الأساليب في صراعات مختلفة، وبأهداف تدعي الإنسانية ظاهرياً، بهدف تدمير بلادنا؟!

تسعى الولاياتُ المتحدة الأميركية اليوم إلى تمكين مشروعِ الشرقِ الأوسطِ الكبير أو الجديدِ الذي يهدِفُ إلى تقسيم المنطقةِ العربيةِ على

أساسٍ طائفي ومذهبي، وتهجير بعض انتماءاتها؛ وقد بدأتْ بذلك في العراق بتهجير المسيحيين منه تحت سمع وبصر الاحتلال الأميركي البغيض: كل ذلك من أجلِ جعل وضعِ الكيانِ الصهيوني طبيعياً، وهو الكيانُ القائمُ على أساس ديني؛ وبالتالي إلغاء الطابَعِ العربي عن المنطقة، فيصبح وجودُ هذا الكيان طبيعياً.

وأنا هنا أقول إنه ما من سبيل لبقاء الناس في أرضهم إلا الشعور بأن الوطن لجميع أبنائه، وبأن فرص الحياة الحرّة الكريمة مفتوحة أمامهم على مصراعيها، وهذا لا يتم إلا بالحرية والتنمية، كما على الدول إنتاج كتب تاريخ ومناهج تربوية تظهر ما يجمع بين تنويعاتها ودياناتها ليترعرع عليها الجيل الجديد.

أما نحن، كما قلتُ لأصدقائي منذ آذار / مارس ٢٠١١ ، فعلى كلٍّ منا اختيار أحد المعسكرَيْن المشترِكَيْن في هذا الصراع الذي يدور اليوم على أرض سورية: إما أن نكون مع المعسكر الصهيوني الأميركي أو أن نكون ضده... ونحن أحرار في هذا الخيار، لكنْ علينا تحمّل تبعاته. أنا شخصياً حسمتُ خياري مذ وعيتُ على الدنيا: أنا ضد المعسكر الصهيوني الأميركي... نقطة من أول السطر...

وما زلتُ أردّد قصيدةً بعينها للشاعر العظيم محمود درويش، الذي خسرنا برحيله أجمل صوت شاعر وأجمل إلقاء شعر في هذا العصر... لقد حرصتُ، في كلّ مرة قدّم فيها أمسيات شعرية في دمشق التي عشقها، على الحضور والاستماع إليه والتمتّع بقصائده وصوره الرائعة الحضارية، فأقول: "أيها المارّون بين الكلمات العابرة.... آنَ أن تنصرفوا..."

لا بدّ أن تشكّل نتائج هذا الصراع اليوم، في سورية ومع سورية وعلى سورية، سبيلاً لنقلنا إلى عالم متعدد الأقطاب، تلعب فيه دول البريكس دوراً

هاماً على الصعيدين السياسي والاقتصادي. فروسيا والصين، بشكل خاص، تشكّلان خطَيّ الدفاع عن سورية في هذا الصراع الذي تحكمه مصالح استراتيجية هائلة! ولا بدّ أيضاً من استمرار المقاومة لإيجاد حلّ عادل للقضية العربية الأولى، قضية فلسطين، من أجل أن تتمتع منطقتنا بسلام دائم وعادل، شاء مَنْ شاء وأبى مَنْ أبى!

من أجل فلسطين الانتفاضة وأطفالها، قررتُ أنا ومجموعة من الشباب والشابات إقامة فعاليات جماهيرية لنصرة فلسطين معنوياً ومادياً. كان ذلك إثر عملية اغتيال الطفل محمد الدرّة أمام عدسات الكاميرات: لقد شاهدها العالم بأسره، إلا أنه لم يحرك ساكناً ضد الكيان الصهيوني، بل تبجّح كالمعتاد قائلاً على لسان "الويلات" المتحدة: "لإسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها"!

كانت الفكرة قد تولّدت عند بعض الشباب السوريين المتحمّسين... شاركتُهم في هذا العمل مع أصدقاء كثر من الكبار والصغار والجيل الشاب.

تتلخّص هذه الفكرة بتنظيم مسير جماهيري "صامت"... وقد أكّدتُ أنا بالذات على صفة "صامت" إضافة إلى رفع شعارات واضحة ضد المشروع الصهيوني ومع المقاومة حتى النخاع!

اتفقنا على أن يرتدي المشاركون في المسير قميصاً قطنياً أبيض T-Shirt نطبع عليه رسماً معبّراً وعبارة مناسبة للحَدَث. تطوّعتْ إحدى الفنانات التشكيليات، صفاء، لتصميم الرسم. في صيف العام ٢٠٠١ اتفقنا على أن تعبّر يدا طفل يستنجد بالعالم كله عن فكرتنا، واخترنا عبارة "لأجل مَنْ تشرّدوا"، كما وزّعنا لوحة جدارية كرتونية، للإعلان عن نشاطاتنا تلك، في شوارع دمشق فيها أرجوحة محترقة ولعبة طفولية بسيطة مصنوعة من بقايا خيوط مهملة، ملقاة تحتها. وفي العام ٢٠٠٢ صمّمتْ صفاء وجه طفل

رضيع محاصَر بأسلاك شائكة، ووضعنا عبارة، اقترحتُها أنا ووافق عليها الجميع: "لأطفال فلسطين الحق في الحياة".

اقترح الأستاذ الفنان دريد لحام، الذي كان خير معين لنا، أن يكون المسير ضمن خط معبِّر عن محطات هامة في تاريخ سورية والمقاومة من أجل التحرّر؛ فاتفقنا على أن يكون الانطلاق من ساحة الشهداء (المرجة) إلى ساحة يوسف العظمة (المحافظة) إلى ساحة التجريدة المغربية (السبع بحرات) ثم إلى شارعَيْ بغداد والثورة والعودة إلى ساحة الشهداء.

ولقد ألقيتُ كلمة في المشاركين، وكان تعدادهم أكثر من ألف وخمسمئة مشارك ومشاركة من كافة الأعمار، عن معنى اختيارنا لخط المسير هذا: فالمقاومة مستمرة منذ ٦ أيار / مايو ١٩١٦، يوم الشهداء الذين نادوا بمقاومة الاستعمار التركي فتم تعليق مشانقهم في ساحة المرجة "فزيّنوها"؛ ثم ساحة وزير الحربية يوسف العظمة الذي وقف في ميسلون، في ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠ ضد الاستعمار الفرنسي، الذي لم يستطع دخول دمشق إلا على جسده المدمّى، الشهيد الطاهر؛ ثم ساحة التجريدة المغربية، تخليداً للفرقة العسكرية المغربية التي ساهمت في حرب تشرين التحريرية، في ٦ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣؛ ثم باتجاه شارع بغداد، المدينة المقاومة لتعنّت الغرب الغاشم في حصاره لها آنذاك؛ ثم في شارع الثورة المستمرة ضد الظلم والاستبداد والاستعمار بكافة أشكاله، والعودة أخيراً إلى نقطة انطلاقنا في ساحة الشهداء.

وفي صيف هذين العامين المذكورين آنفاً، نظّمنا بالتعاون مع الفنانة السورية السيدة ميادة بسيليس والملحّن سمير كويفاتي وفرقتهما، حفلَيْن غنائيين على مسرح معرض دمشق الدولي في الهواء الطلق، شدتْ فيهما الفنانة ميادة بعضاً من أغانيها الرومانسية والوطنية الرائعة.

كان ريع الحفلين ومبيع القمصان القطنية لصالح أطفال فلسطين قدمناها إلى لجنة دعم الانتفاضة ومقاومة المشروع الصهيوني. كنتُ، بإجماع الجميع، المسؤولة عن الحسابات في هذه الفعاليات، وقد تمّ جمع حوالى مليون ونصف من الليرات السورية.

المسير ٢٠٠١: لأجل من تشرّدوا

كنا جميعاً متحمسين لما جرى، وقد أظهر ذلك حماسة الشعب السوري وكرمه في التبرعات. كنا مجموعة غير منتمية لأي تنظيم سياسي، لكنّ انتماءنا الوحيد الذي جمعنا، كان لسورية الوطن والتاريخ: طلاب جامعة (أيمن وياسر ومايا) وأطباء (سنا ومجد) وعاملون في القطاعين العام والخاص (ندى وصفاء وببير ومريم وأحمد وإيهاب وحمدي وعبود وهالة وأنا) إضافة إلى الأستاذ دريد لحام وأسرته، وقد تحمس لفكرتنا ودعمها قولاً وعملاً.

المسير ٢٠٠٢ : لأطفال فلسطين الحق في الحياة

ميادة بسيليس على مسرح معرض دمشق الدولي ٢٠٠٢

اتفقنا بعد ذلك على تأسيس جمعية تُعنى بأطفال الشوارع في سورية واستعنّا بخبرة صديقتي نهاد من أجل التخطيط لهذا المشروع الإنساني، لكنه، للأسف، لم يكتمل! وقد نكون في أزمة سورية اليوم، وفي الصراع الذي يجري على أرضها، بحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى بسبب كثرة الأطفال الذين تشرّدوا وفقدوا معيلهم وأضحوا في الشوارع نهباً للمخاطر!

ذات يوم، قال مدير متحف اللوفر في باريس: "لكلّ إنسان على وجه الأرض وطنان: سورية ووطنه الذي وُلِد وعاش فيه".

هذا كلام صحيح مئة في المئة. سورية هي مهد الحضارة التي نشأ منها الفكر والأبجدية والفلسفة وبالتالي الأديان. فالحضارة في سورية كما في بلاد الرافدين قدّست الأم الكبرى "عشتار"، ١٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد: الأم الكبرى هي أصل الأشياء كلّها، ومنها نشأت في العالم السوري القديم معتقدات لتفسير القوة الكامنة في ما وراء الطبيعة. فهي تصف نفسها قائلة:

أنا الأول، وأنا الآخر
أنا البغي، وأنا القديسة
أنا الزوجة، وأنا العذراء
أنا الأم، وأنا الابنة
أنا العاقر، وكُثُرٌهم أبنائي
أنا في عرس كبير ولم أتخذ زوجاً
أنا القابلة ولم أنجب أحداً
وأنا سلوة أتعاب حَملي
أنا العروس وأنا العريس
وزوجي مَنْ أنجبني
أنا أم أبي، وأخت زوجي
وهو من نسلي"♣

♣ السواح، فراس، لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دمشق، دار المنارة، ١٩٩٠، ص٧.

من الخطأ تسمية ذلك بالوثنية، فثمة مفهوم توحيدي فيها، فالآلهة ليست آلهة متعددة كما أراد الباحثون الغربيون تفسيرها، إنما هي صفات الله الواحد. في الفكر السوري القديم، الله الواحد قريب من الناس ولكنه لا يتصل بحياتهم اليومية بل هي عشتار التي تشفع لهم.

لكلّ هذه الأسباب مجتمعة كانت سورية وما زالت تتعرّض لهجوم ضارٍ ولقَدَرٍ يقتطع منها أجزاء عزيزة عليها، وخاصة من المستعمِر الغربي ومَنْ يواكبه في المصالح، انتقاماً من هذه "الأم" التي أعطت العالم دون حساب... فقد أعطتْه المسيح من فلسطين، جنوب سورية، فزرع في ذاك الجنوب الكيان الصهيوني. كما أن أرض سورية كانت مهداً للمسيحية ولانتشارها في كلّ العالم: "طريق دمشق" هي طريق الهداية والإيمان الذي عَمَر قلب القديس بولس، بعد أن كان هو شاؤول الذي يضطهد المسيحيين.

قَدَر سورية أن تعطي ويؤخَذ منها، فهي روح المشرق كلّه وقلب العالم... إلا أن الإنسان الذي جُبِل على الشرّ، ما زال ينتقم من هذه الأم المعطاء...

حين أقول إن دمشق هي قلب سورية، أعني ذلك تماماً: فسورية الطبيعية قلبها وفي وسطها دمشق، وهي المدينة التي تفتح ذراعيها دوماً للقريب والغريب.

أذكر أني حين غبتُ عنها مدة ثلاثة أشهر وكنتُ يومها في منحة دراسية في بلغراد، شعرتُ بشوق جارف إليها، إلى شوارعها وحواريها وأبوابها وأحجارها وياسمينها. وحين عدتُ، نزلتُ من فوري وسرتُ فيها على غير هدى ثلاث ساعات متواصلة لأطفئ حنيني إلى تلك المدينة التي تحمل روحاً ونبضاً يختلف تماماً عن مدن كثيرة زرتُها ومشيتُ فيها.

أنا اليوم أشعر بالإحساس ذاته وأنا بعيدة عن دمشق... صحيح أنني على بُعد مئة كيلومتر فقط إلى جنوبها، في السويداء، إلا أنني اشتقتً إليها

شوقاً عظيماً... هي حبي، هي نبضي، هي طفولتي وشبابي وأهلي وأصدقائي... هي قلبي وهي في قلبي... فصبراً يا دمشق على محنتك...

لكني، مع كلّ هذا الاشتياق لدمشق، أشعر أني عشتُ تجربة حلوة في السويداء: فقد تعلّمتُ فيها الصبر، فكراً وممارسةً، وتعرّفتُ إلى أناس طيبين ومتعاطفين، وقمتُ بنشاطات ثقافية مفيدة، واكتشفتُ في داخلي شعوراً عميقاً وحقيقياً بالحب لكل الناس، كما اكتشفتُ أني مترعة بروحانيات لم أكن أعرفها في ذاتي... هي مما ورثتُه عن أبي وأمي، وهي مما تشرّبتُه في مدينتي الغالية، دمشق...

وحين عدتُ ليومين اثنين إلى مدينتي ورأيتُ أصدقائي من جديد، بعد عام كامل من الغياب، يبدو أنني نقلتُ إليهم حبي الغامر، فأحسوا بالسكينة التي في داخلي واستمدوا مني القوة، رغم إحساسي بالضعف حينها نتيجة طول الغياب والاشتياق لمدينتي، دمشق...لقد عبّرتِ لي صديقتي سلافة عن ذلك بوضوح قائلة بأنها خرجت من عندي إلى عملها وهي في غاية القوة والسكينة والحكمة التي استمدّتْها مني. تذكّرتُ ما كتبتْه لي في عيد ميلادي الواحد والثلاثين باسم كل الأصدقاء، إذ قالتِ لي يومها:

"يا ريمنا، أنرت في عتمة كنّا نظن أنها لا تُنار، وها نحن ننثني على السراج الذي أنار لنا زمناً، نداري شعلته بقلوبنا وأعيننا ونحيطه بودّنا ومحبتنا، نودّ أن يقوى ويقوى، حتى لكأنّ زجاجه نور، ونوره نور على نور، من الحق والحب الكلّي يستمدّ ضياءه الأسمى له ولكلّ مَنْ حوله...

إنك، أيتها الغالية، لفي أمّ أعيننا، فهل في هذا ما يؤنسك ويطيب قلبك الطيب؟ وإلا، يا خيبة مودّتنا!

لك في يوم عيدك من كل الذين تحبينهم ويحبونك ضمّة وقبلة وزهر...".

أشكر الله في كل يوم على نعمة الصداقة التي منحني إياها... وأعبّر دوماً لأصدقائي عن حبي الغامر لهم الذي يعمر قلبي وروحي...

أما عن مدينتي دمشق التي أعشقها، فيخطر في بالي، الآن هنا، أن أنقل ما ترجمتُه يوماً عن الفرنسية من كتاب الشاعر الفرنسي ألفونس دي لامارتين، "الرحلة إلى الشرق"، حين زار دمشق في القرن التاسع عشر.

قرأتُ في كتابه هذا وصفاً للبيوت الدمشقية، فتأثرتُ به، إذ استطاع من خلاله الدخول إلى عمق أعماق النفس الدمشقية. لقد استطاع أن يلتقط الحسّ الدمشقي الذي كان يرفض الإفصاح عن الغنى المادي ليبقيه خاصته من أجل ألا يجرح شعور الفقراء. وهذا طبعاً يمثّل جزءاً من روح التكافل الاجتماعي.

لهذا السبب بقي البيت الدمشقي متواضعاً من الخارج، وفي داخله فقط نجد اختلاف المستوى الاجتماعي والمادي. وقد كتب لامارتين عن هذا: "***إن البيوت الدمشقية مطلية بالطين واللبِن (...) وأبوابها متواضعة؛ أما حين دخلنا إلى بعض هذه البيوت (...)، دهشتُ من غنى غرفها وأناقتها من الداخل. فبعد أن تدخل من الباب وتجتاز دهليزاً معتماً تجد نفسك في باحة مزينة ببحرات رخامية يتدفق منها الماء (...)، تأتي السنونو والحمائم لتشرب منها بحرية، ثم تستريح على حافتها***".

في الحقيقة، ما زلنا نخال أنفسنا في الجنّة حين نرى جمال باحات تلك البيوت ونبل مفروشاتها... فالدمشقي لا يرغب بعرض غناه، وإنما يكتفي بالعيش فيه...

نعم إنها دمشق بمحبة وتسامح لا سابق لهما... وعلى دمشق ومَنْ يحبها قيادة حملة صادقة لغرس التسامح في قلوب السوريين بعد أن تسكت

قعقعة السلاح، ولا بدّ أن تسكت في يوم قريب، من أجل الحفاظ على وحدة البلاد وعيش أهلها المشترك والمتناغم...

هذا اليوم بدأتُ أراه أقرب من أي وقت مضى بعد أن أطلّ بصيص من الأمل الذي كدتُ أفقده... متى؟ ليلة الثالث من تموز / يوليو من هذا العام ٢٠١٣ حين "أسقط الشعب المصري النظام"! لقد بدأ مشروع الشرق الأوسط الجديد يتهاوى!

آه يا أمي لو رأيت تلك اللحظة، فأنا لا أنسى دموعك الغالية حزناً على مصر قبل سنة تماماً (٣٠ / ٦ / ٢٠١٢)!

آه يا أبي لو رأيتَ تلك اللحظة التي توقّعتَها منذ سنين خلتْ، حين أكّدتَ لي أن هذا المشروع الأميركي لن يمرّ ومصيره هو الفشل الذريع على يد مَنْ خطّطوا له ونفّذوه! ألم أقلْ يوماً إنك تستشرف المستقبل ببصيرتك الصافية؟!

آه لو علم أهل الكنانة أن أهل الشام بصمودهم وشهدائهم قد حموهم!

أمن مصر القومي من أمن الشام... هذا ما خطّه التاريخ منذ ما قبل الميلاد... وهذا ما سوف يبقى راسخاً إلى أبد الآبدين...

أما التسامح، فهو اقتداء بالسيد المسيح الذي قال: "اغفر لهم يا أبتي فإنهم لا يدرون ماذا يفعلون" بعد أن تحمّل عنّا جميعاً كلّ عذابات الدنيا؛ واقتداء بالرسول العربي الكريم محمد الذي قال لِمَن قتل له أحباءه ومثّل بأجسادهم الطاهرة بعد نصره في مكة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"!

وكما قالت العرب يوماً: "العفو عند المقدرة"...

١٤- منصور وهند :

حب في مشوار حياة

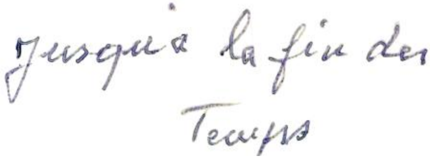

"Jusqu'à la fin des temps"

"إلى آخر الزمان" بخط يد أبي

جملة خطّها أبي على بطاقة زيّنتْ باقة من الورد الجوري الأحمر، رمز دمشق، قدّمها لأمي في عيد الحب في العام ٢٠٠٦ ، معناها: "إلى آخر الزمان"!

هي بطاقة احتفظت بها أمي بعد رحيل أبي... ثم احتفظتُ بها أنا بعد رحيل أمي...

أيُعقَل هذا؟ رجل بعمره (٨١ عاماً) وامرأة بعمرها (٨٤ عاماً)، في ذاك الحين من العام ٢٠٠٦ ، وما زالا يعانيان من لوعة الحب ويتعاهدان عليه "إلى آخر الزمان"!

هي بقيتْ على العهد بعد رحيله وبعد بلوغها سنّ التسعين من العمر، ولمّا تزلْ عيناها تتلألأ لمجرّد ذكر اسمه!

كانا دوماً يحبّان الاستماع إلى الأغاني العربية القديمة، وبالأخص أغنية محمد عبد الوهاب

(عندما يأتي المساء ونجوم الليل تُنظَر / اسألوا لي الليل عن نجمي متى نجمي يظهر)...

عرفتُ من أمي أن هذه الأغنية كانت تصاحب ذكرياتهما لدى ولادة حبهما الأبدي... وما زالت تلك الأغنية رمزاً لهذا الحب...

في الأشهر الستة الأخيرة من حياة أبي، وفي بداية مَرَضه الاستثنائي، كان يقول لي، مشيراً إلى أمي: "أحبها ... قلبي يخفق بشدة لمجرّد رؤيتها"! لم يكن يصرّح هكذا عن مكنونات نفسه، لكنه، على ما يبدو، استشعر الفراق الذي يقترب، ففضّل البوح دون تردّد.

كانا يجلسان معاً، يتغزّل واحدهما بتوأم روحه، فأنسحبُ من المكان، تاركةً لهما حيّز الحب والهيام!

مرّت ذكرى اليوبيل الذهبي لزواجهما وهو في المشفى... تركتُها في البيت منهارة تبكي بحرقة، وجئتُ إليه... ابتسم قائلاً: "اليوم هو عيد زواجنا الخمسون، أليس كذلك؟" فأجبتُه بالإيجاب... فطلب مني الاتصال بأمي قائلاً: "دعيني أسمع صوتها"!... كان له ما أراد... حدّثها ببطء شديد مؤكّداً لها حبّه، مع دمعتين على خدّه لم يستطع كبحهما!

في أواخر أيام مرضه في البيت، كانت تجلس إلى جانب سريره ممسكةً بيده حتى ينام... أليستْ تلك حكاية تُروى؟

عاد سلطان الأطرش إلى بلدته القريّا، من الجندية الإجباريّة في البلقان في ربيع العام ١٩١٢، بعد أن نفّذ الأتراك حكم الإعدام شنقاً بأبيه ذوقان، في المَرجة في دمشق، اليوم الخامس من آذار / مارس من العام ١٩١١ ؛ إذ

إنه قاد الانتفاضة ضد حملة التركي سامي باشا الفاروقي "لتأديب" جبل العرب العَصيّ دوماً على المستعمِر، والذي اعتاد امتشاق السلاح ضد الاستعمار فقط...

يُعْتَقَد أن الشهيد ذوقان بن مصطفى الأطرش قد ووريَ الثرى في بلدة جرمانا المتاخمة لدمشق. لا أحد إلى اليوم يعرف المكان الذي ضمّ جثمانه بالدقة، ثمة مَن يقول إنّ جثمانه ضمّه مكان، يدعى أرض المَحْفَرة، أصبح اليوم حديقة في بلدة جرمانا... فالأتراك منعوا دفنه... لكنّ رجلاً شهماً من بني معروف أخذ الجثمان خلسةً وكرّمه بدفنه، دون أن يبوح بسرّه ذاك، خوفاً من بطش المستعمِر التركي... على أيّ حال، جزاه الله خيراً، فإكرام الشهيد دفنه.

في رواية الأديبة السورية الدكتورة ناديا خوست (حب في بلاد الشام)، وهي من منشورات اتحاد الكتّاب العرب في دمشق، في أواخر التسعينيات من القرن العشرين، اعتبرت الكاتبة أن ذوقان الأطرش هو الشهيد الأول الذي تقدّم تاريخياً على شهداء ٦ أيار / مايو ١٩١٦ ، فأطلقت عليه لقب الشهيد العربي الأول!

لدى عودة سلطان تلك، وجد بيت العائلة مهدَّماً وكان عليه، وهو أكبر إخوته وأخواته، زراعة أرضه وبناء بيته من أجل لمّ شمل العائلة من جديد .

بهدف تأمين البذار للأرض، للأسف، لم يستطع أحد إقراضه، بسبب ضيق ذات اليد، ولأسباب أخرى عديدة... فنصحه أحد أصدقائه بطلب البذار من تاجر حبوب دمشقيّ من الميدان، يعمل في مجال تجارة الحبوب ويمتلك داراً في القريّا، ويدعى يوسف الشويري.

ذهب سلطان الأطرش إلى يوسف الشويري فطلب منه البذار على سبيل القرض، واعداً بالسداد "على الموسم". لم يتردّد يوسف الشويري

لحظة واحدة في إقراض هذا الشاب الذي توسّم فيه الخير والشهامة... وهكذا، زرع سلطان الأطرش أرضه وأعاد إلى يوسف الشويري قيمة القرض على الموسم كما وعده، فترسّخت "بذور" صداقة عميقة " زُرِعَتْ" في قلبيهما ووجدانيهما.

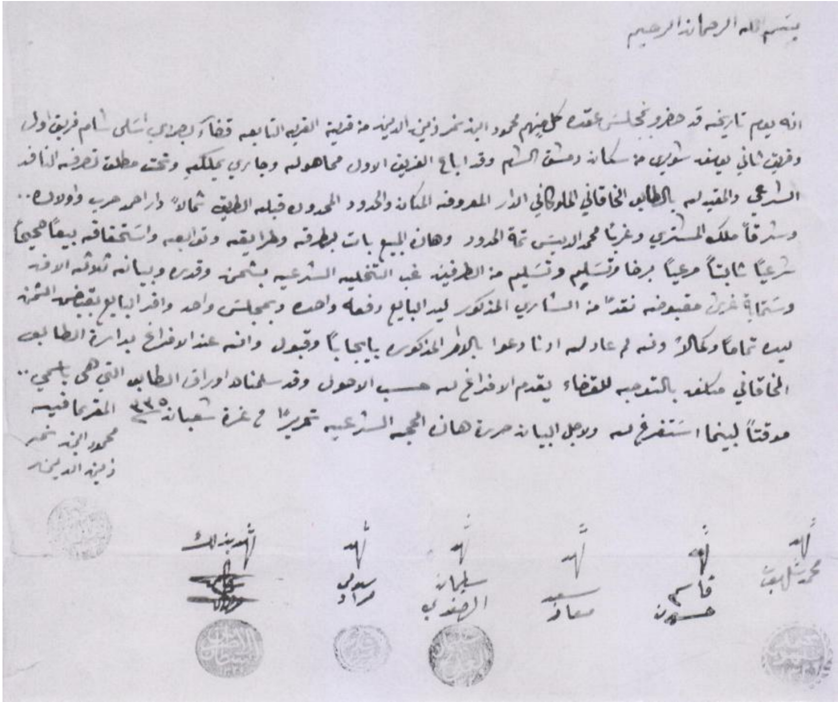
بسم الله الرحمن الرحيم

حجة دار يوسف الشويري في القريا

حاول الأتراك استرضاء سلطان الأطرش بمنحه لقب باشا، فرفضه ووضع وسام هذا اللقب التركي على رقبة كلبه السلوقي! فأنشد يوسف الشويري شعراً عاميّاً بهذه الحادثة المعروفة، إذ قال:

لفظة الباشا عفتَها عن وكاد ... واسمك فوق المراتب عالٍ تسامى

سلطان اسمك عَ الذهب والجَهادِ ... و منَّك توزيع الرّتب والوسَاما

ترسّخت الصداقة بين سلطان ويوسف، وأضحت عراها لا تنفصم وتمثّلت بالتقاء رؤيتهما الوطنية الواحدة... فبعد إعلان شريف مكة الثورة على الإمبراطورية العثمانية في العام ١٩١٦، رفع سلطان الأطرش العَلَم العربي فوق داره في القريّا، جاهراً بالثورة ضد الأتراك، جاعلاً من بلدته القريّا مقرّاً لها. بعد ذلك، باشر بتسيير حملة مؤلَّفة من مئات الهجّانة وعلى رأسها المجاهد يوسف الشويري، رسولاً منه إلى الشريف فيصل، حاملاً إليه رسالة مفادها أن جبل العرب، من أدناه إلى أقصاه، مستعدّ للسير في الثورة العربية الكبرى.

حين فتح ثوار الجبل دمشق، شارك يوسف الشويري في معارك تلول المانع بالقرب من منطقة الكسوة، إلى الجنوب من دمشق. دخلت طلائع ثوار جبل العرب على خيولها إلى دمشق بعد هزيمة الأتراك والألمان في تلك المعارك، وعلى رأسهم سلطان الأطرش ويوسف الشويري، من جهة الميدان في ٣٠ أيلول / سبتمبر من العام ١٩١٨ .

الشاعر والفارس يوسف الشويري
١٨٦٤ - ١٩٢٩

وصل الفرسان إلى ساحة المَرجة وهم يهزجون:

وَسِّعوا المَرجة   والمَرجة لنا
وَسِّعوا المَرجة   لتلعب خيلنا

تلك الأهزوجة دخلت ضمن الفولكلور السوري، فتحوّلتْ إلى:

زيِّنوا المرجة..والمرجة لنا / شامنا فرجة..وهي مزينّة...

فوق دار الحكومة، تمّ رفع العَلَم العربي ذاته الذي رُفِع على دار سلطان الأطرش في القريّا مزَيَّناً بالنجمة البيضاء السباعية التي طرّزتْها نساء القريّا بأيديهنّ. اعتلى كتفَيْ علي الأطرش، شقيق سلطان، شابان من الثوار هما صالح طربيه وحمد البربور، بهدف رفع العَلَم العربي، مستمعين إلى الشاعر معذّى المغوّش وهو يهزج قائلاً:

عرش المظالم انهدم   والعزّ طبّ بلادنا
راحتْ عليكم يا عَجَم   خوض المعارك دابنا
حِنّا حُماتك يا عَلَم   بأرواحنا وأكبادنا

وهكذا، دخل ثوار الجبل دمشق فاتحين... ولكن، لا كتاب تاريخ في بلادي يذكر هذا الحَدَث الهام... وفهمكم كفاية!

وصل الشريف فيصل إلى دمشق، بعد يومين من رفع العَلَم العربي خفّاقاً فيها ، في ٢ تشرين الأول / أكتوبر من العام ١٩١٨ ... من أجل هذا الإنجاز، منح الشريف حسين لقب باشا، وهي رتبة عسكرية فخرية تعني أميرالاي، إلى سلطان الأطرش لما أبلاه من بلاء حسن في قيادة الثوار في فتح دمشق، التي أضحت عاصمة للدولة العربية الفتيّة، وعصيّة على الاستعمار المتربّص بها.

بقيت العلاقة راسخة بين المجاهدَيْن سلطان باشا الأطرش ويوسف الشويري: فهي علاقة صداقة صادقة، بدأت منذ أواخر العام ١٩١٢، وجهاد استمر من الثورة العربية الكبرى (١٩١٦- ١٩١٨) إلى الانتفاضة الأولى ضد الانتداب الفرنسي التي قادها سلطان في العام ١٩٢٢ دفاعاً عن المجاهد أدهم خنجر. إذ إن يوسف الشويري وابنه حبيب سُجِنا على يد الفرنسيين وضربهما الجنود بأعقاب البنادق على رأسيهما وتعرّضا للتعذيب بشراسة ووحشية في السجون الفرنسية، وكان معهما أيضاً في هذا العذاب الشاعر خليل صيدح وفارس أبو حسان، انتقاماً منهم جميعاً لما فعله سلطان باشا ورفاقه في موقعة سمج، حيث كمنوا للضباط والجنود الفرنسيين في مكان يدعى "دير الخريبة" وكبّدوهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد.

في الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ - ١٩٢٧)، ذات الشعار القائل الدين لله والوطن للجميع والذي رفعه عن عقيدة وإيمان قائدها العام سلطان باشا الأطرش، ساهم يوسف وحبيب الشويري في تمويل الثوار بالعتاد والمال إيماناً منهما بنبل غايات القائد العام سلطان باشا الأطرش وبالحق السوري في التوحّد والاستقلال.

بعد عودة سلطان باشا الأطرش من منفاه الذي دام عشر سنوات، في وادي السرحان والكرك، في ١٨ أيار / مايو ١٩٣٧، بعد أن سقط عنه وعن الوطنيين السوريين الأحرار حكم الإعدام، وصل إلى دمشق في ١٩ من ذلك الشهر، فاستُقبِل استقبالاً جماهيرياً كبيراً بحفاوة لا نظير لها... في هذا الاحتفال، ألقى فتى يافع اسمه إميل حبيب الشويري، وكان له من العمر ثلاثة عشر عاماً آنذاك، قصيدة عصماء ترحيباً بسلطان باشا الأطرش ورفاقه الوطنيين الأحرار. كان المجاهد يوسف الشويري، جدّ هذا الفتى

اليافع، قد أسلم الروح في العام ١٩٢٩، حين كان سلطان الأطرش وعائلته ورفاقه الثوار يعانون من شظف العيش في صحراء وادي السرحان السعودية.

تمثّلتْ وصية المجاهد يوسف الشويري لأبنائه، وعلى رأسهم حبيب، بالمحافظة على الصداقة المتينة التي جمعته بسلطان باشا الأطرش وعائلته التي بدأت قبل الحرب العالمية الأولى واستمرت إلى يومنا هذا!

في العام ١٩٨١ ، سمعتُ أبي مرةً يقول أمام جدي سلطان: "أنا وهند لا نُلام لأننا أحببنا واحدنا الآخر حباً عميقاً وصادقاً، فصداقتُك لجدها يوسف وأبيها حبيب رسخت قبل ولادتنا، وأنتم مَنْ أرشدنا إلى هذا الحب الراقي"!

الصديقان سلطان وحبيب وبينهما هند وإلى جانبها أختها عائدة

كلام جميل، أُعجِب به جدي ولم يعترض عليه، فهو واقعي بكل المقاييس... التفتَ جدي ناحيتي قائلاً: "أسمعت يا ريم ما قاله أبوك"... فأومأتُ برأسي قائلة: "نعم، سمعتُ وفهمتُ مُرادهَ"!

انتسب أولاد سلطان باشا الأطرش إلى مدرسة اليسوعية في بيروت، وكانوا في أيام العُطَل يأتون إلى دمشق لينزلوا في بيت الميدان، دار يوسف الشويري، حيث يلعبون مع أحفاده ويتسامرون معهم. استمرتّ هذه الحال إلى أن أصبحوا شباباً يدرسون في مدارس دمشق ويأتون في زيارات متكرّرة إلى بيت الميدان، خاصة أن حبيب الشويري كان مسؤولاً مؤتَمَناً عن جميع مصاريفهم وحاجاتهم وأقساطهم المدرسية، فسلطان الأطرش لم يجد شخصاً غيره يأتمنه على ماله الخاص، كما أنه كان يثق فيه وفي ذوقه الرفيع في اختيار الأنسب لأولاده وهم في دمشق، كما يثق في حكمته وحنكته.

منصور وهند حكاية صداقة غدتّ حباً أبدياً: فمبادئ العروبة واحدة ضمن العائلتين والآمال في التحرّر والاستقلال واحدة والتربية الوطنية واحدة، فما الضير إن كان الدين مختلفاً؟ فالرب واحد أيضاً... ثم ... أليس

الدين للّه والوطن للجميع؟!

في صيف العام ١٩٤٢، أي بعد خمسة أعوام من العودة الميمونة إلى أرض الوطن، كان منصور جالساً في ليوان دار يوسف الشويري وكانت هند هناك. الياسمين منهمر يملأ المكان ويعبق أريجه في الليوان. لملم منصور الكثير من أزهار الياسمين الأبيض وشكّل به جملة بالفرنسية: **Je t'aime** (أحبكِ) فقرأتها هند بصمت... لكنها أجابتّه ببياض الياسمين، فكتبتّ: **Et moi de même** (وأنا أيضاً)!

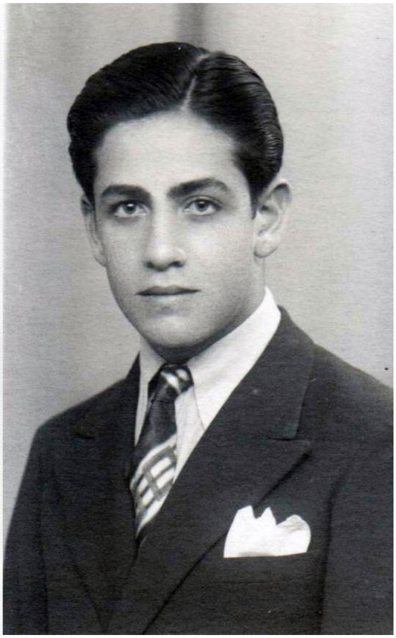

منصور وهند في العام ١٩٤٢ : بداية المشوار

مُذْ تلألأتْ تلك الكلمات الصامتة الناصعة البياض، تغلغل أريجها في قلبَيْن شابَّيْن عاشقَيْن... فبدأت حكاية

منصور وهند ... واستمرّت إلى آخر الزمان...

خُلِقا ليكونا متحابَّيْن... وهكذا كان...

اللقاءات كانت شحيحة... وإنْ حدثتْ فهي في كنف العائلة...

من ضمن ذكرياتها التي أسرّتْ بها إليّ عن مرحلة الحب التي دامتْ أربعة عشر عاماً قبل الزواج، واستمرّتْ لمدة خمسين عاماً خلاله، وعاشتْ مع هذا الحب، في غياب الحبيب منصور، ست سنوات مخلصة له في حبها إلى أن التحقتْ به في عالم الأبدية، روتْ لي أمي، هند، كيف كانا يلعبان النرد في أرض دار بيت الميدان... فيحرّك هو أحد الأحجار، ومع الجَلَبة

التي يحدثها حجر الطاولة، يسألها همساً عن أحوالها... ثم حين تحرّك حجرها على الطاولة، تجيبه همساً أيضاً... يتبادلان الأحاديث خِلسةً، فيطمئنان عن أحوالهما وعن صلابة حبهما...

تمضي الأيام، فيمرّ حَوْلٌ كامل أحياناً دون أن يلتقيا، إلا أن حبهما الكبير الغامر عظيم بما يكفي كي يعيش في قلبيهما وينمو بكثير من الحذر وقليل من الخوف حرصاً على تفتّحه...

التقيا على مبادئ حزب البعث العربي، فآمنا به... ويعود لإميل، خالي، الفضل في وضعهما على أول طريق الالتزام به.

في أثناء هذه المرحلة، وقبل الجلاء بسنتين، انتسبا إلى مدرسة اللاييك الفرنسية التي كان طلابها من أوائل الطلبة السوريين الذين يخرجون على رأس التظاهرات الوطنية ضد الانتداب الفرنسي.

روتْ لي أمي كيف انتقمتْ من مدرّسة فرنسية أساءت لفظاً للعرب، بتخريب سيارتها!

الدوام في مدرسة اللاييك صباحاً وبعد الظهر..كانت أمي تذهب سيراً على الأقدام من بيت أهلها في القصاع، الصوفانية، إلى المدرسة في شارع بغداد وبالعكس أربع مرات يومياً. في كثير من الأحيان، كان طاهر، العامل في دكّان المحاسبة الذي يملكه أبوها، يرافقها حرصاً على وصولها وعودتها سالمة... إذ إن بعض الناس في شارع بغداد كانوا يدفعون بأولادهم الصغار للّحاق بأمي في الشارع مردّدين: "نصرانية قويّة، ما بتخافي من ربّك"، نظراً لأنها سافرة! وحين يكون طاهر مشغولاً جداً بأمور الدكان، يتولّى هذه المهمة شباب القصاع، من أمثال وديع خباز وجورج كرشة وغيرهما، فيرافقون هند إلى بيت أهلها، فشارع بغداد خالٍ من الأبنية تقريباً... وفي

أحيان كثيرة، كان منصور هو الذي يرافقها، فينسحب رفاق الدرب، شباب القصاع... قد يكونون استشعروا نبض هذا الحب بينهما!

في إحدى المرّات، وعد منصور بأن يستعير سيارة أبيه ليوصلها إلى البيت، إلا أنه لم يستطع الوفاء بوعده، فجاء سيراً على الأقدام، وبدءا يمشيان معاً باتجاه بيتها... فجأة، وكان الطقس ربيعياً متقلّباً، هطلت أمطار غزيرة... وقفا تحت شجرة وارفة في شارع بغداد لدرء البلل، إلا أن ذلك لم ينفع... وصلت هند بثوبها المخملي الكحلي اللون إلى البيت، مبلَّلة من رأسها حتى أخمص قدميها، تغمرها سعادة غريبة...

وما زالت إلى آخر لحظة في حياتها، وقد تجاوزتِ سنّ التسعين بثلاثة أشهر، تذكر لي هذا المشوار تحت مطر الربيع بمحبة غامرة!

من الأمور التي تثير الضحك في ذاك الوقت هي وجود مقهى قبالة مدرسة اللاييك؛ كان الطلاب أحياناً يهربون من المدرسة ويجتمعون فيه، خاصة أؤلئك الذين ينتسبون إلى أحزاب سياسية!

حدثني أبي، مرّة، عن صاحب المقهى الذي كان يأتي ب "ركوة" القهوة الكبيرة سائلاً زبائنه الطلاب عن رغباتهم في شرب القهوة: واحد يقول حلوة... آخر يقول سادة... وثالث يريدها على الرّيحة... ورابع يشربها سكر زيادة... وهكذا... فيسكب، صاحب المقهى، لكلّ واحد من هؤلاء فنجانه وقهوته "كما يريدها"، لكنْ من الركوة ذاتها! والشاطر يعترض!

تخرّجتِ هند من مدرسة التجهيز الأولى، جودت الهاشمي حالياً، وانتسبتِ إلى جامعة دمشق لدراسة الفلسفة وعلم النفس...

سافر أخوها إميل إلى باريس للعمل...

سافر منصور إلى باريس أيضاً لدراسة الحقوق في جامعة السوربون بعد أن أنهى دراسته في الجامعة الأميركية في بيروت في العام ١٩٤٧ ...

اتفقا على التواصل بالرسائل، ولكن إلى أين سوف تصلها هذه الرسائل؟ إلى الجامعة طبعاً...

كان منصور يكتب لها رسالة ويضع اسم أخيها إميل في خانة المرسِل، حفاظاً عليها من "القيل والقال". لم يكن أحد يعلم ولا حتى إميل أن اسمه سوف يُستَخدَم لإخفاء مشاعر الحب بينهما... وكثيراً ما تَصادَف وصول رسالتين متتاليتَيْن من إميل إلى هند، لكنهما من "إميلَيْن": إميل ومنصور...فيُعجَب أصدقاؤها بهذا الأخ المشتاق لأهله، والذي لا يقوى على فراقهم!

هكذا مضتْ ثلاث سنوات، ومنصور وهند يبثّان لواعجهما في رسائل متواصلة، لم يحتفظا بها، للأسف، خوفاً من أن تقع في يد شخص ما فتسبّب لهما مشكلة، هما في غنى عنها آنذاك...

لقد استمرّ حذرهما طيلة أربعة عشر عاماً، اعتاد عليهما واعتادا عليه، حتى إن منصور، بعد زواجه منها وبعد أن أنجبا طفلهما الأول، أخي ثائر، وحين سافر في مهمة برلمانية إلى لندن، ذهبتْ هند لوداعه في المطار وطفلها بين يديها، فلم يقبّلها كما يفعل كل الناس...لكن، ومن مكان وجوده، أرسل إليها رسالة مؤثِّرة يشكو فيها ظلم مجتمع حرمهما من حياة طبيعية مثل كلّ الناس: لقد اعتادا الحذر في التعامل حتى بعد ارتباطهما خشية تقاليد لا إنسانية... هذا جزء من فحوى تلك الرسالة الشكوى المؤرَّخة في ١٣ أيلول / سبتمبر ١٩٥٧:

"حبيبتي هند، لا أدري لماذا لم أجرؤ على ضمّك إليَّ وتقبيلك بحرارة قبل أن أغادر قاعة المطار مع أنني كنت أشعر شعوراً عميقاً بالحاجة إلى ذلك. وقد يكون السبب في ذلك الماضي المؤلم الذي عشناه بالحرمان وخشية العيون الرقيبة على كل حركة من حركاتنا."

كانت هند جميلة المُحَيّا، ممشوقة القوام، مثقفة وهادئة، عيناها تعبّران بصدق عما بداخلها، لكلّ مَنْ يفهم لغة العيون... توحي بالثقة لكلّ مَنْ عرفها... متواضعة، دون تكلّف، ابنة بيت مسيحي أرثوذكسي عريق في الوطنية... أليستْ عروساً مناسبة لكلّ شاب مسيحي طموح؟!

حين كانت تستشعر لمحة إعجاب من أيٍّ كان، تسارع للاختفاء، فقلبها ليس ملكها، ومشاعرها مع منصور وله.

رفضت الكثير من الشبان متذرِّعة بدراستها الجامعية، ثم بدراستها العليا وبعد ذلك بالعمل من أجل تحسين ظروف البيت المعيشية... إذ إن أعمال أبيها كانت قد تعثّرت، وهي بالنسبة له الأمل بالتعليم العالي، لأنها، كما سبق وذكرتُ، كانت الأولى بين إخوتها وأخواتها التي وصلت إلى التعلّم في الجامعة السورية!

بعد تخرّجها من الجامعة وحصولها على دبلوم الدراسات العليا، أرسل أخوها إميل في طلبها لتأتي إلى باريس وتكمل دراستها العليا محاولاً إيجاد عمل لها هناك.

سافرت إلى باريس، وحلّتْ في غرفة أخيها في بانسيون مدام كومب؛ أما إميل، فقد تقاسم الغرفة في الطابق الأعلى مع منصور...

بقيتْ هناك معهما حوالى تسعة أشهر، لم تستطع، رغم محاولاتها الحثيثة، إيجاد عمل مناسب لها من أجل إكمال دراستها؛ لكنها كانت تساعد شباب الحزب في توزيع جريدة البعث على الطلاب البعثيين، وفي جمع قيمة اشتراكاتهم لصالح الحزب... تحمّل أخوها إميل مسؤولية مصروفها، وتكبّدتْ هي عناء تنظيم المصروف باقتصاد متأنٍّ... إذ إنها كانت تساعد إميل في الاقتصاد بالمصروف حتى يستطيع إرسال ما يفيض عن حاجتهما إلى أبيه في دمشق لمساعدته في تكاليف المعيشة هناك!

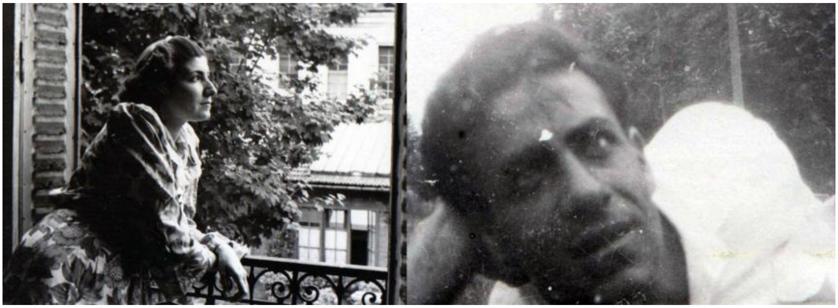

منصور وهند في باريس

تعرّفتُ إلى أصدقاء إميل ومنصور الفرنسيين واندمجتُ في أجوائهم الثقافية... من هؤلاء شانتال آليو وجان مورو، زميلا منصور في كلية الحقوق... وقد تزوّجا في ما بعد وأنجبا ابنهما الوحيد جان - إيريك... وزاروا ثلاثتهم دمشق في العام ١٩٧١ وقضينا جميعاً لحظات جميلة... لا زالت الصداقة تربطنا أنا وأخي بجان - إيريك وزوجته كاترين.

من أصدقاء منصور وإميل وهند أيضاً الأديبة آليس بوللو، وكانوا يدعونها بالعمّة آليس Tante Alice ، التي زارت دمشق في العام ١٩٢٦ لتشهد على بربرية الانتداب الفرنسي ولتنشر في ما بعد مذكراتها في تلك الآونة بعنوان A Damas sous les bombes / (في دمشق تحت القنابل)...

كان الثلاثي، هند ومنصور وإميل منسجماً فكرياً وثقافياً ونفسياً... ويبدو أن إميل، والله أعلم، قد استشعر حبهما دون تصريح، ولكن دون اعتراض أيضاً... فإيمانه بمبادئ البعث العربي وبالرباط القومي العربي المُفعَم بالإنسانية وبكونه هو الأساس في المواطنة، قد طغى عنده على كلّ ما هو ديني وطائفي ومذهبي، خاصةً أنه من المعجبين بشخصية الرسول العربي الكريم محمد... ودليلي على ذلك هو وضعه للافتة خشبية على مكتبه، كُتِب عليها بالخط العريض (محمد إميل الشويري)!

أليس بولو والثالوث الغالي (كما كانت تسميهم) إميل وهند ومنصور - في بيتها في فرنسا

من الذكريات التي حدثني عنها كلٌّ من أبي وأمي هي تلك المتعلّقة بالأستاذ سهيل إدريس، فهو درس في ذاك الوقت في باريس أيضاً.

كانوا يذهبون جميعاً لتناول الطعام في المطعم الجامعي Louis Le Grand.

في إحدى المرّات، جاء أحد الطلاب الألمان وجلس إلى مائدتهم، وتكرّر ذلك الأمر كثيراً... أخذ يأكل بنهم شديد... فما كان من الأستاذ سهيل إدريس إلا أن عمل باستمرار على تقريب كل شيء من هذا الطالب الألماني، حتى الملح والفلفل، بقصد السخرية من أسلوبه في التهام الطعام... غير أن هذا الألماني، في كلّ مرّة، يشكر جهد الأستاذ سهيل، ظناً منه أنه كان يقدّم له خدمات جليلة لتلبية حاجته كي يكون كل شيء في متناول يديه.

في العام ١٩٩٥ ، زرتُ الأستاذ سهيل إدريس في بيته في بيروت بصحبة صديقة مشتركة، فتحدّث عن ذكرياته في باريس مع أهلي، وأنا بدوري قدّمتُ له نسخة من صورة له موجودة في ألبوم الذكريات في بيتنا.

يبدو أن أبي وأمي قد اتخذا القرار بالزواج في تلك الآونة، غير أنهما أصرّا على تنفيذه في سورية، بلدهما، لاعتقادهما بأن تجربتهما سوف تساهم، مع غيرها، في خلق " الجيل العربي الجديد" الذي آمَنَ به البعثيون.

في صيف العام ١٩٥١ ، عادوا ثلاثتهم بحراً إلى بيروت، ولم يبقَ على سطح الباخرة سوى أمي التي لم تُصَبْ بدوار البحر مثل باقي الركّاب... وصلوا براً إلى دمشق، وكان الأهل في استقبالهم.

أصرّتْ أمي على تأجيل زواجها إلى ما بعد دخولها معترك الحياة العملية كي يستطيعا بناء عائلتهما دونما حاجة إلى عون من أحد؛ كما أصرّت أكثر على تأجيل زواجها إلى ما بعد زواج أختها الصغرى، كي لا يقف هذا الارتباط المخالف للتقاليد الاجتماعية المَرعيّة عائقاً في طريق حياة أختها، فالمجتمع لن يقبل بسهولة هذا الزواج المختلط!

في باريس: صباح قباني وسهيل إدريس وهند وإميل ومادلين

إلى يمين الصورة وقوفا: خليل سمارة، هند الشويري، إميل الشويري، كمال بحصلي.
إلى يسار الصورة وقوفاً: منصور الأطرش وأسعد الأسطواني
جلوسا إلى يسار الصورة سيمون
البيت الدولي في المدينة الجامعية في باريس، ١٧ نيسان ١٩٥١: الاحتفال بذكرى عيد الجلاء الذي نظّمته رابطة الطلاب السوريين برئاسة الدكتور أسعد الأسطواني

حسمتْ هند خيارها: فإما الزواج من منصور وإما الاعتكاف تماماً عن هذه الخطوة... لقد قررت وبشكل قاطع أنها ستصبح راهبة في أحد الأديرة إنْ لم يتمّ هذا الزواج، شرط أن يبتعد تماماً عن أماكن وجودها، وألا تجمعهما حتى المصادفة البحتة! أما هو، فقد هدّد بإنهاء المسألة برمّتها على طريقة "روميو وجولييت"!

في أثناء نضال حزب البعث ضد ديكتاتورية الشيشكلي، سُجِن منصور كما سُجِن أخو هند الأصغر وذلك في أواخر العام ١٩٥٣ . ثم حين نجحت

الحركة الشعبية بقيادة البعث ضد أديب الشيشكلي، تمّ الإفراج عن السجناء السياسيين، فذهب البعثيون كلٌّ إلى مكان سرّي حتى تنجلي الأمور: لجأ منصور إلى دار اليان الشويري، عم هند وإميل، وهند أخذت أخاها الأصغر وحيدة وسارت به، عند الغروب، في شارع بغداد وأوصلتْه بأمان إلى دار خالها رفلة فرح في الأزبكية للاختباء فيها، وهي دار فارغة من سكانها بسبب انتقال خالها وعائلته للسكن في دار ثانية ، ثم عادت وحيدة إلى بيت أهلها في الصوفانية، سيراً على الأقدام، والشوارع خالية تماماً حتى من "الدومري" لأن البلد كانت على "كفّ عفريت"، كما يقال!

شخصياً، أعتبر أن ما قامتْ به أمي وقتها يعبّر عن رباطة جأش وشجاعة نادرة!

العودة إلى سوريا على متن الباخرة، ١٩٥١

الأهل في استقبالهم

في حوالى منتصف العام ١٩٥٤ ، أصبح منصور أصغر نائب من بين كافة أعضاء المجلس النيابي السوري، وهو بالطبع واحد من بين سبعة عشر نائباً انتُخِبوا عن حزب البعث العربي الاشتراكي.

كانت هند قد انخرطت في الحياة العملية، في مهنة التدريس في دار المعلّمات في دمشق. في تلك الآونة، كان من المتاح لهما اللقاء في كافتيريا بكداش، الكائنة، في ذاك الوقت في شارع الصالحية، قرب المجلس النيابي. لكنها في العديد من المرّات تراجعتِ عن الذهاب بسبب وجود شخص أو أشخاص تعرفهم في المكان ذاته... وهكذا، كان منصور يذهب إلى موعد اللقاء، فلا يجدها هناك.

نوادر هي المرّات التي التقيا فيها في ذلك المكان. وبعد الزواج، عادا إليه مرّة فاستقبلهما صاحب الكافتيريا بترحاب شديد وبمباركة لزواجهما.

كانت هند أحياناً تضطرّ إلى الاتصال بمنصور هاتفياً، فتتحدث معه أو مع مَنْ يردّ عليها بالفرنسية حتى لا يفهم عليها أحد، أو حتى لا يعرف أحد صوتها!

حضّر منصور البيت الذي سوف يكون بيت الزوجية، فاستأجره في حي المزرعة، شارع عمر المختار...

هو البيت ذاته الذي وُلدنا فيه أنا وأخي.

كان حبيب الشويري يعتبر منصور بمثابة ابن له، لا بل كان يُسِرّ له أموراً كثيرة يتجنّب الخوض فيها مع ابنَيْه... فمنصور موضع ثقته التامة!

إذن، اتخذ منصور وهند القرار بالزواج ولم يتبقَّ عليهما إلا توقيت التنفيذ... كانا يودّان الارتباط في سورية، إلا أن الأمر دونه عَثَرات كثيرة، هم في غنىً عن مواجهتها الآن، فهو شخصية سياسية واجتماعية معروفة على مستوى القطر كلّه: نائب في البرلمان وابن القائد العام للثورة السورية الكبرى...

تمّ اتخاذ القرار بإتمام الأمر برمّته في لبنان...

انتظرتْ هند إلى أن تزوجت أختها الصغرى، وبعد مضيّ أربعين يوماً على ذلك، سافرتْ بصحبة أختها الكبرى منيرفا وزوجها وابنتها الكبرى نبيلة، وكان لها من العمر سبع سنوات... وهند هي عرّابة نبيلة في العماد المسيحي.

هدف الذهاب إلى لبنان، ظاهرياً، كان قضاء بعض الوقت للترفيه...

حين وصلوا إلى هناك، أسرّت هند لأختها الكبرى بنيّتها الزواج من منصور... فوجئت منيرفا بالموضوع، غير أنها فضّلت أن تقف إلى جانب أختها في هذه الظروف لأنها كانت تدرك جيداً مدى خطورة هذه الخطوة من الناحية الاجتماعية، لكنها، في الوقت ذاته، كانت ترى أن منصور هو أصلح زوج لأختها هند... أما الاختلاف في الدين فهو أمر ثانوي.

طلبتْ هند أن يكون الزواج دينياً مسيحياً كي يرتاح أبوها حين يعلم بالأمر، فوافق منصور على هذه الخطوة بسبب انفتاحه وسعة أفقه وحرصه على حبّ عمره وعلى إتمام هذا الزواج.

تمتْ مراسم الإكليل في كنيسة مار الياس للروم الأرثوذكس في سنّ الفيل، شارع مار الياس... كانت الإشبينة من أقارب العم نقولا، زوج خالتي منيرفا . أما صديقهما السيد يوسف تقلا، فقد أهداهما محبسَيّ الزواج من الذهب الأصفر، وثمنهما آنذاك لم يتجاوز العشر ليرات لبنانية!

بقي هذا الخاتم ذاته في إصبع أمي إلى آخر لحظة في حياتها، وهو الآن يرتاح في إصبعي...

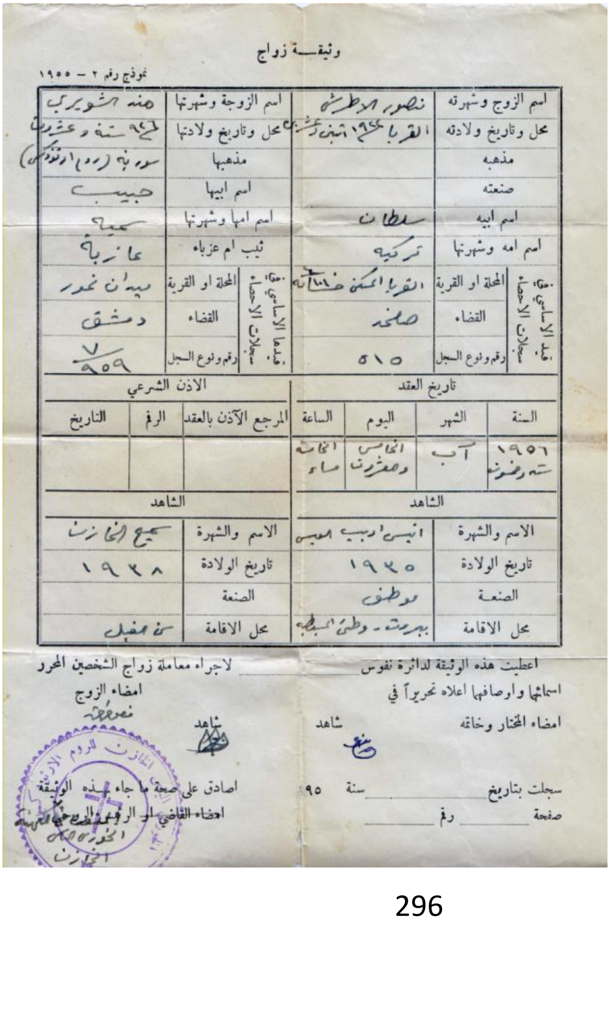

وثيقــة زواج

نموذج رقم ٢ – ١٩٥٥

اسم الزوج وشهرته	منصور الاطرش	اسم الزوجة وشهرتها	هند شويري
محل وتاريخ ولادته	القريا ١٩٢٤ [illegible]	محل وتاريخ ولادتها	[illegible] ستة وعشرين
مذهبه		مذهبها	سورية (روم) ارثوذكس
صنعته		اسم ابيها	حبيب
اسم ابيه	سلطان	اسم امها وشهرتها	[illegible]
اسم امه وشهرتها	تركيه	ثيب ام عزباء	عازبة
قيد الاساسي في سجلات الاحصاء: المحلة او القرية	القريا [illegible]	قيدها الاساسي في سجلات الاحصاء: المحلة او القرية	[illegible]
القضاء	صلخد	القضاء	دمشق
رقم ونوع السجل	٥١٥	رقم ونوع السجل	٧/٩٥٩

تاريخ العقد

السنة	الشهر	اليوم	الساعة
١٩٥٦ [illegible]	آب	الخامس وعشرون	الخامسة مساء

الاذن الشرعي

المرجع الآذن بالعقد	الرقم	التاريخ

الشاهد		الشاهد	
الاسم والشهرة	انيس [illegible]	الاسم والشهرة	[illegible] الخازن
تاريخ الولادة	١٩٢٥	تاريخ الولادة	١٩٢٨
الصنعة	موظف	الصنعة	
محل الاقامة	بيروت - [illegible]	محل الاقامة	سن الفيل

اعطيت هذه الوثيقة لدائرة نفوس ________ لاجراء معاملة زواج الشخصين المحرر اسمائهما واوصافهما اعلاه تحريراً في

امضاء المختار وخاتمه

شاهد

شاهد

امضاء الزوج

سجلت بتاريخ ________ سنة ٩٥

صفحة ________ رقم ________

اصادق على صحة ما جاء بهذه الوثيقة

امضاء القاضي او الرئيس الروحي

وثيقة الإكليل ١٩٥٦

ارتدتْ هند طقماً أبيض غاية في البساطة، فليس مهماً أن تلبس فستان العرس التقليدي... تمّتْ مراسم الإكليل في ٢٤ آب / أغسطس من العام ١٩٥٦ ، لكنّه سُجِّل رسمياً بعد يوم من هذا التاريخ، لإعفاء منيرفا من الحَرَج أمام أبيها... إذ إنها عادت بعد الإكليل مباشرة إلى دمشق، أي في الرابع والعشرين من ذاك الشهر؛ وأصرّتْ حين سُئِلَتْ على أنها لا تعلم شيئاً عن الأمر. غير أن نبيلة، الطفلة ذات السنوات السِبع، بدأت تتحدث عمّا شاهدتْه في كنيسة سن الفيل... فتمّ قمعها بشكل حازم وحاسم كي لا تعيد الكرّة أمام أحد ... فامتثلتْ للأوامر... إلى أن كبرتُ أنا ووصلتُ إلى الجامعة، فحدثتْني عن ذكرياتها تلك، وكيف تمّ قمعها وإقناعها أنه مجرّد حلم راودها في الليل، واختلطت عليها الأمور بين اليقظة والنوم!

مباشرةً، ذهب منصور وهند لقضاء شهر العسل في برمّانا، في فندق ملحق بيلفيدير Belvédère Annexe الذي حدثتكم عنه في الفصل الخامس. كلّف منصور محامياً دمشقياً صديقاً له ليتمّم إجراءات تثبيت الزواج في المحكمة السورية... وقد أُنجِز له ما أراد نظراً لحيثيات مكانته في المجتمع السوري...

كنيسة مار إلياس حيث تم الإكليل

كنيسة مار الياس أمام المذبح حيث وقفا في الإكليل

قامت الدنيا ولم تقعد في دمشق وفي القريّا على السواء!

كُتبَ في الصحف السورية أن " النائب منصور الأطرش قام باختطاف صبيةٍ مسيحية من أهلها وتزوج منها"!

اعتقد الناس الذين قرؤوا الخبر في لبنان، أنه قد اختطف فتاة قاصراً، لكنهم حين رأوها عرفوا أن ما قيل هو محض افتراء تعرّض له كلّ من منصور وهند!

لقد استغلّ بعض "هواة" السياسة من آل الأطرش هذا الموضوع ليطالبوا بسحب ثقة الناخبين منه كي يحلّوا محلّه في البرلمان... غير أن "القافلة" استمرّت في مسيرتها رغم "نواح" هؤلاء!

قضى منصور وهند أيام شهر العسل في برمّانا، ثم عادا إلى بيتهما في دمشق، واستمرّ كلّ منهما في عمله.

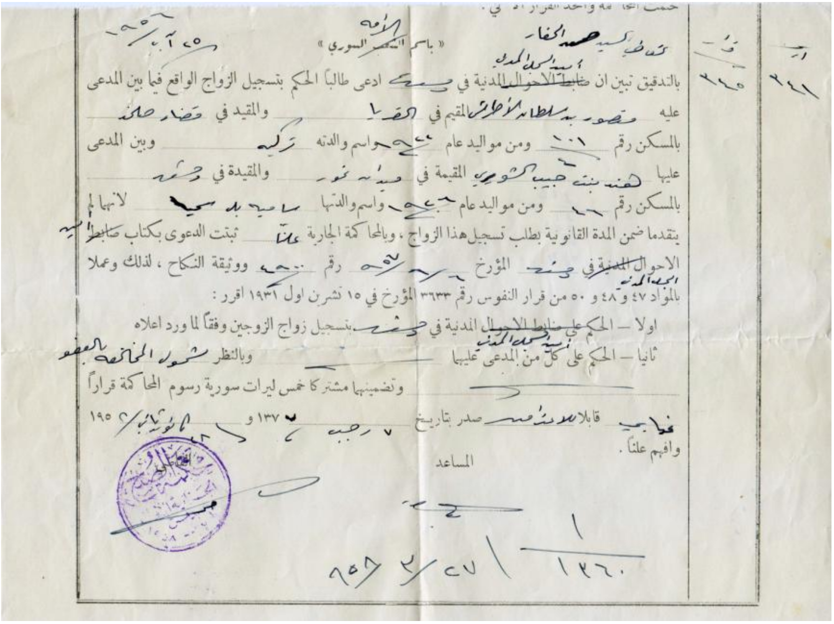
« باسم الشعب السوري »

بالتدقيق تبين ان ضابط الاحوال المدنية في ... ادعى طالباً الحكم بتسجيل الزواج الواقع فيما بين المدعى

عليه منصور بن سلطان الأطرش المقيم في ... والمقيد في ...

بالمسكن رقم ... ومن مواليد عام ... واسم والدته ... وبين المدعى

عليها هند بنت حبيب الشويري المقيمة في ... والمقيدة في ...

بالمسكن رقم ... ومن مواليد عام ... واسم والدتها ... لانهما لم

يتقدما ضمن المدة القانونية بطلب تسجيل هذا الزواج ، وبالمحاكمة الجارية علناً ثبتت الدعوى بكتاب ضابط

الاحوال المدنية في ... المؤرخ ... رقم ... ووثيقة النكاح ، لذلك وعملا

بالمواد ٤٧ و٤٨ و ٥٠ من قرار النفوس رقم ٣٦٣٣ المؤرخ في ١٥ تشرين اول ١٩٣١ اقرر :

اولا — الحكم على ضابط الاحوال المدنية في ... بتسجيل زواج الزوجين وفقاً لما ورد اعلاه

ثانيا — الحكم على كل من المدعى عليهما ... وبالنظر ...

وتضمينهما مشتركا خمس ليرات سورية رسوم المحاكمة قراراً

... قابلا ... صدر بتاريخ ٧ رجب ١٣٧٧ و ... ١٩٥٨

وافهم علناً .

المساعد

وثيقة تثبيت الزواج في سورية

جاء مشايخ جبل العرب إلى سلطان باشا الأطرش ليحتجّوا لديه على "الفعلة" التي ارتكبها منصور، مطالبين الباشا بالضغط على ابنه كي يطلِّق عروسه! رفض سلطان الأطرش هذا الطلب قائلاً لهم: " أنا أعرف ابني حق المعرفة: إنه لم يتزوج من هذه الشابة كي يطلّقها في يوم من الأيام".

كان هذا جواباً مُفحِماً للجميع. فسكتوا عن هذا الموضوع مرّةً وإلى الأبد...

أما والد هند، فقد أرسل إليها رسولاً يطالبها بالطلاق الفوري! غير أن أخاه سليم ردّ عليه بعقلانية محمودة:

"يا حبيب، هذا طلب ظالم وغير واقعي... لقد أضحت زوجته الآن، فكيف بأب يفرض على ابنته هذا الطلب؟!" وللحقيقة، كان عمّها سليم من أوائل المهنئين لها بهذا الارتباط نظراً لانفتاحه الفكري وسعة أفقه...

أما الأستاذ ميشيل عفلق، أحد مؤَسسَيْ حزب البعث العربي، فقد اقترح على منصور أن يرسله في مهمة دبلوماسية خارج سورية من أجل تجنّب العاصفة، إلا أن أبي رفض هذا العرض واعتبره هروباً من مواجهة الواقع... وهو ليس من الرجال الذين يهربون من المواجهة أيّاً كانت. وحدهم شباب حزب البعث فرحوا وهلّلوا لهذا الزواج وفسّروه للسائل قائلين: "عربيٌّ تزوج من عربيّة... وكفى".

اتفق منصور وهند على التصدي للرياح العاتية اجتماعياً بكل قوة وصلابة بمساندة أحدهما للآخر مهما حدث...

بهذا الخيار، وضع منصور أباه أمام مأزق اجتماعي صعب... فسلطان باشا الأطرش صديق صدوق لحبيب الشويري... وفي مجتمع ذكوري كالمجتمع السوري يبقى الشاب هو المسؤول الأول في مثل هذه القضية. كتب منصور لأبيه رسالة أبلغه فيها بزواجه وبأمله الكبير بتقدير جدّي لهذا الحدث... إليكم مقتطفات منها :

"والدي الحنون،

أقبّلك بشوق.

(...). لقد تعوّدتُ الصراحة في كل الأمور التي تكون الصراحة فيها محمودة، وجريئاً في كل الأمور (أو أغلبها) حيث الجرأة فضيلة وواجب. (...).

عندما أذكر تاريخ حياتك الطويل، المليء بالكفاح والنضال، الناصع البياض الذي لا يعثر فيه المرء على شائبة، تستيقظ فيَّ كل القوى الروحية وكأنها تستعدّ لتحافظ على هذا التاريخ الحافل بالبطولة لتقتدي به وتصونه وتجعله آية للأجيال.

فعلتي التي سأخبرك بها لن تلطخ تاريخ حياتك، ولقد أقدمتُ عليها لقناعتي أنك ستجد لها التفسير الصحيح في فهمك وعقيدتك. (...). إن المجتمع، هذا الفاسد، سيحكم على عملي حسب ما يحكم عليه الأقوياء أمثالك. حسب ما تحكم عليه أنت.

أنا لا أريد حكماً سريعاً ولا حكماً متأثراً بقيم المجتمع الفاسد ولا حكماً مبنياً على أوهام الدين، ولكن حكماً فيه كل الرويّة وحكماً بمقياس أخلاق وقيم الأقوياء أصحاب التاريخ القومي الوطني الحافل بالنضال والتضحية وحكماً مبنياً على قدسية الرباط الإنساني الذي يجعل البشر إخوة والمحبة بينهم ديناً. (...).

سينقم (...) مَنْ يدّعون الصداقة والتديّن (...) وكل أصحاب الأخلاق المغايرة للأخلاق الصحيحة (أي أخلاقنا) على عملي هذا، وسوف يكيلون لي من التهم ما لا يحصى (...). كل هؤلاء أعرف ما قيمتهم في معارك الشرف؛ لقد عرفناهم وكشفهم كلّ ذي بصيرة. لقد تزوجت. (...). لقد تزوجت من هند حبيب الشويري، المسيحية الأرثوذكسية.

(...).

إنني أتوقّع أن يطير صواب العم حبيب فلا يعرف كيف يواجه هذه المشكلة، (...)... أنا الذي حزتُ على ثقته فاعتبرني طيلة علاقتي به كأحد أبنائه. فهل يستطيع أن يغفر لي؟ إني لا أظن ذلك... إلا بطريقة واحدة ولعلّها لن تكون مستحيلة، هي أن يكون وقع المشكلة عليك أخف من وقعها عليه، وأن تواجهه في الحال بكلمة عطوفة (...). فهل لي أن آمل ذلك منك؟ أنت الذي واجه أصعب المشاكل، بل واجه أخطار الموت بصدر مفتوح ورباطة جأش لا يعرفهما إلا الأبطال.

(...).

آمل أن يكون حكمك على هذه " المصيبة"، كما كان دوماً في جميع المصائب التي واجهتَها في الماضي، خلافاً لأحكام الآخرين. قبلاتي للجميع..." .

قرّر سلطان الأطرش زيارة صديقه حبيب في دمشق مع بعض الأصدقاء المشتركين، ليعبّر له عن سخطه من تصرّف ابنه الذي لم يحترم، حسب رأيه، قوانين الصداقة والأخوّة القائمة بينهما... فقال لحبيب: " حقك عليّ... اطلب ما يرضيك وأنا جاهز لما تريده". أجابه حبيب: " القطيعة يا باشا"... وهكذا كان...

أصدر حبيب "فرمانه" الظالم ذاك، فتمّ تنفيذه بحذافيره ضمن العائلتين، اللهم إلا بعض الاستثناءات من هنا وهناك... أما هما، سلطان وحبيب، فقد حافظا على صداقتهما التي لا تشوبها شائبة، وكانا أول مَنْ نفّذ القطيعة ضد عائلة منصور وهند!

سلطان وحبيب في الميدان في أثناء القطيعة ومعهما عمي ناصر

حين كنتُ في الصف الثالث الابتدائي، أعطتنا المعلّمة درساً عن الثورة السوريّة الكبرى؛ ثمّ توجّهت نحوي قائلة:

"ريم، حدّثينا عن جدّك الإنسان، فنحن نعرف تاريخه الوطني". وقفتُ في الصف وتردّدتُ ثم قلتُ لها: "آنسة، أنا لا أعرفه"! وجلستُ... سكت الجميع في الصف وكأن على رؤوسهم الطير!

هذه اللحظة الحرجة لا أنساها ما حييتُ...

استمرّت الحياة طبيعية في كنف عائلتنا الصغيرة المتماسكة وقد قاومنا كافة أنواع الضغوط الاجتماعية وغيرها...

على الصعيد الشخصي، أنا أؤكّد أن التربية التي تلقّيتُها في البيت هي تربية منفتحة على الثقافة والمعرفة وبالأخص، على الآخر، أيّاً كان، مع احترام التنوّع في الحياة، كما الزهور في ألوانها.

في العام ١٩٦٩ ، قرّر جدّي سلطان " العفو" عن عائلتنا، وكان لي من العمر تسع سنوات... ذهبنا نحن الأربعة إلى بيت جدي في القريّا... ولدى دخولنا البيت، استقبلنا هو بحنان ولطف وضمّنا إليه برفق، وكأننا لم نترك حضنه قط. ومذ ذاك الوقت، أصبحتُ عنده "ست الكلّ" ، وثائر هو "شيخ الشباب".

بدأ التحضير ضمن العائلة والأصدقاء من أجل ترتيب زيارة إلى بيت جدي حبيب، ضمن "جاهة" كي يقبلنا أفراداً من العائلة و"يصفح" عنا هو أيضاً!

ذهبنا جميعاً بصحبة جدي سلطان وبعض الأصدقاء المشتَركين، ودخلنا بيت جدي حبيب في الصوفانية وجلسنا في الصالون حيث استقبلتنا جدتي سميّة بترحاب كبير، إذ كان جدي خارج البيت.

جاء ودخل بقامته الفارعة وطربوشه الأحمر، هو ذاته الذي رأيتُه في بيت خالتي منيرفا منذ عدة سنوات!

ما زال صارماً وقاسياً، وقد انفعل انفعالاً شديداً، ولم ينظر إلينا ولم يوجّه إلينا أي حديث، ولم يصفح بسهولة، إلا أنه لم يستطع ردّ طلب صديقه سلطان الأطرش.

وهكذا، صدر "فرمان" العفو بعد أربعة عشر عاماً من القطيعة، أي في العام ١٩٧٠ ؛ سنة من القطيعة مقابل كلّ سنة من الحب الصادق!

هذا البيت ذو الدَرَج الطويل دخلتُه في ذاك اليوم للمرّة الأولى برفقة أهلي، أما أخي فكان قد دخله قبل صدور "العفو" حين أوصل بعض الأغراض لجدتي سميّة. كان في استقباله جدي حبيب، إلا أن سلامه كان جافاً جداً!

بعد صدور "فرمان العفو" مُدَّت الولائم وأُقيمَت الاحتفالات من أصدقاء العائلتين، وكانت الفرحة كبيرة عند الجميع.

الاحتفال باليوبيل الذهبي لزواج جدي حبيب وجدتي سمية ١٩٧٠

صادفت في هذه السنة ذاتها، ١٩٧٠ ، مناسبة اليوبيل الذهبي لزواج جدي حبيب وجدتي سميّة، ولأول مرّة، اجتمعت عائلتنا الصغيرة بجميع أفراد الأسرة. أذكر أن جدي حبيب تحدث بكلمة مطوّلة عن حياته مع شريكته في الدرب، وعن أولاده وأحفاده...

كانت سهرة لطيفة وغريبة في آنٍ معاً!

وهنا، ختاماً، أحب أن أصرّح أنه قُيِّض لي أن أعيش في كنف أم وأب جمعهما الحب من بداية شبابهما، وحتى نهاية حياتهما، وإلى " آخر الزمان"!

حين يعيش الإنسان في مثل هذا الجو، فمن الصعب عليه التخلّي عنه!

قد يقضي عمره باحثاً عما يشبه هذا "الحب" كي يكمل الدرب المرسوم له في الحياة...

فأمي وأبي فتحا لي أبواباً واسعة في الحب والتنوّع والسماحة والمعرفة، لا أستطيع إغلاقها... هكذا ببساطة!

العودة إلى حضن العائلة ١٩٧٠

الحب يفتح آفاقاً واسعة وجميلة للإنسان... ويكفيني " حباً" أني عشتُ معهما وقد بقيا على عهد حبهما الألِق والمتوّهج حتى آخر لحظة من حياتهما الغنيّة... لكنّ، برحيلهما، أشعر أني تُركتُ هكذا، معلّقة بين ذكريات حبهما الغامر، الذي كان يملأ عليّ حياتي، وبين زمن أضحى من بَعدهِما باهتاً!

بعد رحيل منصور، كانت هند، والدمعة في عينيها، تدندن مع السيدة فيروز (بعدَك على بالي، يا قمر الحلوين، يا زهر بتشرين، يا دهب الغالي، بعدَك على بالي)... وهكذا، أكمل أنا مشوار هذه الأغنية بعد رحيلهما الآن!

لقد اجتمعا اليوم في مكان واحد، أسميتُ طريق الوصول إليه "درب الآلام"، لشعوري الطاغي بافتقادهما، لا بفقدهما... إنهما يؤنساني، في عمق أعماق قلبي وروحي وذاكرتي... فالأم بشكل خاص حين نفتقدها، فإننا نفقد "حصتنا" اليومية من المحبة والحنان... وبافتقاد الأب، فإننا نفقد "حصتنا" اليومية من الدعم والسَنَد... وهيهات أن يُعَوَّض كل ذلك!

اليوم، لا بدّ أن توأمَيّ الروح قد التقيا في النعيم...

هنيئاً لهما هذا "الحب المعجزة"...

في التاريخ الإنساني، قيس ولبنى، أنطونيو وكليوباترا، روميو وجولييت...

أما أنا فأقول:

"منصور وهند"، حب في مشوار حياة وإلى آخر الزمان...

وهكذا عم الرضى بعد أربعة عشر عاماً من القطيعة

هنا يرقد منصور وهند ويجمعهما حبّهما الأبدي

الخاتمة

تخيّلتُ أني وجدتُكَ أخيراً... فأنتَ طيف مَنْ حلُمتُ به طوال حياتي...

آمَنتُ بالحب الذي جمع بين أبي وأمي، وكنتُ أظنّه من زمن سينما الأبيض والأسود...

وها أنا، في مخيلتي، أقف أمامه مشدوهةً...

عثرتُ عليكَ نقيّاً، جميلاً، معطاءً، سخيّا...

أهو "حبّ عذريّ"؟ نعم، بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ رائعة...

وأنا في محراب هذا الحب، لا أريد سوى أن تتيح لي الحياة يوماً تلقّف يدكَ والإمساك بها..

"إلى آخر الزمان"... هذا ما أترجّاه...

صحيح أن الجمع من حولكَ كثر، وصحيح أني لستُ أنا مَنْ تكون الفراشة حول الضوء كما هُمُ الآخرون... لكنّ، صحيح أيضاً أني لا أجد مخرجاً لتحصين قلبي، سوى بُعدي عنكَ لتكون فسحة الحرية أوسع من الكون كلّه... هكذا هو حبّي لكَ...

حين خلتُ أني التقيتُكَ للمرة الأولى، حَدَستُ أن ما سيكون بيننا فوق الوصف... هو خاص وحلو... فيه الكثير من الفرح والحب... حَدَستُ بما ستقوله لي حرفياً، وأنتَ لا تعرف بعدُ مَنْ أكون...

حين عدتُ وتخيّلتُ لقاءنا بعد لأيٍ، شعرتُ أننا تناغمنا في كلّ أمر أساسي... فمعظم أمور حياتنا متشابهة: خياراتنا، هواياتنا، قراءاتنا، توجّهاتنا الأدبية، مواقفنا، طبائعنا، روحانيّاتنا، أسلوبنا، أوجاعنا الجسدية والروحية، قراراتنا الحاسمة والحازمة في آنٍ معاً، لغة صمتنا بالغة الرقيّ التي يقول واحدنا من خلالها ما لم يستطعْ قوله كلاماً... أليست أجمل الكلمات هي تلك التي لم تُقَلْ بعدُ؟

حديثنا مستمر لا ينتهي بانتهاء اللقاء: تقول لي شيئاً، أحسّه للتوّ في قلبي وعلى لساني...

أبثّكَ أمراً، أشعر أنك تعرفه قبل حتى أن أنطق به...

صحيح أننا نختلف في بعض الأمور "الفلسفية"، لكنْ ينطبق عليها المَثَل القائل "الخلاف في الرأي لا يُفسِد للودّ قضيّة"... فالجوهريّ موجود... أوَليس هذا هو الحبّ الحقيقي ولو بعدت المسافات؟!

لذا، وبعد هذا التخيّل، قرّرتُ أن أضع في إصبعي "محبس الحب" الذي خلّفتْه لي أمي قبل رحيلها وأوصتني به خيراً... فالحياة بلا حبّ، حياة بلا طَعم ولا معنى...

حتى وإنْ كان هذا الحب المتخَيَّل مفتوحاً على كل الآفاق والاحتمالات، إلا أنّه يستحقّ أن يُعاش عذرياً ودون انتظارٍ لأيّ مقابل... فأنا اليوم أراني أرقى وأنقى، أحلى وأجمل، ألطف وأرهف.

فشكراً لله على عطائه لي هذه النعمة، التي حين عثرتُ عليها، "عرفتُني" أكثر...

نعم، إني أحبك، نقطة من أول السطر.

ولسان حالي يردّد شعر جلال الدين الرومي:

سوف أكون هنا،

بانتظارِ

انكسار صمتكَ

وارتعاش روحكَ

واستيقاظ حبِّكَ..

فيكفيني حباً أني تخيّلتُ وجودكَ أخيراً، وعرفتُ حقاً وفعلاً أن الحب جميل... فاذهبْ أنّى شئتَ... لكنْ، لا تنسَ أن الحب يُغني قلب الإنسان، وأنتَ إنسان قبل أي شيء آخر، فيصقل روحه ويرتقي بها ...

ولسوف يؤنسني هذا الشعور "إلى آخر الزمان" ...

د. ريم منصور الأطرش

تعريف

www.rimalattrache.com

الدراسة

– أنجزتْ بحث الدكتوراه بالفرنسية في جامعة ليون الثانية في فرنسا ٢٠٠٣ حول مشاكل الترجمة وأسبابها.

الأبحاث و المنشورات

– قامتْ بإعداد وتحقيق مقالات وبيانات وحوارات مع وبقلم منصور سلطان الأطرش، ونَشَرتْ هذا الكتاب في بيروت، دار الفرات، ٢٠١٠ بعنوان "في سبيل العراق".

– قامتْ بتحقيق وإعداد السيرة الذاتية لمنصور سلطان الأطرش بعنوان الجيل المُدان، بيروت، دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠٨.

– أنجزتْ مؤلفاً بالعربية والفرنسية بعنوان: "الحرير في سورية: لواء اسكندرون، سورية ولبنان"، نُشِرَ في العام ١٩٩٦ في وزارة الثقافة السورية في دمشق..

– أطلقتْ على شبكة الإنترنت موقعاً باسم سلطان الأطرش القائد العام للثورة السورية الكبرى: www.sultanalattrache.org

- ❖ ترجمَتْ إلى العربية عدة كتب عن اللغات الفرنسية والإنكليزية والإسبانية:
- ❖ ترجمتْ بعض الأبيات من جدارية الشاعر محمود درويش إلى الفرنسية، ٢٠٠١.
- ❖ ترجمتْ عدة مقالات وقصص قصيرة من الفرنسية والإسبانية إلى العربية،
- ❖ قامتْ بإعداد بحث باللغة الإسبانية حول مقارنة الأمثال الإسبانية والعربية في العام ١٩٨٨، لصالح المعهد الإسباني العربي في مدريد.

الأبحاث والمؤتمرات

- عملتُ مع الأستاذ جان كلود دافيد خبيرة دولية لطريق الحرير في مشروع MEDINA للسياحة الثقافية في حوض المتوسط، بالتعاون مع المجموعة الأوروبية. كما اختيرت أيضاً في المشروع ذاته خبيرة وطنية لطريق الحرير ٢٠٠٤- ٢٠٠٦:

www.medinaportal.net

- شاركتُ في مؤتمر جامعة صوفيا، بلغاريا، ١٠- ١٤ أيار ٢٠٠٥ حول العالم العربي والإسلام: هوية حضارية متميزة وتفاعل حضاري: " الهوية العربية والهوية الإسلامية: التشابه والاختلاف بينهما وتجارب شخصية".

- قدمتُ بحثاً عن "الحرير والحمّام: ما الرابط بينهما؟" في جامعة دمشق، بمناسبة احتفالية "دمشق عاصمة للثقافة العربية، ٢٠٠٨"، بالتعاون مع المعهد الفرنسي للشرق الأدنى و الأويكودروم في فيينا- النمسا.

- قدمتُ أبحاثاً في عدة مؤتمرات دولية عن تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، في جامعتَيْ دمشق وحلب، ٢٠٠٤- ٢٠٠٥.

- قدمتُ محاضرة عن بحث الحرير في سورية في مؤتمر طريق الحرير، في مدينة (تشي آن) في الصين الذي نظمته اليونسكو في شهر تشرين الثاني من العام ٢٠٠٢.

- شاركتُ في المؤتمر الدولي حلب وطريق الحرير، ١٩٩٤، ببحث عن الحرير في أنطاكية.

العمل

- مدرِّسة للفرنسية والعربية، لغتين أجنبيتين، وللترجمة منذ العام ١٩٨٤ وحتى العام ٢٠١١: في معهد اللغات في جامعة دمشق، وفي المعهد الفرنسي للدراسات العربية.

- عملتُ لمدة سبع سنوات في تأسيس المكتبة الوطنية في دمشق (مكتبة الأسد)، ١٩٨٤- ١٩٩١.

- تعمل حالياً باحثة ومترجمة.

المراجع

١- أحداث الثورة السورية الكبرى كما سردها قائدها العام سلطان باشا الأطرش (١٩٢٥ - ١٩٢٧)، راجعها وصحّحها ومهّد لها منصور سلطان الأطرش، دمشق، دار طلاس، ط ٢ ، ٢٠٠٨.

٢- الجيل المُدان: سيرة ذاتية لمنصور سلطان الأطرش، تحقيق د. ريم منصور الأطرش، بيروت، دار رياض الريس، ٢٠٠٨.

٣- لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، فراس السواح، دمشق، دار المنارة، ١٩٩٠.

٤- محمد واليهودية، جورجي كنعان، بيروت، مكتبة بيسان، ١٩٩٩.

٥- www.rimalattrache.com

٦- www.sultanalattrache.org